الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر باتنة-1-

كلية العلوم الإسلامية

قسم أصول الدين

نيابة العمادة لما بعد التدرج

والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

المسؤولية و أحكامها من خلال الكتاب و السنة

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه العلوم في العلوم الإسلامية

تخصص: كتـــاب و ســـنة

إعداد الطالبة:

صورية شرفاوي

إشـــراف الدكتور :

عمر حيدوسي

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د السعيد بوخالفة	أستـــــاذ	جامعة باتنة -1-	رئيـــــسا
د. عمر حيدوسي	أستاذ محاضر – أ –	جامعة باتنة -1-	مشرفا ومقررا
د.فايزة محمدي	أستاذ محاضر –أ–	جامعة باتنة -1-	عضـــــوا
أ.د. كمال قدة	أستـــــاذ	جامعة الوادي	عضـــــوا
د.عبد المجيد مباركية	أستاذ محاضر –أ–	جامعة الوادي	عضـــــوا
د.عبد الرحمن معاشي	أستاذ محاضر –أ–	جامعة الأمير – قسنطينة	عضـــــوا

السنة الجامعية: 1438- 1439 هـ / 2017-2018م

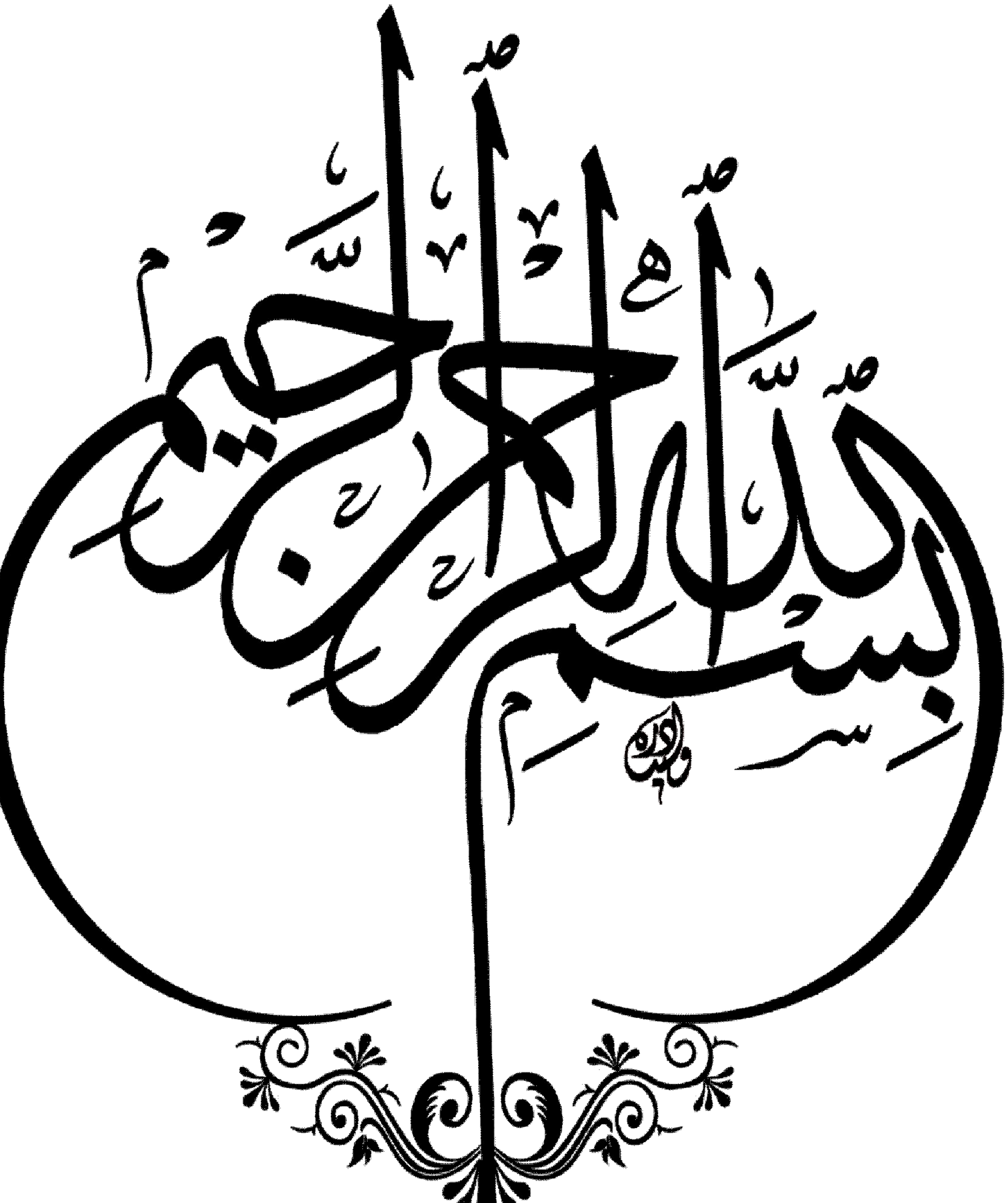
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله.

لقد تخلى الناس عن المسؤولية المنوطة بهم في كل المستويات، سواء أكان ذلك على المستوى الفردي أم على المستوى الجماعي، فتخلخل بناء المجتمع من بعد ما تخلخل بناء الأسرة، فكاد أن يهوي بنيانه من القواعد.

تلاوم الناس فيما بينهم عن الحال التي آل إليها المسلم؛ ذلك أن أحدا لم يؤد مسؤولياته في العمل المكلف به، وقد يكون الذي يلوم هو المُلام أيضا في الموقف نفسه.

هذا حال الأجيال السابقة والقريبة العهد، أما الأجيال اللاحقة فما ستواجهه عظيم من بُعْدٍ عن الإسلام وتعاليمه إذا لم يُحمل بأيديهم إلى بر الأمان، وتصحيح مفاهيمهم، وتحسيسهم بالمسؤولية التي ستؤول إليهم من بعد آبائهم.

فهذه مجموعة من المفاهيم نحاول كشف الستار عنها، وتوضيح خفاياها من خلال ما تضمنته نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وفق منهج التفسير الموضوعي.

إشكالية البحث:

خلق الله تعالى الإنسان وسخر له الكون خدمة له، وكلفه تحمل مسؤولية حمل أمانة السماء، وميزه بالعقل مناط التكليف وأساس المسؤولية، وهو مأمور بعبادته، قال تعالى:﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ (سورة الذاريات:56)، والعبادة تشمل القول والعمل، والسلوك والأخلاق، وفي الكل يتحمل الإنسان تبعة ذلك، في إطاره الفردي والأسري، والاجتماعي والإنساني.

إن إحساس الإنسان بالمسؤولية على ما يقوم به من عمل منبثق من إيمانه بأن ذلك مؤسس ومؤصل في دستوره الشرعي، الكتاب والسنة، وهو ما يجعل شعوره بالمسؤولية والتزامه بها نحو ربه، ونفسه، وأسرته، ومجتمعه آكد لأنه إلهي المصدر.

انطلاقا من هذه الإشكالية نحاول الإجابة عن السؤال المحوري لهذه الدراسة:

-ما هو التصور القرآني للمسؤولية وأحكامها، ماهية وأسسا ومترتبات في ضوء نصوص القرآن والسنة ؟.

وللإجابة عن هذا السؤال الإشكالي، تطرح جملة أسئلة فرعية نفسها:

- ما المسؤولية؟ وما خصائصها، وشروطها، وأهدافها؟
- ما مراتب المسؤولية، وأسسها الاستخلافية؟
- ما المترتبات التكليفية، والجزائية للمسؤولية؟

وفي ضوء الإجابة عن تلك التساؤلات، صغنا عنوان هذا الموضوع كالآتي:

"المسؤولية وأحكامها في الكتاب والسنة"

أسباب اختيار الموضوع:

- تأصيل المفاهيم الإسلامية، ومفهوم المسؤولية كنموذج، بردها إلى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، محاولة لفهم المراد القرآني والنبوي من الموضوع.
- اختلاف مستويات المسؤولية وتنصل أصحابها من أدائها حسب ما يقتضيه وجودهم الاجتماعي ووظيفتهم تجاه باقي أفراد المجتمع.
- إعادة ربط الصلة بين الإنسان والوحي، والحث على العمل بهذا الأخير، لنيل خير الجزاء على حسن الأداء.

أهداف البحث:

- بيان حقيقة المسؤولية حسب ورودها في القرآن والسنة، وإعادة تصحيح المفهوم البشري للمصطلحات القرآنية الاجتماعية، لإعادة فهم حقيقة المسؤولية المنوطة بالإنسان المكرم كما بينتها النصوص.
- الخروج بتصور صحيح وتطبيق فَعَّال للمسؤولية كما جاءت بها النصوص القرآنية والأحاديث النبوية.
- الاقتداء بالرسول -صلى الله عليه وسلم- والصحابة في تحمل المسؤولية، مع اختلاف درجاتهم وطبقاتهم ووظائفهم، لبناء مجتمع كما كان على عهده عليه الصلاة والسلام في المنهج، والسلوك، والفكر، والتطبيق.

منهج البحث:

المنهج المتبع لهذا البحث هو منهج التفسير الموضوعي التجميعي، الذي يعتمد بصورة أساسية: الاستقراء والتحليل، فينطلق من استقراء الآيات والأحاديث الصحيحة المتعلقة بالموضوع، وتصنيفها، ثم تحليلها وفق منهج التفسير المعروف، الذي يعتمد تفسير القرآن بالقرآن، ثم آراء المفسرين والعلماء، مع التركيز على ما يخدم الاتجاه العام للموضوع.

الدراسات السابقة:

من خلال فترة البحث والاطلاع، وجمع المادة العلمية، -وفي حدود تمكني من اقتناء بعض الدراسات- توصلت إلى الدراسات التالية التي تتقاطع مع موضوع بحثي في المسؤولية:

- **"المسؤولية والجزاء في سورة هود"**، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1415هـ/1994م؛ حيث قسم بحثه إلى ثلاثة فصول، الفصل الأول في التكليف والمسؤولية تضمن عناوين جزئية ، والفصل الثاني في قصص من التاريخ، أما الفصل الثالث فجاء في الاستقامة على التكليف والتحذير من الظلم. ولقد كان التقاطع بين هذه الدراسة وبحثي في الفصلين الأول والثالث.وما يُلاحظ على هذه الدراسة أنها جزئية من موضوع عام؛ حيث تعلق بسورة واحدة، بالإضافة إلى جزئيات الفصول جاءت مختصرة جدا.

- **"فقه المسؤولية"**، علي عبد الحليم محمود، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، ط1، 1415هـ/1995م. وقد قسم بحثه إلى خمسة أبواب؛ الباب الأول جاء في مصادر المسؤولية في الإسلام، والباب الثاني في المسؤولية الشخصية، أما الباب الثالث فجاء في المسؤولية الاجتماعية في الإسلام، والباب الرابع في المسؤولية السياسية في الإسلام، والباب الخامس في المسؤولية في مجال العمل الإسلامي. وتقاطعت الدراسة مع بحثي في المسؤولية الاجتماعية في الإسلام؛ حيث تتضمن مسؤولية الأسرة، والمجتمع، والدولة والأمة.

-**"المسؤولية الخلقية والجزاء عليها دراسة مقارنة"**، أحمد بن عبد العزيز بن محمد الحليبي، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1417هـ/ 1996م. لقد كانت هذه الدراسة خاصة بالمسؤولية الخلقية؛ حيث تميزت بالدقة والشمول؛ حيث فَصَّل في كل جزئيات

الموضوع قُسم الموضوع إلى تمهيد تضمن الخلق وعناصره الأساسية، ثم الباب الأول في المسؤولية الخلقية؛ وقد قسم إلى خمسة فصول؛ الفصل الأول في مفهوم المسؤولية الخلقية، الفصل الثاني في أسس المسؤولية الخلقية، الفصل الثالث شروط المسؤولية الخلقية، والفصل الرابع مجالات المسؤولية الخلقية، والفصل الخامس أهداف المسؤولية الخلقية في حياة الفرد والمجتمع. أما الباب الثاني فكان الجزاء على المسؤولية الخلقية، حيث قُسم إلى ثلاثة فصول، الفصل الأول كان في مفهوم الجزاء، والفصل الثاني في أنواع الجزاء، والفصل الثالث كان في آثار الجزاء في حياة الفرد والمجتمع. وقد تقاطعت هذه الدراسة مع بحثي في كثير من الجزئيات في المفهوم، والأسس، والجزاء وآثاره.

- "**المسؤولية والجزاء في القرآن الكريم**" سجاد أحمد بن محمد أفضل، بكلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، باكستان، 1428هـ/2007م، قسم الدراسة إلى بابين، الباب الأول: التمهيد في مفهوم المسؤولية لغة واصطلاحا، وخصائص المسؤولية في القرآن الكريم، الفصل الأول فكان في شروط المسؤولية ومناطها في القرآن الكريم، الفصل الثاني في أنواع المسؤولية وأهدافها. الباب الثاني تضمن ربط الجزاء بالمسؤولية، حيث حَوى التمهيد على مفهوم الجزاء لغة واصطلاحا وخصائص الجزاء في القرآن الكريم، ثم الفصل الأول كان في الجزاء الإلهي في الدنيا، ثم الفصل الثاني الجزاء الإلهي في الآخرة، فالفصل الثالث في الجزاء وأثره على الفرد والمجتمع. وتقاطعت الدراسة مع بحثي في مفهوم المسؤولية، وأهداف وشروط المسؤولية، ثم الجزاء. فهذه الدراسة لم تفصل في المسؤوليات، ولا في الجزاء من حيث الفرد، والمجتمع، والدولة، والأمة. فالدراسة جاءت عامة.

خطة البحث:

قسمت خطة البحث إلى مقدمة، ثلاثة فصول، وخاتمة.

الفصل الأول فكان في ماهية المسؤولية، وقد قسمته إلى مبحثين؛ المبحث الأول في مفهوم المسؤولية وخصائصها؛ وقسمته إلى مطلبين، المطلب الأول مفهوم المسؤولية، والمطلب الثاني خصائص المسؤولية. أما المبحث الثاني فكان في شروط المسؤولية وأهدافها، وقسمته إلى مطلبين؛ المطلب الأول شروط المسؤولية، والمطلب الثاني أهداف المسؤولية.

الفصل الثاني كان في أسس المسؤولية، وقسمته إلى مبحثين؛ المبحث الأول عنونته بالأساس الاستخلافي للمسؤولية، وقسمته إلى ثلاثة مطالب، المطلب الأول التكريم الإلهي للإنسان، والمطلب الثاني مسؤولية العبادة، والمطلب الثالث مسؤولية عمارة الأرض. أما المبحث الثاني فتضمن مراتب المسؤولية، وقسمته إلى مطلبين، المطلب الأول المسؤولية التعبدية، والمطلب الثاني المسؤولية الاجتماعية.

أما الفصل الثالث فتضمن مترتبات المسؤولية، وقسمته إلى مبحثين؛ المبحث الأول الترتب التكليفي للمسؤولية، وقد قسمته إلى ثلاثة مطالب، المطلب الأول الوسع التكليفي، والمطلب الثاني في اليسر التكليفي، أما المطلب الثالث فتضمن التكافل التكليفي. أما المبحث الثاني فعنونته بالترتب الجزائي للمسؤولية، وقد قسمته إلى ثلاثة مطالب؛ المطلب الأول الجزاء باعتبار المكلف، والمطلب الثاني تضمن الجزاء باعتبار الأجل، أما المطلب الثالث فكان في الجزاء باعتبار الدارين.

الخاتمة تضمنت النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث.

هذا وفي الأخير أسأل الله تعالى أن يوفيني أجر اجتهادي في هذا البحث، الذي قمت بإنجازه بكل نية خالصة لوجهه الكريم والعظيم، رجاء رضاه وعفوه، وأن يرحمني برحمته الواسعة، ويكتب بحثي في ميزان حسناتي. وأختم بحمد الله عزوجل كما بدأته على بركته سبحانه وتعالى.

﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (سورة التوبة: 105)

الفصل الأول ماهية المسؤولية

المبحث الأول: مفهوم المسؤولية وخصائصها

المطلب الأول: مفهوم المسؤولية

المطلب الثاني: خصائص المسؤولية

المبحث الثاني: شروط المسؤولية وأهدافها

المطلب الأول: شروط المسؤولية

المطلب الثاني: أهداف المسؤولية

الفصل الأول: ماهية المسؤولية

إن مفاتيح الولوج إلى البحث ضرورية مضمونه، ولذلك كان من مباحث تتضمن المفاهيم الأساسية للعنوان، ليسهل فهم وتتبع أقسام البحث، وقد قسم الفصل الأول إلى مبحثين:

المبحث الأول: مفهوم المسؤولية وخصائصها

المبحث الثاني: شروط المسؤولية وأهدافها

المبحث الأول: مفهوم المسؤولية وخصائصها

يتضمن المبحث الأول مفهوما للمسؤولية ثم بيان خصائصها، لنتمكن من وضع صورة تقريبية لمفهوم المسؤولية، وقد قسم المبحث إلى مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم المسؤولية

المطلب الثاني: خصائص المسؤولية

المطلب الأول: مفهوم المسؤولية

لكل بحث لابد له من مدخل يبين فيه مفهوم أهم مصطلحاته؛ والتي تعتبر مفاتيح لفهم مكنوناته.

الفرع الأول: مفهوم المسؤولية لغة

جاء مفهوم المسؤولية في معاجم اللغة على معان عدة ؛ فأصلها عند ابن فارس من:

"سأل: السين والهمزة واللام كلمة واحدة؛ يقال: سأل يسأل سؤالا ومسألة ورجل سُؤَلَةٌ: كثير السؤال"[1].

ثم جاء بمعان مختلفة يدور معناها حول:

1- الطلب:

جاء في لسان العرب:" سأل يسأل سؤالا وسآلة ومسألة وتسآلا وسألةً، وتساءلوا سأل بعضهم بعضا، وفي التنزيل العزيز:﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ**﴾[2]؛ ومعناه تطلبون حقوقكم به، وقوله تعالى:﴿**كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا**﴾[3] أراد قول الملائكة: ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم. وقال ثعلب: معناه وعدا مسؤولا إنجازه، يقولون ربنا قد وعدتنا فأنجز لنا

1- ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1411هـ/1991م، 124/3، مادة (س.أ.ل) .

2- سورة النساء: 1

3- سورة الفرقان:16.

وعدك وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ معناه سوف تسألون عن شكر ما خلقه الله لكم من الشرف والذكر.. "[1] .

2- الجزاء:

سؤال بمعنى المجازاة كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2]. فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم[3].

3-المؤاخذة والتوبيخ:

"قوله عزوجل: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾[4] قال الزجاج: سؤالهم سؤال توبيخ وتقرير لإيجاب الحجة عليهم لأن الله جل ثناؤه عالم بأعمالهم"[5] .

وإن كان هذا تعريفا للمسؤولية؛ فإنه يتضمن معنى الجزاء أيضا في شقه الثاني بمعنى: العمل الذي تقع عليه التبعة.

ومن كل ما تقدم فإن معنى السؤال في اللغة هو: طلب المعرفة، أو الاستعطاء، أو الاستخبار.

هذا ما أفصحت عنه المعاجم اللغوية في بيان معنى السؤال.

1- ابن منظور: محمد بن مكرم علي بن أحمد الأنصاري، لسان العرب، دار الجيل، بيروت، دار لسان العرب، بيروت، دط، 1408هـ/1988م، 75/2- 76. مادة (س.أ.ل). ينظر: الزبيدي، تاج العروس، 365/7. (مادة سأل).

2- سورة البقرة: 134 .

3- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط2، 1420هـ / 1999م، 1 / 448.

4- سورة الصافات: 24 .

5- ابن منظور، لسان العرب، 76/2 ، مادة (س.أ.ل) . ينظر: الزبيدي، تاج العروس، 365/7. مادة (س.أ.ل).

وعلى هذا يكون مدار المسؤولية حول الطلب، المؤاخذة، المحاسبة، والمجازاة.

الفرع الثاني: مفهوم المسؤولية اصطلاحا

جاء في التعريف اللغوي أن المسؤولية تدور حول معنى الطلب، والمؤاخذة، والمحاسبة، والمجازاة.

وفي الاصطلاح فإن لفظ المسؤولية من:" السؤال: استدعاء معرفة، أو ما يؤدي إلى المعرفة، واستدعاء مال، أو ما يؤدي إلى المال؛ فاستدعاء المعرفة جوابه على اللسان، واليد خليفة له بالكتابة، أو الإشارة، واستدعاء المال جوابه على اليد، واللسان خليفة لها إما بوعد، أو برد، إن قيل: كيف يصح أن يقال السؤال يكون للمعرفة، ومعلوم أن الله تعالى يسأل عباده نحو: ﴿**وإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ**﴾[1]، قيل إن ذلك سؤال لتعريف القوم وتبكيتهم لا لتعريف الله تعالى فإنه علام الغيوب، فليس يخرج عن كونه سؤالا عن المعرفة، والسؤال للمعرفة يكون تارة للاستعلام، وتارة للتبكيت؛ كقوله تعالى:﴿**وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ**﴾[2] ولتعرُّف بالمسؤول، والسؤال إذا كان للتعريف تعدى إلى المفعول الثاني تارة بنفسه، وتارة بالجار. تقول: سألته كذا، وسألته عن كذا وبكذا، وبعن أكثر: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ**﴾[3]. وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي**﴾[4]، وقال: ﴿**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ**﴾[5]. وإذا كان السؤال لاستدعاء مال فإنه يتعدى بنفسه أو بمن، نحو: ﴿**وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾[6]، ﴿**وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا**﴾[1]،

1- سورة مريم: 116.

2- سورة التكوير: 8.

3- سورة الإسراء: 85.

4- سورة البقرة: 186.

5- سورة المعارج: 1.

6- سورة الأحزاب: 53

ويعبر عن الفقير إذا كان مستدعيا لشيء بالسائل، نحو: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[2]، وقوله: ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[3]"[4] .

فإذا كان السؤال مطلوبا لزيادة المعرفة، للذي لا يعلم ويبحث عن إجابة بالنسبة للإنسان، فسؤاله سبحانه وتعالى هو للتبكيت وليس للمعرفة .

ومنه يكون "المسؤول من رجل الدولة: المنوط به عمل تقع عليه تبعته، والمسؤولية: التبعية؛ يقال: أنا بريء من مسؤولية هذا العمل. المسئولية (بوجه عام) حال أو صفة من يسأل عن أمر تقع عليه تبعته يقال أنا بريء من مسؤولية هذا العمل. وتطلق (أخلاقيا) على التزام الشخص بما يصدر عنه قولا أو عملا . وتطلق (قانونا) على الالتزام بإصلاح الخطأ الواقع على الغير طبقا لقانون "[5] .

إن تحديد المسؤولية برجل الدولة الذي تقع عليه تبعة عمله، من خلال التعريف عام وغير محدد؛ إلا أن المسؤولية تصلح لكل فرد من المجتمع مع اختلاف مهامهم، وأصنافهم. ثم جاء التعريف على أساس أنواع المسؤولية عامة، أخلاقية، ثم قانونية؛ والتي مدارها تحمل الإنسان تبعة ما يصدر عنه من قول أو عمل، مطالبا بالالتزام به أخلاقيا أو قانونيا.

1- سورة الممتحنة: 10.

2- سورة الضحى: 10.

3- سورة الذاريات: 19.

4- الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن، دار الكتب العليمة، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ/1997م. ص: 246-247. ينظر: أبو البقاء: أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1413هـ/1993م. ص501-502. ينظر الفيروزآبادي: محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر أبو طاهر مجد الدين الشيرازي، بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، 861/1 (بصيرة في السؤال).

5- مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، دار الدعوة، تركيا، د ط، 1410هـ/1989م. 411/1

لا يمكن أن تعرف المسؤولية كلفظ مجرد؛ إذ أنها تعرف مضافة إلى لفظ آخر كالمسؤولية الخلقية، المسؤولية الاجتماعية، المسؤولية المدنية، ... فمعناها يتحدد تبعا للفظ المضاف إليها.

قال دراز: "تعني المسئوليّة كون الفرد مكلّفا بأن يقوم ببعض الأشياء وبأن يقدّم عنها حسابا إلى زيد من الناس.... وينتج عن هذا التّحديد أنّ فكرة المسئوليّة تشتمل على علاقة مزدوجة من ناحية الفرد المسئول: علاقته بأعماله، وعلاقته بمن يحكمون على هذه الأعمال. والمسئوليّة قبل كلّ شيء استعداد فطريّ، إنّها هذه المقدرة على أن يلزم المرء نفسه أوّلا، والقدرة على أن يفي بعد ذلك بالتزامه بوساطة جهوده الخاصّة"[1]. إذن فمدار المسؤولية عند دراز على شقين؛ الشق الأول متعلقة بفطرية المسؤولية؛ وأنها فردية تتضمن علاقة الإنسان بنفسه، ثم الشق الثاني علاقته بمن لهم القدرة على تقييم أعماله .

وقد عرّفها مقداد يالجن المسؤولية على أنها: " تحمل الشخص نتيجة التزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الايجابية والسلبية، أمام الله في الدرجة الأولى، وأمام ضميره في الدرجة الثانية، وأمام المجتمع في الدرجة الثالثة"[2] .

إذن فالشخص ملزم بتحمل كل ما يصدر منه، أمام الله، والضمير، والمجتمع؛ سواء أكان ما يصدر منه إيجابيا، أم سلبيا.

1- دراز: محمد عبد الله، دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار البحوث العلمية، الكويت، ط3، 1400هـ/ 1980م. ص: 136/ 137.

2- مقداد يالجن، علم الأخلاق الإسلامية، ص:252.

الفرع الثالث: مفهوم المسؤولية في القرآن الكريم والحديث النبوي

1- مفهوم المسؤولية في القرآن الكريم

ذكر لفظ المسؤولية بمشتقاتها في القرآن الكريم في مواضع كثيرة[1]، وتعددت معانيه بحسب سياق الآية؛ فقد جاء بمعنى:

- الاستدعاء والطلب والاختبار[2]، قال تعالى: **﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾**[3].

- سؤال بيان الحكم، وطلب المعرفة [4]، قال تعالى: **﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾**[5].

- سؤال الافتقار إلى الله، ومعرفة أمور الدين والدنيا[6]، كقوله تعالى: **﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾**[7].

- سؤال طلب حقائق الأشياء[8]، قال تعالى: **﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾**[9]

1- ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الجيل، بيروت، دط، 1408هـ/1988م، ص: 336-337-338.

2- ينظر الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420 هـ / 2000 م، 596/23 .

3- سورة المعارج آية 1 .

4- ينظر الرازي: محمد فخر الدين بن ضياء الدين عمر، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، لبنان، بيروت، ط1، 1401هـ/ 1981م، 37/20.

5- سورة النحل: 43 .

6- ينظر: الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله الخوارزمي، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد عوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1418هـ/1998م، 12/6.

7- سورة الرحمن: 29 .

8- ينظر الشوكاني: محمد بن علي بن محمد، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، 1428هـ/2007م، ص:1573:

9- سورة النبأ: 1 .

- سؤال القرب والاستجابة[1]، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[2].

- سؤال التوبيخ والتقريع[3]، قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[4].

- سؤال بمعنى عدم الحساب عن عمل الغير[5]، قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[6].

–سؤال الحساب الفردي[7]، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[8] .

– سؤال وعيد[9]، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾[10]

– سؤال جزاء[1]، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2] .

1- ينظر: الآلوسي: شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دط، دت، 63/2.

2- سورة البقرة: 186.

3- ينظر: البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، ط 4، 1417 هـ /1997 م، 394/4.

4- سورة الحجر: 92

5- ينظر الشعراوي: محمد متولي، تفسير القرآن العظيم، أخبار اليوم، دط، دت، ص: 138.

6- سورة البقرة: 134.

7- ينظر: السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ/2000 م، 457/1.

8- سورة الإسراء: 36 .

9- ينظر: ابن عطية: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام المحاربي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط1، 1422هـ/2001م، 374/4.

10- سورة الأحزاب: 15.

من خلال ما ورد من معاني السؤال (المسؤولية) في القرآن الكريم نجد أن معناها يتوافق مع ما جاء في المعاجم اللغوية. الذي يدور حول الطلب، والمؤاخذة، والمحاسبة، والمجازاة.

2-مفهوم المسؤولية في الحديث النبوي

استكمالا لمعنى المسؤولية في اللغة والاصطلاح والقرآن الكريم؛ لم يخرج معناها في الحديث عما جاء في القرآن الكريم، فقد جاء لفظ المسؤولية في الحديث النبوي الشريف بمعنى الرعاية؛ وهذه الرعاية تختلف باختلاف درجة المسؤول، ووضعية المسؤول عنهم؛ والحديث لم يترك مكلفا لم يلزمه بالمسؤولية؛ فهي تشمل كل أفراد المجتمع وكل مناحي الحياة. فقد جاء في الحديث المشهور الذي رُوي عن عبد الله بن عمر يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ** "[3].

1- ينظر: النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين أبو البركات، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق: مروان محمد الشعار، دار النفائس، بيروت، د ط، 2005م، 177/2.

2- سورة النحل: 93 .

3- أخرجه البخاري، كتاب الجنائز: باب قول النبي صلى الله عليه وسلم"يعذب الميت ببكاء أهله عليه إذا كان النواح في بيته"، 350/2. كتاب الاستقراض، باب: العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه، 123/3. كتاب الوصايا، باب:تأويل قوله تعالى: ﴿**مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ**﴾ (النساء 12)، 285/3. كتاب العتق، باب: كراهية التطاول على الرقيق قوله عبدي أو أمتي ..... 174/3. كتاب العتق، باب: العبد راع في مال سيده ونسب النبي صلى الله عليه وسلم المال إلى سيده.174/3. كتاب النكاح، باب:﴿**قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**﴾ 474/6 .كتاب النكاح، باب:المرأة راعية في بيت زوجها،481/6، رقم:5200.كتاب الأحكام، باب: قوله تعالى:﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾ 444/8. ومسلم، كتاب الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، 1459/3-1460 .

قال ابن حجر:" قوله كلكم راع يعم جميع الناس؛ فيدخل فيه المرعى أيضا فالجواب أنه مرعى باعتبار راع، باعتبار حتى ولو لم يكن له أحد كان راعيا لجوارحه وحواسه لأنه يجب عليه أن يقوم بحق الله وحق عباده "[1]. فالأمر عام لكل مخلوق كان راعيا على غيره، وإن لم يوجد من يراعاه فهو راع على نفسه.

وذكر الإمام مالك معنى قوله صلى الله عليه وسلم:«**كُلُّكُمْ رَاعٍ** »: "من الرعاية بمعنى الحفاظة أي كلكم راع لرعيته وناظم لأمور من يتبعه؛ فيسأل كلٌّ عن رعيته عما وقع منه في حقهم، من العدل والظلم"[2]. فالرعاية هي الحفظ الكامل لكل من تحت رعايته بتوفير شروط الحياة، وحمايته من كل ما يضره.

" «**أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ** » قال العلماء الراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه، وهو ما تحت نظره. ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته"[3]. فالراعي بذلك هو من حفظ وراقب حقوق من له عليه السلطة؛ وهو كل ضعيف ليست له القدرة على تحمل مسؤولياته.

وتبقى الرعاية تختص بالحفظ والحرص بمراقبة الله تعالى في كل عمل، وفي كل حال، وفي كل الأوقات لتعطي ثمارها فيمن هم موكلون بالقيام على شؤونهم؛ وبالتالي تكون النتيجة إيجابية. ويبقى

1- ابن حجر: شهاب الدين العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 2، د ت، 131/12 .

2- مالك بن أنس: أبو عبد الله الأصبحي، موطأ الإمام مالك -رواية محمد بن الحسن-، تحقيق: تقي الدين الندوي، دار القلم، دمشق، ط1، 1413 هـ /1991م، 503/3 .

3- العظيم آبادي: أبو الطيب محمد شمس الحق، عون المعبود شرح سنن أبي داود، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط2، 1388هـ/1968م، 3/ 1459.

حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يتحدث فيه عن مجالات الرعاية؛ والتي تشمل كل طبقات المجتمع، وفي كل طبقة تتحدد طبيعة الرعاية، وتختلف باختلاف طبيعة المسؤولية. ورغم كل هذا الاختلاف إلا أن الرعاية تتضمن معنى واحدا هو المحافظة، والمراقبة، والصون والعناية، "وقد تحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن فضيلة الرعاية فأخبرنا في حديثه المتفق عليه: أن كل واحد منا راع: أي حافظ ومؤتمن، وكل واحد مسؤول عن رعيته.... وهي كل من شمله بالرعاية والحفظ؛ لأن الرعاية مراعاة، والمراعاة ملاحظة، والملاحظة حفظ ونظر.."[1]. فالرعاية عامة وخاصة؛ أما الخاصة فهي المتعلقة بذات الإنسان الروحية والبدنية. وأما العامة فهي تعدي الرعاية إلى من هم مسؤولون منه، وواجب عليه أداء حقوقهم، ومراقبتهم بالنظر والحفظ.

1- الشرباصي، أحمد، موسوعة أخلاق القرآن، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1405هـ/ 1985م، 196/6.

المطلب الثاني: خصائص المسؤولية

إن المتتبع للآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة في معناها وتفسيرها، يتبين أن خصائص المسؤولية تنبني على:

الفرع الأول: الربانية (مرجعية التوحيد):

خلق الله تعالى الإنسان وجعله مستخلفا له في الأرض، ووضع له قانونا يسيّر به حياته الخاصة والعامة، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾[1]،

"والخليفة الفعيلة من قولك: خلف فلان فلانًا في هذا الأمر، إذا قام مقامه فيه بعده. كما قال جل ثناؤه: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾[2]، يعني بذلك أنه أبدلكم في الأرض منهم، فجعلكم خلفاء بعدهم. ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم: خليفة، لأنه خلف الذي كان قبله، فقام بالأمر مقامه، فكان منه خلفًا "[3]. واستخلاف الإنسان في هذه الأرض يقتضي تحمل مسؤوليات؛ مسؤولية تجاه الله سبحانه وتعالى بتطبيق شرعه وأحكامه في نفسه بالائتمار بأوامره، والانتهاء عن نواهيه، وفي من هم مسؤولون منه بحفظ ما يرعاهم ويحميهم. ثم تجاه الكون بحفظ بيئته وكل ما سخر لهذا الإنسان ليحفظ حياته، ويساعده على أداء مهمة الخلافة كما أمره الله تعالى.

1- سورة البقرة: 30.

2- سورة يونس:14.

3 - الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، 449/1.

لا يمكن للإنسان أن يقوم بحق الخلافة إلا بدستور يسير به الحياة مع نفسه، ومع غيره، فكان القرآن الكريم؛ الذي أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ميثاق الإنسان مع ربه لتحقيق الخلافة على المنهج الرباني قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[1].

ذكر الشوكاني في تفسير الآية ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾" أي: من القرآن، وإن كذّب به من كذّب ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق واضح، والجملة تعليل لقوله ﴿فَاسْتَمْسِكْ﴾ ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي: وإن القرآن لشرف لك، ولقومك من قريش إذ نزل عليك، وأنت منهم بلغتك، ولغتهم، ومثله قوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾[2]، وقيل: بيان لك، ولأمتك فيما لكم إليه حاجة. وقيل: تذكرة تذكرون بها أمر الدين، وتعملون به ﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عما جعله الله لكم من الشرف، ... وقيل: يسئلون عما يلزمهم من القيام بما فيه، والعمل به"[3]. فهذا القرآن حجة على الإنسان الخليفة؛ إذ هو دستور عبادة وعمل في الدنيا، وسؤال وجزاء يوم القيامة.

ولما كان الإنسان مستخلفا بأمر من الله عز وجل، ولما كان القرآن الكريم دستوره،كان واجبا أن يكون هذا القرآن مصدرا ومنهجا لحياته، وأن يكون له في هذه الحياة غاية يبتغيها في الدنيا

1- سورة الزخرف، 43 /44.

2- سورة الأنبياء: 10.

3- الشوكاني، فتح القدير، مصدر سابق، 6 / 406 .

والآخرة إذ أن " حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، والحصول على مرضاته،...، هي غاية الإنسان، ووجهة الإنسان، ومنتهى أمله، وسعيه، وكدحه في الحياة "[1] .

ولكي يكون هذا المنهج واضحا ميسرا للعمل به؛ جاء النبي صلى الله عليه وسلم موضحا ومبينا أحكام القرآن الكريم؛ فهو عليه الصلاة والسلام مبلغ عن الله تعالى بتلقيه الوحي عنه عزوجل، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾[2] .

ويفسر الزمخشري قوله تعالى: ﴿**بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ**﴾ يعني "جميع ما أنزل إليك وأي شيء أنزل إليك غير مراقب في تبليغه أحداً، ولا خائف أن ينالك مكروه ﴿**وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ**﴾ وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك ﴿**فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾ وقرىء: «رسالاته»، فلم تبلغ إذاً ما كلفت من أداء الرسالات، ولم تؤدّ منها شيئاً قط، وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض، وإن لم تؤدّ بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعاً، كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها، لإدلاء كل منها بما يدليه غيرها. وكونا كذلك في حكم شيء واحد. والشيء الواحد لا يكون مبلغاً غير مبلغ، مؤمناً به غير مؤمن به"[3]. فالرسول صلى الله عليه وسلم مأمور بتحمل مسؤولية التبليغ وأداء رسالة الإسلام كاملة غير منقوصة، ومن بعده كل المسلمين الذين يحملون مسؤولية إيصال تعاليم الإسلام إلى أقاصي الأرض وأدناها.

1- القرضاوي، يوسف، الخصائص العامة للإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 10، 1419 هـ/ 1999 م، ص 9 .
2- سورة المائدة: 67.
3- الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق، 2/ 48.

والسنة النبوية المطهرة مصدر ثان لبيان الأحكام. وتطبيق ما جاء في السنة النبوية هو تطبيق لما جاء في القرآن؛ لأن طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام من طاعة الله لأنه مبلغ عنه عز وجل، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[1]. وهذه قمة الربانية، فالقرآن الكريم والسنة النبوية هما مرجعيات المسلم في كل مجالات حياته.

الفرع الثاني: العموم

خلق الله تعالى الإنس والجن لعبادته وحده لا شريك له ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]؛ "وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها. فإن قلت: لو كان مريداً للعبادة منهم لكانوا كلهم عباداً ؟ قلت: إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها، لأنه خلقهم ممكنين، فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريداً لها، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم "[3] .

وكما أن الجن والإنس مأمورون بالعبادة؛ لأن الله عزوجل أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل، وسوف يسألون عن ذلك يوم القيامة، فالأنبياء أيضا مسؤولون عما أدوه من إبلاغ الرسالة، قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[4]، فالسؤال عام للمرسلين، وللمرسل إليهم على حد السواء حيث "أخبر عن حال يوم القيامة فقال: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: الأمم لنسألنهم هل بلغكم الرسل ما أرسلوا به إليكم وماذا أجبتم الرسل؟ ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الذين﴾

1- سورة النساء: 80 .

2- سورة الذاريات: 56 .

3- الزمخشري، الكشاف، 425/6.

4- سورة الأعراف: 6 .

عن تبليغ الرسالة. وهذا كقوله عز وجل: ﴿لِيَسْأَلَ الصادقين عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ للكافرين عَذَاباً أَلِيماً﴾[1]، ثم قال تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ أي: فلنخبرنّهم بما عملوا في الدنيا ببيان وعلم منا ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عمّا بلغت الرسل وعما ردَّ عليهم قومهم. ومعناه: وما كنا نسألهم لنعلم ذلك ولكن نسألهم حجةً عليهم"[2]. فسؤال الأنبياء يكون من باب إقامة الحجة على أقوامهم.

والرسول صلى الله عليه وسلم شهيد على أمته، كما أن الأنبياء من قبله شهداء على أممهم، لقول تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ و" الشهيد هو: الذي يشهد ليقرر حقيقة، ونحن نعلم أن حق أخبرنا:﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾[3]. وهذا النذير شهيد على تلك الأمة أنه بلغها المنهج، ورسول الله صلى الله عليه وسلم شهيد على أمته أنه بلغ،... وهو رسولها الذي بلغ عن الله منهجه، وكيف يكون الموقف إذا جاء وقال: أنا أبلغتهم الموقف ولا عذر لهم لأنني أعلمتهم به، ... ويكون رسولنا شهيداً على هؤلاء المكذبين الذين أرسل إليهم وهم أمة الدعوة ... وهذه ميزة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن أمة محمد هي الأمة الوحيدة التي أمنها الله على أن يحملوا المنهج إلى أن تقوم الساعة، فلن يأتي أنبياء أبداً بعد رسول الله، فيقول: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[4]؛ إذن فنحن بنص هذه الآية أخذنا امتداد الرسالة"[5] .

1- سورة الأحزاب:8.

2- السمرقندي: أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم الفقيه الحنفي، بحر العلوم، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، د ط، دت، 2 / 98.

3- سورة فاطر: 24 .

4- سورة البقرة: 143 .

5- الشعراوي، تفسير الشعراوي،مصدر سابق، 1 / 322.

فالمسلمون من خلال هذه الآية هم مسؤولون على أنفسهم، وعلى غيرهم في تبليغ الرسالة؛ لأنهم آخر الأمة بحكم الشهادة. والقرآن الكريم والسنة النبوية منهجا لهم في التبليغ، وأداء الأمانة.

إن الكتاب والسنة مرجعان أساسيان، وفاصلا بين الحق والباطل؛ لأن فيهما صلاح الدنيا والآخرة؛ لذلك فهما يعتبران " الأصلان اللذان لا عدول عنهما ولا هدي إلا منهما، والعصمة والنجاة لمن مسك بهما واعتصم بحبلهما، وهما العرفان الواضح والبرهان اللائح بين المحق إذا اقتفاهما والمبطل إذا حلاهما، فوجوب الرجوع إليهما معلوم من الدين ضرورة لكن القرآن يحصل العلم القطعي يقيناً، وفي السنة تفصيل معروف"[1]. فهذا أمر باتباع القرآن والسنة لأنهما منهجا إذا اتبعه المسلم لن يحيد ولن يضل. وبشارة له بشرف الخيرية والشهادة على جميع البشر، من هذا المنطلق تأتي المسؤولية العظيمة المنوطة به في تحمل الرسالة، وأدائها بشكل يرضاه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فبهذا فمسؤوليته عامة لعموم الرسالة.

وخطاب القرآن الكريم واضح في كل آياته؛ والتي تدل على عموم المسؤولية لكل مكلف، عن كل الأعمال والأقوال، قال تعالى: ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[2]، "يعني أن الضَّال والمُضِل، والتابع والمتبوع سَيُسألون عَمَّا عملوا. ثم يقول الحق سبحانه: ﴿**عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾"[3]. وقسم الله تعالى أن السؤال عام لكل مخلوق، لا مفر منه يوم القيامة، "قال الكلبي: أي: مسئولون عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم. وقال الضحاك: عن خطاياهم، وقيل: عن لا إله إلاّ

1- شرح الزرقاني على موطأ مالك، 5 / 84 .
2- سورة الحجر: 92-93 .
3- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 13/ 7780.

الله، وقيل: عن ظلم العباد"[1]. وبهذا – وإن اختلف التفسير– فإن المعنى يعم كل ما هو متعلق بالإنسان، فالمسؤولية عامة لكل ما يصدر عنه، سواء تجاه نفسه، أم غيره.

الفرع الثالث: الشمول

قرر القرآن الكريم شمول المسؤولية في عديد من الآيات الكريمة؛ ذلك أنها إنسانية تشمل الإنسان في كل مراحله، وفي كل أوقاته، وفي كل مكان يتواجد فيه.

وعلى هذا فإن المسؤولية تشمل كل إنسان على وجه الأرض، فهو مسؤول عن كل ما يصدر عنه، وما هو مطالب تأديته بأمر من خالقه عز وجل، ثم هو مسؤول عنه أمامه تعالى، يسأل عن كل ما أداه وما لم يؤده قال تعالى: ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[2]، يقول الإمام الشوكاني في تفسير الآية: ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ "أي: لنسألّن هؤلاء الكفرة أجمعين يوم القيامة عما كانوا يعملون في الدنيا من الأعمال التي يحاسبون عليها ويسألون عنها؛ وقيل: إن المراد سؤالهم عن كلمة التوحيد، والعموم في ﴿ **عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾، يفيد ما هو أوسع من ذلك. وقيل: إن المسؤولين ها هنا هم جميع المؤمنين والعصاة والكفار. ويدلّ عليه قوله:﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم**﴾[3]، وقوله:﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ**﴾[4]، وقوله:﴿**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا**

1- الشوكاني، فتح القدير، مصدر سابق، 6 / 191.

2 - سورة الحجر92-93 .

3- سورة التكاثر: 8 .

4- سورة الصافات: 24.،

﴿حِسَابَهُم﴾[1]، ويمكن أن يقال: إن قصر هذا السؤال على المذكورين في السياق وصرف العموم إليهم لا ينافي سؤال غيرهم"[2]. فالوقوف للسؤال يوم القيامة عام وشامل.

فكل إنسان مسؤول على نفسه في الدنيا عن كل صغيرة وكبيرة صدرت منه سواء أكان عملا أم قولا، كونه فردا ضمن مجموعة من أفراد مجتمع معين، ثم مسؤولا محاسبا أمام الله تعالى يوم القيامة عما قام به، سواء أكانت تجاه نفسه، أم تجاه غيره. وسواء أكان العمل أمرا، أم نهيا. والأمر لا يخص المؤمن فقط، إنما هو شامل للمؤمن والعاصي والكافر.

والإنسان مأمور بالعمل بنص قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا ﴾لكونه مكلفا متمتعا بكل وسائل التفكير والعمل. ولكون عمله ليس متعلقا به فقط، ولا منعزلا عن أقرانه، ومجتمعه. وقد فسر الرازي قوله تعالى: "﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾[3] ترغيب عظيم للمطيعين، وترهيب عظيم للمذنبين، فكأنه تعالى قال: اجتهدوا في المستقبل، فإن لعملكم في الدنيا حكماً وفي الآخرة حكماً. أما حكمه في الدنيا فهو أنه يراه الله ويراه الرسول ويراه المسلمون، فإن كان طاعة حصل منه الثناء العظيم والثواب العظيم في الدنيا والآخرة، وإن كان معصية حصل منه الذم العظيم في الدنيا والعقاب الشديد في الآخرة. فثبت أن هذه اللفظة الواحدة جامعة لجميع ما يحتاج المرء إليه في دينه ودنياه ومعاشه ومعاده "[4]. فالله تعالى جعل عمل الإنسان تحت رقابته، ورقابة رسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين على كل أعماله وأقواله، في كل مكان وزمان، وفي كل الأحوال .

1- سورة الغاشية: 25-26.
2 - فتح القدير، الشوكاني، مصدر سابق، ص:769.
3- سورة التوبة: 105 .
4- الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، 16/ 192 .

"وقوله: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]، يريد يا معشر عبادي المحسن والمسيء، ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ يريد إن الله يطلع على ما في قلوب إخوانهم من الخير والشر إن كان خيرا أوقع في قلوبهم لهم المحبة وإن كان شرا أوقع في قلوبهم لهم البغضة"[2]. فالجزاء على الخير والشر لا محالة واقع في يوم لا مرد له.

إن السؤال عن النعم التي مَنَّ الله بها على عبده؛ سؤال حساب وختام المسار الإنساني الدنيوي؛ فالإنسان ليس حرا في استغلال هذه النعم كيف شاء، وفي أي ظرف أو مكان يشاء. فالمتفكر والمتمعن فيما سيسأل عنه يوم القيامة عن كل ما خلق له سواء في جسمه، أم فيما يحيط به، قبل أن يسُأل؛ لمن الذكاء الإيماني، والإيمان الوجودي للإنسان في هذا الكون.

الفرع الرابع: ارتباط المسؤولية بالجزاء

خلق الله تعالى الإنسان وكلفه بما يستطيعه، وجعل له منهجا للاتباع في حياته الدنيا، وهو ما جعله مسؤولا عن كل أفعاله وأقواله؛ ومسؤوليته هذه لا ينفك عنها المحاسبة ثم الجزاء على الأعمال والأقوال ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3]، ويذكر الطبري "عن أبي العالية: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال يُسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وعما أجابوا المرسلين."[4]، فمسؤولية المكلف تكون عقدية عما كان يعبد في

1- سورة التوبة 105 .

2-الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق مجموعة من المؤلفين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ/1994م، 2 / 523 .

3 - سورة الحجر: 93/92.

4- الطبري، جامع البيان ، مصدر سابق، 17 / 150.

الدنيا، ثم عن استجابته للرسول وبما جاء به. لذلك جاء أمر الله تعالى بأن يقف كل مخلوق مكلف للسؤال، قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾[1]، "أي احبسوهم. وهذا يكون قبل السوق إلى الجحيم؛ وفيه تقديم وتأخير، أي: قفوهم للحساب، ثم سوقوهم إلى النار. وقيل: يساقون إلى النار أولا، ثم يحشرون للسؤال إذا قُربوا من النار.... إنهم مسؤولون عن أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم"[2]، فالله تعالى يحبسهم يوم القيامة في موقف مهيب لسؤالهم عن كل ما كان منهم في الدنيا، ومنه إما إلى الجنة، أو إلى النار.

ومن العدل الإلهي أن يعرف الإنسان أعماله قبل حسابه ومجازاته، فقد فسر الرازي قوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فقال: "والمعنى يعرفكم أحوال أعمالكم ثم يجازيكم عليها، لأن المجازاة من الله تعالى لا تحصل في الآخرة إلا بعد التعريف. ليعرف كل أحد أن الذي وصل إليه عدل لا ظلم، فإن كان من أهل الثواب كان فرحه وسعادته أكثر، وإن كان من أهل العقاب كان غمه وخسرانه أكثر "[3]. فالإنسان لابد أن يجتهد في تطبيق ما كلف به من عند الله تعالى ليجد ما يثلج صدره، ويكون جزاؤه خير وأوفى جزاء ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾[4]، وهذا وعد الله، والله لا يخلف وعده.

1- سورة الصافات، 24 .

2- القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن والمُبَيِّن لما تضمنه من السنة وآي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ/2006م، 18/ 24.

3- الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، 16/ 194-195.

4- سورة النجم: 39-41.

إن الإنسان لم يخلق عبثا، وإن تغافل عن يوم الحساب، فإنه راجع إلى الله تعالى رجوعا لا شك فيه، قال الله تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾[1]، "﴿**عَبَثًا**﴾ حال، أي: عابثين، كقوله: ﴿**لَاعِبِينَ**﴾ أو مفعول له، أي: ما خلقناكم للعبث، ولم يدعنا إلى خلقكم إلاّ حكمة اقتضت ذلك، وهي: أن نتعبكم ونكلفكم المشاقّ من الطاعات وترك المعاصي، ثم نرجعكم من دار التكليف إلى دار الجزاء، فنثيب المحسن ونعاقب المسيء"[2] .

إن الإنسان لابد أن يعمل في الدنيا على أنه راحل إلى دار أخرى هي دار الجزاء، فالتكاليف ليست لعقاب الإنسان؛ وإنما هي ادخار ليوم تنفع هذه التكاليف إذا ما أديت على الوجه الذي أمر الله تعالى به، وعليه يكون الجزاء على قدر ما جاء به، قال تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾[3] ، وقد ذكر الماوردي تفسيرا لهذه الآية: "﴿**لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ**﴾ يعني ثواب أعمالهم يوم القيامة. ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**﴾ في هذه الآية ثلاثة أقاويل :أحدها : أن معنى يره أي يعرفه. الثاني: أنه يرى صحيفة عمله. الثالث: أن يرى خير عمله ويلقاه. وفي ذلك قولان:أحدهما: يلقى ذلك في الآخرة، مؤمناً كان أو كافراً، لأن الآخرة هي دار الجزاء. الثاني: أنه إن كان مؤمناً رأى جزاء سيئاته في الدنيا، وجزاء حسناته في الآخرة حتى يصير إليها وليس عليه سيئة. وإن كان كافراً رأى جزاء حسناته في الدنيا، وجزاء سيئاته في الآخرة حتى يصير إليها وليس له حسنة. ويحتمل ثالثاً: أنه جزاء ما يستحقه من ثواب وعقاب عند المعاينة في الدنيا ليوفاه في الآخرة. ويحتمل المراد بهذه الآية وجهين: أحدهما :

1- سورة المؤمنون: 115 .
2- الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق، 4 / 373.
3- سورة الزلزلة: 6- 8.

إعلامهم أنه لا يخفى عليه صغير ولا كبير. الثاني: إعلامهم أنه يجازي بكل قليل وكثير "[1]. وعلى تنوع تفسير هذه الآية إلا أن المعنى موافق في أن الجزاء هو نتيجة حتمية وأكيدة لما تحمله الإنسان في الدنيا، وبما التزم به من مسؤوليات أوامر الله تعالى ونواهيه.

وإن كان الجزاء رفيق المسؤولية، فإن الجزاء يكون عن كل أعمال الإنسان، وأقواله، وحركاته في الدنيا والآخرة. ومن هنا لا يمكننا أن نجرد الجزاء عن المسؤولية لأنه مرتبط بها، ولا يمكن تصور مسؤولية دون جزاء، ولا جزاء دون مسؤولية.

- المسؤولية مصطلح قرآني اجتماعي، والمسؤولية هي المحاسبة والمجازاة والطلب، والمؤاخذة

- جاء لفظ المسؤولية في الحديث النبوي الشريف بمعنى الرعاية؛ وهذه الرعاية تختلف باختلاف درجة المسؤول، ووضعية المسؤول عنهم؛ والحديث لم يترك مكلفا لم يلزمه بالمسؤولية؛ فهي تشمل كل أفراد المجتمع وكل مناحي الحياة.

-خصائص المسؤولية تلخصت فيما يلي: الربانية، العموم، الشمول، ارتباط المسؤولية بالجزاء.

1- الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، النكت والعيون ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ط، د ت، 6/ 320-321.

المبحث الثاني: شروط المسؤولية وأهدافها

المطلب الأول: شروط المسؤولية

المطلب الثاني: أهداف المسؤولية

المطلب الأول: شروط المسؤولية

لكي تكون المسؤولية تامة، ويكون الفرد أو الجماعة قادرين على تحملها، وتتحقق حقيقة خلق الإنسان واستخلافه في الأرض؛ لابد من شروط يتم بها تحقيق ذلك. وهذه الشروط: الفهم والإخلاص، التخطيط والتنظيم، العمل والممارسة العملية الميدانية، المتابعة والتقويم، الاستمرار.

الفرع الأول: الإخلاص والفهم

خلق الله تعالى الإنسان ومنحه نعما بها يتعامل مع نفسه، والجماعة التي يعيش معها، والكون الذي ذلل له. ومن النعم العقل الذي هو مناط التفكير والفهم، والقلب هو مناط الإخلاص، والسمع الذي هو وساطة بين الإنسان والمحيط الذي يعيش فيه؛ سواء تعلق الأمر بالجماعة التي تحيط به، أم الكون الذي يضمه ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾[1].

يذكر الشنقيطي تفسير الآية فقال:" نهى جل علا في هذه الآية الكريمة عن اتباع الإنسان ما ليس له به علم. ويشمل ذلك قوله: رأيت ولم ير، وسمعت ولم يسمع، وعلمت ولم يعلم. ويدخل فيه كل قول بلا علم – وأن يعمل الإنسان بما لا يعلم. وقد أشار جل وعلا إلى هذا المعنى في آيات أخر. كقوله: ﴿**إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بالسوء والفحشآء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[2]، وقوله: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ**

1- سورة الإسراء: 36.

2- سورة البقرة: 169

مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3]،... وقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن﴾[4]"[5]، فمسؤولية الإنسان عن جوارحه مسؤولية مفروضة، لكي لا تخرج نعم الله على الإنسان غير المخرج الذي خلقت له. وأن يكون العلم هو المتحكم في هذه الحواس التي هي أدواته، وأن يكون العمل بالعلم الذي علمه، وأن كل ما علمه مما هو واجب شرعا نافعا له، وخادما للخلق.

فوسائل المعرفة جاءت مفردة لتعبر عن خاصية الفردية كما جاء " في قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ﴾[6] فقد ورد البصر هنا مفرداً؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يتحدث عن المسئولية، مسئولية كل إنسان عن سَمْعه وبصره، والمسئولية أمام الحق سبحانه وتعالى فردية لا يُسأل أحد عن أحد، بل يُسأل عن نفسه فَحَسْب، فناسب ذلك أنْ يقول: السمع والبصر؛ لأنه سيُسأل عن بصر واحد وهو بصره. وجماع هذا كله في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[7] لماذا؟ لأنك محاسب على علمك هذا وعلى وسائل إدراكه لديك: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[8]"[9].فإفراد الحواس لتكون المسؤولية فردية تتعلق بكل فرد، وسيُسأل عنها يوم القيامة.

3- سورة الأعراف: 33

4- سورة النجم: 28

5- الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط1، 1426هـ، 682/3 .

6- سورة الإسراء: 36

7- الإسراء:36.

8- الإسراء: 36.

9- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 14 / 8543 .

وأما الحديث عن الإخلاص فهو عماد وسنام الأعمال، والأقوال كلها؛ فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**."[10]، "قال الخطابي قوله إنما الأعمال بالنيات لم يرد به أعيان الأعمال؛ لأنها حاصلة حسا وعيانا بغير نية؛ وإنما معناه أن صحة أحكام الأعمال في حق الدين إنما تقع بالنية، وأن النية هي الفاصلة بين ما يصح وما لا يصح، وكلمة إنما عاملة بركنيها إيجابا ونفيا فهي تثبت الشيء وتنفي ما عداه؛ فدلالتها أن العبادة إذا صحبتها النية صحت، وإذا لم تصحبها لم تصح. ومقتضى حق العموم فيها يوجب أن لا يصح عمل من الأعمال الدينية أقوالها وأفعالها فرضها ونفلها قليلها وكثيرها إلا بنية"[11]؛ إذن فكل ما يصدر عن الإنسان من قول أو عمل أو حركة فأساسه نية مسبقة للقيام بذلك؛ لأن الصادر منه يكون له الأثر على من حوله، وبذلك يكون للنية اعتبار في ذلك، إلا أن الإنسان لابد أن تكون نيته خالصة لله تعالى في القيام بأعماله، لأنه مجازى عليها، لقوله تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾[12] .

إن اشتراط النية الخالصة في العمل من الواجب الديني؛ ذلك أن الإنسان المستخلف مطالب- بحكم خلافته في الأرض – أن تصدر منه الأعمال الصالحة، والأقوال السديدة، وذلك تبعا لما أنزل

10- رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، 1/ 3 .

11- العيني: بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد الحنفي، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/2001م، 1/ 63 .

12- سورة البينة: 5.

الله تعالى؛ فالإخلاص في العمل هو صلاحه، وفي القول سداده، والإخلاص في العمل والقول هو شرط أساسي لتحمل المسؤولية.

الفرع الثاني: التخطيط والتنظيم

لم يُخلَق الإنسان عبثا، ولا كانت الحياة كلها لعباً ولهواً؛ وإذ سخرت له هذه الدنيا؛ فإنما سخرت ليقيم شرع الله لأنه أصبح مسؤولا منذ أن قبل تحمل الأمانة، ولتسيير أمور حياته، وحياة من هم معه لابد له من تخطيط وتنظيم؛ لأنه أساس سير الحياة، وطريقا إلى تحقيق الأهداف؛ هدف العبادة وهدف الاستخلاف، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[13]، فهذه الآية " تحتمل أن يكون المعنى: ما خلقت الجن والإنس إلا معدين ليعبدون، وكأن الآية تعديد نعمة، أي خلقت لهم حواس وعقولاً وأجساماً منقادة نحو العبادة،... فالمعنى أن الإعداد في خلق هؤلاء إنما هو للعبادة، لكن بعضهم تكسب صرف نفسه عن ذلك"[14]، فأول أمر مأمور به الإنسان هو العبادة؛ وهذه العبادة مقننة من الله تعالى ببيان النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يأتي العمل الذي هو عنوان هذه العبادة، ويكون في الدنيا ابتغاء للآخرة، قال تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾[15]؛ ويذكر الشوكاني أن معنى الآية: " ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ**﴾ أي واطلب فيما أعطاك الله من الأموال الدار الآخرة فأنفقه فيما يرضاه الله لا في التجبر والبغي. وقرئ: «واتبع ». ﴿**وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾. قال جمهور المفسرين: وهو أن يعمل في دنياه

13- سورة الذاريات: 56.
14- ابن عطية، المحرر الوجيز، مصدر سابق، 5/ 183.
15- سورة القصص:77 .

لآخرته، ونصيب الإنسان عمره، وعمله الصالح. قال الزجاج: معناه: لا تنس أن تعمل لآخرتك؛ لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا الذي يعمل به لآخرته..... ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك بما أنعم به عليك من نعم الدنيا. وقيل: أطع الله واعبده كما أنعم عليك، ويؤيده ما ثبت في الصحيحين، وغيرهما؛ أن جبريل سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإحسان فقال: "**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**"[16]، ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا تعمل فيها بمعاصي الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾في الأرض.."[17]. فالفساد يبغضه الله تعالى؛ لأن الأرض سخرت للإنسان للعمارة وليس للإفساد.

وهذا الابتغاء يلزمه التخطيط لكل ما سيقوم به الإنسان يكون عليه مسؤولا أمام الله والناس، ويتبعه التنظيم الذي يضع الخطط المكلف بإنجازها في مسارها السليم الذي يؤدي إلى النتائج المرجوة، غايتها إرضاء الله تعالى بحكم الخلق والاستخلاف، ولابد للإنسان أن يضع نصب عينيه المدة التي تلزمه لتنظيم حياته والتخطيط لها، فهو مربوط بوقت وهو مدة حياته ووجوده في الدنيا، فلا يضيع الوقت ولا الجهد فيما لا ينفع ولا يحقق الهدف .

الفرع الثالث: العمل والممارسة العملية الميدانية

لا يكون للتخطيط والتنظيم أهمية إذا لم يكن متبوعا بالعمل، فلا تكون المسؤولية إلا إذا كان العمل، فهو شرط لها، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[18]، يذكر

16- رواه البخاري، كتاب الإيمان باب: سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، 19/1. ومسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة، 28/1 .

17- الشوكاني، فتح القدير، مصدر سابق، ص: 111.

18- سورة الحجر: 92-93 .

الرازي أن الضمير ﴿هُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: "يحتمل أن يكون راجعاً إلى جميع المكلفين لأن ذكرهم قد تقدم في قوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾[19]؛ أي لجميع الخلق وقد تقدم ذكر المؤمنين وذكر الكافرين، فيعود قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ على الكل، ولا معنى لقول من يقول إن السؤال إنما يكون عن الكفر أو عن الإيمان، بل السؤال واقع عنهما وعن جميع الأعمال، لأن اللفظ عام فيتناول الكل."[20]، ففي عموم اللفظ يكون عموم السؤال.

إن السؤال كله عن الأعمال التي يقوم بها الإنسان؛ فهي تلزم التخطيط لها، لأنه مسؤول عنها، فالتخطيط مرتبط بكل ما يقوم به الإنسان؛ لأنه مسؤول عنها، فالعمل جواب التخطيط؛ فإذا لم يكن عمل فلا مسؤولية. وكل ذلك يكون بقصد خالص ومخطط له وفق منهج رباني نبوي، فالعمل تحويل لما يؤمن به الإنسان ويفكر فيه.

فلفظة ﴿سَعَى﴾ القرآنية تعبير رائع لحركية الإنسان الفكرية والإيمانية، فالإنسان مطلوب بالسعي في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾[21]؛ فقوله تعالى"ومعناه: ليس له جزاء إلا جزاء سعيه إن عمل خيرا جزي خيرا وإن عمل شرا جُزي شرا.. ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى﴾ يوم القيامة في منزلته من أريته الشيء ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ يُجزى الإنسان سعيه ﴿الْجَزَآءَ الْأَوْفَى﴾ الأكمل الأتم"[22]. فالجزاء أكمل وأتم يوم

19_ الحجر: 89.

20- الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، 19/ 218.

21- سورة النجم: 39-40.

22- الواحدي، التفسير الوسيط، مصدر سابق، 4 / 204- 205.

القيامة، لا زيادة ولا نقصان. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" **إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاثَةٍ إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**"[23]، فهذا الامتداد الأخروي للدنيا يجعل الإنسان في حركة مستمرة، وصلة بالدنيا وإن انقطعت روحه عنها، فالولد، والصدقة، والولد الصالح تبقيانه حيا دائم الذكر.

الفرع الرابع: المتابعة والتقويم

إن الإنسان إذا قام بالعمل المنوط به، والمكلف بتحقيقه راعى في ذلك الإخلاص والفهم الصحيح لواجبه، وخطط لذلك ونظم مسيرة أدائه، ثم عمل بما علم، فكان لابد للحفاظ على كل ذلك من المتابعة والتقويم؛ لأن العمل لا يخلو من النقص والتقصير، والتراخي وضعف في الجهد؛ فالمتابعة ضرورة في تحقيق حسن تحمل المسؤولية، ويجعل الإنسان دائم التقويم نفسه وأعماله طول الوقت، قال تعالى:﴿ **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ**﴾[24]، فهو يجعل معنى الآية نصب عينيه، يستشعره أينما كان ليجسد معنى المسؤولية المنوط بها، فمعنى قوله تعالى"﴿**وَقِفُوهُمْ**﴾ احبسوهم ﴿**إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ**﴾ عن أقوالهم وأفعالهم"[25]، فهذا في الآخرة وهو نتيجة حتمية للأعمال في الدنيا منذ تكليفه إلى أن يتوفاه الله تعالى، ولذلك لابد للإنسان أن يتابع أقواله وأفعاله بالتقويم والتسديد والمراقبة؛ لأنها كلها تطبيق لأوامر الله تعالى، ولابد أن تتحقق وتنفذ.

ولكي تتحقق هذه المتابعة والتقويم لابد من الاستمساك بأوامر الله تعالى، وما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم، فهو الصراط السديد، الذي يوصل إلى الهدف الصحيح، وأن هذا الذكر

23- رواه مسلم، كتاب، الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، 5 / 73.

24- سورة الصافات:24.

25- النسفي، مدارك التنزيل، مصدر سابق، 3 / 988 .

لكل عباد الله، رسله والمبعوثين لهم على السواء، قال الله تعالى: ﴿**فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ**﴾[26]، وقد ذكر الأوسي في تفسير الآية الكريمة:" ﴿**فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ تسلية له صلى الله عليه وسلم وأمر له عليه الصلاة والسلام أو لأمته بالدوام على التمسك بالآية والعمل بها، والفاء في جواب شرط مقدر أي إذا كان أحد هذين الأمرين واقعاً لا محالة فاستمسك بالذي أوحيناه إليك"[27]، فالصراط المستقيم هو نتيجة الاستمساك بالوحي، والعمل بالوحي مأمور به، لأنه محور السؤال يوم القيامة، وعليه يكون الجزاء.

" ﴿ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ أي: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم."[28]، فالقرآن الكريم هو النبراس، والاستمساك به هو الطريق الذي يوصل إلى إرضاء الله تعالى، وبه يكون الثبات في الآخرة؛ فهي الخير الدائم، والهدف المبتغى. فالقرآن الكريم هو المنجي من المعاصي صغيرها وكبيرها، وهو العاصم من الضلال.

الفرع الخامس: الاستمرار

منذ أن كُلِّف الإنسان التكاليف الشرعية، وقعت عليه مسؤولية كل ما يصدر عنه، فالمسؤولية تستمر مع الإنسان المكلف إلى أن يلقى ربه عزوجل ليحاسب ويجازى، وهذه المسؤولية الفردية المتعلقة بكل فرد من المجتمع، تتعلق تبعا بكل أفراد المجتمع، فهي تستمر طول فترة وجود الإنسان،

26- سورة الزخرف: 43-46 .

27- الآلوسي، روح المعاني، مصدر سابق، 25 / 84.

28- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، 12/ 314.

وتستمر على كل أفراد المجتمع، بحسب طبقاته، وبحسب الوظائف ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[29]، " فالعبد لا يُسأل إلا عَمَّا عملتْ يداه، والسؤال هنا معناه حرية الاختيار في العمل، وكيف تسأل عن شيء لا دَخْل لك فيه؟ فلنفهم -إذن- عن الحق تبارك وتعالى مُرادَه من الآية."[30]، فاستمرار المسؤولية متبوعة باستمرار العمل، والسؤال كله مبني عليه.

والعمل مطلوب من كل فرد في المجتمع، يتحمل مسؤوليته بقدر المهام المنوطة به، والوظيفة التي يتقلدها، والمجتمع مجموعة أفراد يكون فيها التكامل بينهم في إتمام العمل المكلفون به سمتهم؛ إذ هم كالبنيان كما وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فعن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" **إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ**"[31]، وهذا التعاون مفروض على كل فرد من أفراد المجتمع، ليبنى ويرفع من شأنه بين المجتمعات، لذلك كانت المسؤولية مستمرة، تستمر من فرد إلى فرد، ومن مجتمع إلى مجتمع، لتبنى الأمم.

وهذا الاستمرار للمسؤولية يجعل العمل كاملا متكاملا، لا يعتريه النقص؛ وإن كان ذلك -النقص- فالفرد يكمل بعمله عمل أخيه وهكذا، وذلك لتبلغ المجتمعات والأمم أرقى مراتب التحضر والازدهار .

29- سورة النحل: 93 .

30- الشعراوي، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، 13/ 8186.

31- رواه البخاري، أبواب المساجد، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، 1 / 103.

واستمرار تحمل المسؤولية يضمن دوام العمل وإتقانه، وهذا الشرط ضروري لكي لا يتنصل الإنسان من مهامه في كل الأحوال والأوقات، وتستمر معه المسؤولية إلى آخر لحظة في حياته، يلقى الله عز وجل بعدها ليأخذ أجر عمله، إما بالفلاح، أو بالخسران.

وطالما أن الإنسان مسؤول، ومسؤوليته مرتبطة بالعمل الذي يقوم به، فهو مطالب بأن يسعى لتكون أعماله صالحة، ويتنافس مع أقرانه في ذلك، لقوله تعالى: **﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾**[32] "فاستكثروا من الأعمال الصالحة، وتنافسوا في تحصيلها، فإن التنافس في الطاعات عمل مبرور مشكور حثنا عليه سبحانه"[33]، فالله تعالى يحب لعباده الخير، فكان حثه لهم بفعل الخيرات، وأداء الطاعات ليفوزوا بنعيم الجنة والخلود فيها .

32- سورة المطففين: 26 .

33- طهماز: عبد الحميد محمود، المسؤولية والجزاء في سورة هود، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1415هـ/1994م، ص:15 .

المطلب الثاني: أهداف المسؤولية

إن الإنسان عندما كُلِّف تحمل المسؤولية، لم تكن مسؤوليته مجردة من أهدافها وغاياتها المتعلقة بها؛ إذ أنها إذا لم تكن لها غاية وهدف دنيوي وأخروي فلا اعتبار لها. من هنا كان للمسؤولية أهدافا عامة وأخرى خاصة.

الفرع الأول: الأهداف العامة

تميزت المسؤولية بأهداف عامة أسماها؛ عبادة الله تعالى، مرضاة الله تعالى، إلى جانب تحقيق السعادة، هيمنة المعروف، والنجاة من العقاب الإلهي.

أولا: عبادة الله تعالى

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وأمره بعبادته، وعدم الإشراك به، قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[34]، ويذكر القرطبي :" أي ليقروا لي بالعبادة طوعا أو كرها، فمعنى ﴿**يَعْبُدُونِ**﴾ يذلُّوا ويخضعوا ويعبدوا"[35]، فخلق الله تعالى الخلق من جن وإنس على الفطرة التي هم عليها للاستخلاف، وأمرهم بعبادته وعدم الإشراك به هي بنود هذا الاستخلاف. فالعبادة من بابٍ هي شكر لله على خلقه، ومن باب ثانٍ تطبيق ما أنزله عليهم عن طريق رسله، لتسيير حياتهم لأنه سبحانه وتعالى أعلم بهم، وبما يصلح لهم .

34- سورة الذاريات: 56.

35- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، 19/ 508 .

وقد جاء في الحديث عن مُعاذ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: **"يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ"** قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: **"فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"** فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَفَلاَ أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ: **"لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا"**[36]. فالإيمان بالله تعالى ليس قولا فقط، وإنما تصديقه العمل ليخرجه من دائرة الاتكال، إلى دائرة الإخلاص في العبادة لاجتناب العذاب.

إن التوحيد هو أساس الدين، والعلم به من الواجب بحكم الاستخلاف، وبيان ذلك جاء به الأنبياء عليهم السلام في دعواتهم. وقد قسم ابن باديس التوحيد إلى توحيد علمي، وتوحيد عملي؛ فقال في التوحيد العلمي:" هذا هو أساس الدين كله، وهو الأصل الذي لا تكون النجاة ولا تقبل الأعمال إلا به، وما أرسل الله رسولا إلا داعيا إليه، ومذكرا بحججه. وقد كانت أفضل كلمة قالها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي كلمة " لا إله إلا الله"، وهي كلمته الصريحة "[37] .

إن الاعتقاد يترُجم بأداء الفرائض والعبادات، وهو ما عبر عنه ابن باديس بالتوحيد العملي "**فالأولى**: نهي عن أن تعتقد الألوهية لسواه، وهو يتضمن النهي عن اعتقاد ربوبية سواه، وهذا من باب العلم.

والثانية: أمر بأن تكون عبادتك مقصورة عليه؛ لأنه هو ربك وحده، وهذا من باب العمل.

فمن وحَّد الله جل جلاله في ربوبيته وألوهيته علما وعملا... فقد استكمل حظه من مقام هذا

36- رواه البخاري، كتاب الوصايا، باب اسم الفرس والحمار، 4/ 29.

37- ابن باديس: عبد الحميد، أصول الهداية، دار الريان، الإمارات العربية المتحدة، د ط، د ت، ص:17.

الأساس العظيم. ومن أخل بشيء من ذلك كان ذلك نقصا في دينه بقدر ما أخل حتى ينتهي الأمر إلى خَلْص[38] المشركين"[39]. فعبادة الله وتوحيده تكون بالاعتقاد الصحيح والخالص، والعمل بهذا الاعتقاد؛ وذلك بتطبيق شريعته المرسلة على رسله للناس أجمعين.

وتطبيق المسلم لدينه في حياته، مع الله، ثم مع نفسه، ثم مجتمعه والحرص على ذلك، هو من باب حفظ الدين؛ الذي هو كلية من كليات حفظ الشريعة، وهو مطالب بذلك؛ لأن الدين منهاج كامل متكامل، وهو من الضروريات التي تقوم حياة الإنسان عليها، ولكون الدين من الضروريات "فمعناها أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فُقِدت لم تجرِ مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين"[40]، إذن فالدين أساس وضرورة أولى لضمان حياة الإنسان في الدنيا باستقامة أحواله ومصالحه، وتعم الفوضى وفوات الحياة الهنيئة المستقيمة، وفي الآخرة الخسران المبين، وذهاب الأجر والنجاة من العذاب.

ثانيا: ابتغاء مرضاة الله تعالى

إن الإنسان المسلم عندما يكون الدين من ضروراته الأولى الواجب الحفاظ عليها في حياته، إنما يهدف بذلك إلى تحقيق مرضاة الله تعالى عليه، وهي أقصى ما يريده المسلم في حياته، وهي قمة الأهداف، لأننا بعبادتنا نرجو رضى الله تعالى علينا، فإذا رضي الله تعالى على عبده، هداه الطريق

38-أي شرك خالص، كشرك المشركين. هكذا في المؤلَّف .ص:20، في هامش الكتاب.

39- ابن باديس، أصول الهداية، مرجع سابق، ص:21/20.

40- الشاطبي: إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، الموافقات في أصول الفقه، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، د ط، دت، 2/ 8.

المستقيم، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[41]، جاء في ظلال القرآن في تفسير الآية الكريمة: " لقد رضي الله الإسلام ديناً . . وهو يهدي من يتبع رضوانه هذا ويرتضيه لنفسه كما رضيه الله له . . يهديه . . ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ . وما أدق هذا التعبير وأصدقه؛ إنه ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ هو ما يسكبه هذا الدين في الحياة كلها.. سلام الفرد. وسلام الجماعة. وسلام العالم . . سلام الضمير، وسلام العقل، وسلام الجوارح . . سلام البيت والأسرة، وسلام المجتمع والأمة، وسلام البشر والإنسانية . . السلام مع الحياة . والسلام مع الكون. والسلام مع الله رب الكون والحياة . . السلام الذي لا تجده البشرية – ولم تجده يوماً – إلا في هذا الدين؛ وإلا في منهجه ونظامه وشريعته، ومجتمعه الذي يقوم على عقيدته وشريعته"[42].

فالقرآن نور، يهدي به الله من رضيه به دينا يُسيِّر به حياته، والمسلم الذي رضي بالإسلام دينا له فقد أرضى الله تعالى، ومن طبق تعاليمه فقد وفقه الله تعالى ورضي عنه.

والمسلم الذي يسعى إلى إرضاء الله تعالى في تحمل مسؤولية حمل رسالة الإسلام وتطبيقها، والعمل بكل تكاليفها، وكانت في ذلك النية الخالصة، رضي الله تعالى عنه، فجعله يعيش في سلام في الدنيا مع كل مستويات المجتمع، ورضاه عنه في الآخرة بأن يجازيه أحسن الجزاء.

وحاجة المسلم لهذا القرآن لتسيير شؤون حياته، وجب عليه العلم بأحكامه والعمل بها، ومن كان هذا جهده هداه الله تعالى إلى ما كان يبتغيه، فقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز " مَنْ الذي

41- سورة المائدة: 15-16 .

42- قطب، الظلال، مصدر سابق، 2/ 862 .

يهتدي بهذا القرآن، وما هو السبب الذي من العبد لحصول ذلك، فقال: ﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ**﴾ أي: يهدي به من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله، وصار قصده حسنا – سبل السلام التي تسلم صاحبها من العذاب، وتوصله إلى دار السلام، وهو العلم بالحق والعمل به، إجمالا وتفصيلا"[43].

إن ابتغاء مرضاة الله تعالى، وجعلها أسمى الغايات والأهداف، تجعل المسلم يستمتع بأداء واجباته، وتحمل كل مسؤولياته، ما دام لأعماله وأقواله هدفا واضحا مقدسا، وأجره ثابت – إن شاء الله– لأن النية كانت خالصة لله تعالى.

ثالثا: تحقيق السعادة

إن السعادة من الأمور التي يبحث عنها الإنسان في كل شيء، ويبذل في ذلك ما استطاع من القوة والمال. إلا أن السعادة الحقة ما كانت في رضي الله تعالى وما أنزله في كتابه العزيز، فتكون السعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾[44] .

فهذه الحسنة التي يطلبها المسلم في الدنيا والآخرة، إنما تكون بعد أداء مسؤوليته بما هو مطالب ومكلف به أداؤه، سواء أكان ذلك الأمر في العقيدة أم المعاملة؛ لأن في ذلك كله " امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده وليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال

43- السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مصدر سابق، 1/ 226 .

44- سورة البقرة: 201- 202 .

أوامر ربه تبارك وتعالى وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره"[45].

والسعادة الحقيقية هي التي تكون فيها العقيدة والعمل الصالح عنوان شخصية المسلم الحقيقي، والخليفة الوحيد، قال تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[46]. فالحياة الطيبة هي السعادة الحقيقة التي يعيشها المسلم .

والعمل الصالح لا يكفي كونه صالحا إلا بالإيمان فهما مرتبطان، وتحمل المسؤولية تنبني عليهما؛ لأن الجزاء له علاقة بهما، فالجزاء دنيوي، وأخروي، و" الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالا صالحة إلا بالإيمان، والإيمان مقتض لها فإنه التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾ وذلك بطمأنينة قلبه، وسكون نفسه، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقا حلالا طيبا من حيث لا يحتسب ﴿**وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ**﴾ في الآخرة ﴿ **بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ من أصناف اللذات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيؤتيه الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة "[47]. فجزاء الله تعالى يدهش المسلم إذا ما التزم بما يأمره الله تعالى، والحياة الطيبة من نصيبه.

---

[45]- ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر أبو عبد الله أيوب الزرعي، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، د ت، 1/ 125 .

[46]- سورة النحل:97 .

[47]- السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مصدر سابق، 1/ 448 .

والمسلم إذ يقوم بمسؤولياته إنما يأتمر بأمر الله تعالى ورسوله، ويجتهد في ذلك أيما اجتهاد، تكون الكرامة من الله تعالى له، وكرمه عليه، بأن يجازيه الجزاء الأوفى، فقد " ذكر سبحانه الجزاء لمن عمل ذلك العمل الصالح فقال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ وقد وقع الخلاف في الحياة الطيبة بماذا تكون؟ فقيل: بالرزق الحلال، روي ذلك عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعطاء، والضحاك. وقيل: بالقناعة، قاله الحسن البصري، وزيد بن وهب، ووهب بن منبه. وروي أيضاً عن علّي وابن عباس. وقيل: بالتوفيق إلى الطاعة، قاله الضحاك. وقيل: الحياة الطيبة: هي حياة الجنة. روي عن مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكي عن الحسن أنه قال: لا تطيب الحياة لأحد إلاّ في الجنة، وقيل: الحياة الطيبة. هي السعادة. روي ذلك عن ابن عباس .... وأكثر المفسرين على أن هذه الحياة الطيبة هي في الدنيا، لا في الآخرة؛ لأن حياة الآخرة قد ذكرت بقوله: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾"[48]. ومهما يكن الاختلاف في تفسير الحياة الطيبة في القرآن الكريم، فإن كل جزاء من الله تعالى فهو يُسعد المسلم ويرضى به.

رابعا: إحقاق الحق وإظهار الدين

إن المسلم مأمور بتحقيق المعروف في نفسه، وفي مجتمعه؛ لأنه يوطد العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع، ويرفع من قيمته بين المجتمعات.

وقد وصف الله تعالى هذه الأمة بأنها آمرة بالمعروف، وناهية عن المنكر، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ

48- الشوكاني، فتح القدير، مصدر سابق، 4 / 262 .

أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُم مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[49]. إن الله تعالى استثنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم من بين الأمم بالخيرية، وخيريتها في أمرها بالمعروف، ونهيها عن المنكر المنبني على الإيمان، و" المعروف هو الذي تألفه النفوس وتستحسنه فهو مما تُسَرُّ به النفوس ولا تشمئز منه ولا تنكره، ويقال لضده مُنْكَر"[50]. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة ثابتة ولازمة في أمة النبي صلى الله عليه وسلم.

والأمر بالمعروف خلق مأمور به المسلم، وهو هدف من أهداف المسؤولية، فتطبيقه والسعي إلى نشره في المجتمع يجعل هذا الأخير في استقرار، وتناغم في أداء أفراده المسؤوليات المكلفين بها، والإسلام جاء لينظم هذه العلاقات، فيحافظ المسلم على نفسه بتطبيق تعاليمه، وعلى المجتمع في السعي إلى تحقيق الخير للناس، بأحكام الإسلام العقدية والتشريعية.

والمعروف هو تجسيد للفضائل، والمكارم، والأخلاق الحسنة في المجتمع، لضرورة قيامه بين أفراده، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[51]، ولقد أمر الله تعالى هذه الأمة المتميزة بالدعوة إلى الخير، لأنه من صفاتها، والأمر بكل خير للمجتمع، والنهي عن كل منكر يفككه، يجعل المجتمع متماسكا بعيدا عن كل تمزق، "والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر-من ثم- تكليف ليس بالهين ولا باليسير، إذا نظرنا إلى طبيعته، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم، ومصالح بعضهم ومنافعهم، وغرور بعضهم وكبريائهم. وفيهم الجبار الغاشم.وفيهم الحاكم المتسلط.وفيهم الهابط الذي يكره

49- سورة آل عمران: 110.

50- ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الطبعة التونسية، دار سحنون، تونس، د ط، 1997 م، 2 / 142 .

51- سورة آل عمران:104 .

الصعود.وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد. وفيهم المنحل الذي يكره الجد. وفيهم الظالم الذي يكره العدل.وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة . . وفيهم ممن ينكرون المعروف، ويعرفون المنكر.ولا تفلح الأمة، ولا تفلح البشرية، إلا أن يسود الخير، وإلا أن يكون المعروف معروفاً، والمنكر منكراً.. وهذا ما يقتضي سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهى. . وتطاع . . "[52].

وما يجعل المسلم يلتزم بهذا الأمر هو إيمانه بالله تعالى وتصديقه برسالة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، فهو المحرك لكل حياة المسلمين، " ومن ثم فلا بد من جماعة تتلاقى على هاتين الركيزتين: الإيمان بالله والأخوة في الله، لتقوم على هذا الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى ثم بقوة الحب والألفة، وكلتاهما ضرورة من ضرورات هذا الدور الذي أناطه الله بالجماعة المسلمة، وكلفها به هذا التكليف. وجعل القيام به شريطة الفلاح. فقال عن الذين ينهضون به :﴿**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾.

إن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإلهي ذاته. فهذه الجماعة هي الوسط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية. هو الوسط الخير المتكافل المتعاون على دعوة الخير"[53]. فالجماعة مخبر التفاعلات الإنسانية، بمركز تطبيق المنهاج الرباني الذي يحث على الجماعة ودورها في بناء الفرد والمجتمع، واستقراره.

إن المسلم الحق هو الذي يراعي المعروف في نفسه؛ بأن يحملها على الإيمان بالله تعالى، ويتعبده بأداء الفرائض، من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج،.. الذي ينظم العلاقة مع الله تعالى، ثم المعروف مع خَلْقِه بأخلاقه، وحسن معاملاته معهم في كل مجالات الحياة، وبهذا يكون قد أدى رسالة

52- سيد قطب، الظلال، مصدر سابق، 1/ 444.

[53]- سيد قطب، الظلال، مصدر سابق، 1 / 444.

الإسلام، ليحافظ على المودة والرحمة التي بين أفراد المجتمع، فيحافظ بذلك على سلامته، وتطوره.

خامسا: النجاة من العقاب الإلهي

إن ارتباط الجزاء بالمسؤولية يجعل المسلم في مراقبة مستمرة لما يصدر عنه من أقوال، وأفعال، وحركات يحاسب عليها، وظلم المسلم لنفسه في الابتعاد عما أمره الله بالقيام به، وارتكاب ما نهاه عنه يجعله في دائرة المعاقبين من الله تعالى، إن لم يتب، قال تعالى:﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ. وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ. مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ. بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ. وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ. قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ. قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ. فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ**﴾[54]، فقوله تعالى: "﴿ **احْشُرُوا**﴾ أي اجمعوا بكره وصغار وذل أيها الموكلون بالعباد من الأجناد، وأظهر تعريفاً بوصفهم الموجب لحتفهم فقال: ﴿**الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ أي بما كانوا فيه في الدنيا بوضع الأشياء في غير محالها من الخبط الذي لا يفعله إلا من هو في أشد الظلام ﴿ **وَأَزْوَاجَهُمْ**﴾ أي أتباعهم ولو بشطر كلمة أو رضي فعلهم لتصير كل طائفة على حدة فيصير بعضهم يبكت بعضاً وبعضهم يشتم بعضاً ﴿**وَمَا كَانُوا**﴾ لأي بما دعتهم إليه طباعاتهم المعوجة ﴿**يَعْبُدُونَ**﴾ أي مواظبين على عبادته رجاء منفعته تحقيقاً لخسارتهم بتحقق اعتمادهم على غير معتمد، ،...﴿**مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ أي الذي تفرد بنعوت العظمة وصفات الكمال، والمراد الذين

---

[54]- سورة الصافات: 31/22.

رضوا بعبادتهم لهم ولم ينكروا عليهم ذلك ويأمروهم بتوحيد الله."[55]، فعبادة غير الله تعالى طريقه وخيم في الدنيا وعقابه شديد في الآخرة، فيخرج الكافر من دائرة المؤمنين؛ لأنه رضي بغير الله تعالى ربا فعبده تبعا لشهواته، فكان الذل والصغار نصيبه في الآخرة، يوم الحساب.

ولما كان حشر من عبدوا غير الله تعالى بالذل والصغار، كان السوق إلى جهنم، "ولما كانوا قد سلكوا في الدنيا طريق الشقاء المعنوية استحقوا أن يلزموا في القيامة سلوك طريقة الحسية، فلذلك سبب عن الأمر بحشرهم قوله تهكماً بهم وتحسيراً لهم: ﴿ فَاهْدُوهُمْ﴾ أي دلوهم دلالة لا يرتابون معها ليعرفوا – مع ما هم فيه من الإكراه على سلوكها – مآلهم، فيكون أعظم في نكدهم؛... ثم أشار إلى طول وقوفهم وسوء مقامهم بقوله بأداة الانتهاء: ﴿إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي طريق النار الشديدة التوقد الواضح الذي لا لبس عندهم بأنه يشترطهم فيؤديهم إليها،... ، وفيه تهكم بهم في كونهم على غير ما كانوا عليه في الدنيا من التناصر والتعاضد"[56]. فالجحيم مأوى الكافر والطاغي، وكل من ناصرهم، وعضدهم.

وهذا السوق بالمهانة والحسرة والشدة، يزداد الأمر عليهم شدة وهوانا بالوقف للحساب والسؤال، "ولما كان المقصود من تعريفهم طريق النار أولاً ازدياد الحسرة، صرح بما أفهمه حرف الغاية من طول الحبس فقال: ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ أي احبسوهم واقفين بعد ترويعهم بتلك الهداية التي سببها الضلال، فكانت ثمرتها الشقاوة، ...ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ وجمع عليهم الهموم بهذه الكلمة لتذهب أوهامهم كل مذهب، فلا تبقى حسرة إلا حضرتهم، ولا مصيبة إلا علت قلوبهم

---

[55]- البقاعي: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1424 هـ/2003 م، 6/ 298 .

[56]- البقاعي، نظم الدرر، مصدر سابق، 6 / 298 - 299.

فقهرتهم، فإن المكلف كله ضعف وعورة، فموقف السؤال عليه أعظم حسرة."[57]، يكفي العبد الذي كفر بربه، وعبد غيره، بهذا الموقف المشين والمروع، ففي هذا اليوم يذهب كل ما كان معولا عليه العبد أن ينجيه من عذاب الله تعالى.

إن هذا التمرد العقدي على دين الله تعالى، والإصرار عليه، هم ومن تبعهم ممن معهم، كان السوق إلى جهنم الجزاء الذي يليق بهم في الآخرة وشر جزاء.

إن الوجه الآخر لهذا التمرد العقدي هو الإيمان بالله تعالى، خشية العذاب والغضب الإلهي، قال الله تعالى: ﴿**قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا . لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا**﴾[58]، "التحقيق إن الإشارة في قوله: ﴿**أَذَٰلِكَ**﴾ راجعة إلى النار، وما يلقاه الكفار فيها من أنواع العذاب كما ذكره جلا وعلا بقوله: ﴿**وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا**﴾، ... والتحقيق إن شاء الله أنه لما ذكر شدة عذاب النار وفظاعته قال: ﴿**أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ**﴾"[59]. فهذا جزاء من يكفر بالله، أما الذي يؤدي مسؤوليته الاستخلافية بعبادة الله تعالى خوفا منه وطمعا في رحمته، فجزاؤه جنة الخلد، فهو وعد الله الذي لا يخلف وعده.

الفرع الثاني: الأهداف الخاصة

57- البقاعي، نظم الدرر، مصدر نفسه، 6 / 299.

58- سورة الفرقان:15-16.

59- الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1415هـ/ 1995م، 6/ 29.

إلى جانب أهداف المسؤولية العامة، هناك أهدافا خاصة من خلال يتم تأسيس بناءات الإنسان، والأسرة، والمجتمع.

أولا: بناء الإنسان الصالح

خلق الله تعالى الكون وسخره للإنسان، وسهل له سبل العيش فيه والتأقلم مع ظواهره، بما ميزه من عقل عن الحيوان، خلقه في أحسن تقويم، وكلفه بما يتناسب وخلقته، فألزمه تحمل المسؤولية التي كلفه بها، وهي أمانة الالتزام بالإسلام ونشره، " فالتكليف والمسؤولية عنه والجزاء أساس وجود الإنسان وخلقه، وهو أيضا أساس خلق المكونات كلها، وإنكار الإنسان لهذه الحقيقة، ومحاولته الانسلاخ عن الشعور بالمسؤولية، إنكار لجوهر وجوده وحكمة خلقه، وانتكاس عن مرتبة التكليف والتشريف التي ميزه الله بها عن الحيوان"[60]، فالإنسان أساس هذا الكون، وكل ما خلقه الله فيه هو لخدمة لهذا الإنسان، لكي لا تكون له حجة في عدم الإيمان بالله تعالى، والامتثال لأوامره، وبعث الرسل إنما هو لهداية الإنسان إلى طريق الله تعالى، قال عزوجل: ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ﴾[61]، ولقد بعث الله تعالى لكل أمة رسولا منهم ليعلمهم دينهم، ويزكيهم؛ "﴿ **يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ** ﴾ أي آيات الله التي تضمنها كتابه القرآن الكريم وذلك لهدايتهم وإصلاحهم، وقوله ﴿ **وَيُزَكِّيهِمْ** ﴾ أي ويطهرهم أرواحاً وأخلاقاً وأجساماً من كل ما يدنس الجسم ويدنس النفس ويفسد

60- طهماز: عبد الحميد محمود، المسؤولية والجزاء في سورة هود، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط 1، 1415هـ/1994م. ص:21 .
61- سورة الجمعة : 2.

الخلق. وقوله ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾. أي يعلمهم الكتاب الكريم يعلمهم معانيه وما حواه من شرائع وأحكام، ويعلمهم الحكمة في كل أمورهم والإصابة والسداد في كل شؤونهم، يفقههم في أسرار الشرع وحكمه في أحكامه"[62]، وهذا الشرع الإلهي هو المنهج الوحيد والصحيح لهذا الإنسان؛ حيث إن تعاليمه وشرائعه هي لبنات لبناء الإنسان الصالح، ليكون لبنة بدوره بجانب إخوانه في بناء المجتمع الصالح، عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ**"[63]، وهذا التمثيل البليغ يدل على مدى حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن يكون المسلمون في توافق دائم، وتراحم، وتعاطف؛ لأن هذه الأخلاق تجعل المسلم ينبت نباتا سليما وحسنا، صالحا لنفسه ولغيره. والنبي صلى الله عليه وسلم لم يكتف بالتمثيل بالبلاغة، بل زاد على ذلك بالتمثيل بالمحسوس، وهو تشبيك الأصابع، للدلالة على شدة الحرص على اهتمام أفراد الأمة بعضهم ببعض؛ لأن صلاح المجتمع من صلاح أفرادها.

وابتغاء صلاح الأفراد لا يكون إلا بالتربية على ما جاء في القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، " إن التربية المستمدة من تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم وتوجيهاته الرشيدة، والمستقاة من سننه الشريفة وسيرته العطرة، والمستهدية بكمال شخصيته الإنسانية، لابد أن تعطي أينع الثمار في خلق "الإنسان الصالح" الذي يفيد نفسه، وينفع مجتمعه، ويكون عنصر بناء وخير وفلاح، بالتزام ذاتي وإحساس نابع من النفس، بتبعات وتكاليف مسؤولياته الفردية والاجتماعية، وفق

62- أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، 4/ 257.

63- أخرجه البخاري، كتاب:الصلاة، باب: تشبيك الأصابع في المسجد وغيره،103/1. ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، 8/ 20.

ما توجبه عليه عقيدته، وخلقه، وانتماؤه، وإنسانيته"[1]. فالشخصية النبوية شخصية فريدة ومتميزة في في وضع قوانين وقواعد أصيلة في فنون تربية الفرد، وتكوين شخصيته.

لقد جاء الإسلام بتعاليمه النيرة والمنهجية، لتربية الإنسان المسلم تربية صالحة ومستقيمة، تبنيه بناء كاملا متكاملا، "ويقوم هذا المنهج على التوازن والموائمة فلا لطفى فيه ناحية من النواحي على ناحية أخرى. ويكون به الفرد فرديا واجتماعيا، لا تطغى فرديته على جماعيته يقوى استقلاله الذاتي وتفتحه الروحي والعقلي معا. وينتقل من الأنانية إلى الغيرية، ومن الاهتمام الشخصي إلى التضحية للمجموع، إنه إعداد الفرد لذاته ولمجاوزته ذاته في نفس الوقت. وبذلك ينتقل الإنسان من أهوائه إلى الحق، ومن الحيوانية إلى الإنسانية، ومن البشرية إلى الربانية، فيكون قابلا للارتفاع فوق المطامع والشهوات متجها إلى الارتفاع"[2]. وهذه التربية الإسلامية الأصيلة تجعل المسلم متصفا بأخلاق ترسم ترسم له منهج التعامل الصحيح مع الناس، وتضمن له رضى الله تعالى؛ لأنه التزم بالكتاب المنزل، وبشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه بتطبيقه لتعاليم القرآن دل على الإيمان به وذلك باتباع سنته .

ثانيا: بناء الأسرة الصالحة

عندما يبُنى الإنسان الصالح فقد بنُيت الأسرة سلفا، فالأسرة هي مجموعة من الأفراد يكونونها بعقد الزواج الذي يربط بين الرجل والمرأة، وخير الأسر التي بنيت أسر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،

1- عبد الحميد الصيد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السيرة النبوية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ط2، 1993م. ص:865-866.

2- أنور الجندي، التربية الإسلامية هي الإطار الحقيقي للتعلم، دار الأنصار، القاهرة، د ط، د ت، ص: 16.

قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]، هذه الآيات الكريمة تبين كيف أن تربية يعقوب عليه السلام لأبنائه ظهرت في آخر عمره عند قرب أجله، بسؤاله عن عقيدة أبنائه بعد موته، وماذا يعبدون من بعده، وهنا تظهر التربية وأثرها في الأبناء، "وجيء في قوله: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ﴾ معرفاً بالإضافة دون الاسم العلم بأن يقول نعبد الله لأن إضافة إله إلى ضمير يعقوب وإلى آبائه تفيد جميع الصفات التي كان يعقوب وآباؤه يصفون الله بها فيما لقنه لأبنائه منذ نشأتهم"[2]، فصلاح الأسرة مبني على صلاح الأب (والأم) الذي يسعى إلى تثبيت العقيدة الصحيحة، والأخلاق الحسنة في نفوس أبنائه؛ لأن هذا أفضل إرث يورث للأبناء، ويمكن للأب أن يمتحن أولاده في دينهم وأخلاقهم، ويتأسى بالأنبياء في تربيتهم لأولادهم، كما فعل يعقوب عليه السلام، فلقد " جاء يعقوب في وصيته بأسلوب الاستفهام لينظر مقدار ثباتهم على الدين حتى يطّلع على خالص طويتهم ليلقي إليهم ما سيوصيهم به من التذكير وجيء في السؤال بما الاستفهامية دون من لأن ما هي الأصل عند قصد العموم لأنه سألهم عما يمكن أن يعبده العابدون"[3]. فلابد لهذه الوصية أن تكون ميثاقا أبويا يربط الأب والأبناء، ويكون لهم منهجا للحياة المستقبلية.

1- سورة البقرة: 133-135.

2- ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، 1/ 733 .

3- ابن عاشور، التحرير والتنوير، المصدر نفسه، 1/ 732 .

لقد صرح النبي صلى الله عليه وسلم بمسؤولية المرأة والرجل على أسرته، فقال صلى الله عليه وسلم" **وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا** "[1]، ورغم أن مسؤولية الرجل تختلف عن مسؤولية المرأة، وهما في بيت واحد، تبين مدى التكامل بينهما في تسيير البيت، وتحمل كل واحد منهما لمسؤوليته تجاه نفسه، وزوجه، وأولاده، دون طلب كل واحد من الآخر تأدية ذلك، وبذلك تكون الأسرة في استقرار، وتكافؤ، وتكامل.

وهذا التكامل بيَّنه الله تعالى في كتابه العزيز، قال عزوجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾[2]، " هذا الشوط الأول في السورة يبدأ بآية الافتتاح، التي ترد «الناس» إلى رب واحد، وخالق واحد؛ كما تردهم إلى أصل واحد، وأسرة واحدة، وتجعل وحدة الإنسانية هي «النفس» ووحدة المجتمع هي الأسرة، وتستجيش في النفس تقوى الرب، ورعاية الرحم .. لتقيم على هذا الأصل الكبير كل تكاليف التكافل والتراحم في الأسرة الواحدة، ثم في الإنسانية الواحدة. وترد إليه سائر التنظيمات والتشريعات التي تتضمنها السورة "[3]، فوحدة الخلق تربطه بوحدة العقيدة، بعبادة الله وحده، فالإنسانية أسرة كبيرة تجمع كل البشر؛ لأن أصلها من أب واحد وأم واحدة، وهذه الأسر التي تنبثق من وحدة الإنسانية لابد لها من أساس تبنى عليه وهو العقيدة، والإيمان بالله تعالى؛ وهذا الإيمان يجعل نظام العلاقات الإنسانية مبنيا على التقوى والتراحم .

1- سبق تخريجه، ص:10

2- سورة النساء:1 .

3- سيد قطب، الظلال، مصدر سابق، 573/1.

ثالثا: بناء المجتمع الصالح

لا يبنُى المجتمع الصالح إلا إذا بنُيت الأسرة الصالحة، فهو مسؤولية كل فرد، وكل أسرة لترقية المجتمع، والرفع من مستواه، ضمن المجتمعات الأخرى. قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾[1]، وهذا المجتمع الصالح الذي يصنعه المسلم انطلاقا من نفسه، وأسرته، أساسه التقوى إذ هو معيار التكريم عند الله تعالى، وهو الذي يميز العباد المؤمنين من الكافرين، إما أن يرفعهم أو يحطهم؛ لأن " الأكرم عند الله تعالى والأرفع منزلة لديه عز وجل في الآخرة والدنيا هو الأتقى فإن فاخرتم ففاخروا بالتقوى"[2]، فهذا المجتمع المسلم الذي سينفتح على باقي الشعوب بحكم الاستخلاف، وبحكم السنن الكونية، والسنن الاجتماعية، والنفسية،... لابد وأن يلتزم بقاعدة "التقوى"، لأنها معيار التميز والتفاضل.

إن التزام المؤمن بقاعدة التقوى، وقيامه بمسؤولياته كما شرعها الله تعالى وأمره بها، كان وعد الله تعالى له بالاستخلاف في الأرض، والتمكين له لإقامة دين الله عزوجل، فالإيمان والعمل الصالح هما قاعدتا التمكين والأمان، قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ**

1- سورة الحجرات: 13 .

2- الألوسي، روح المعاني، مصدر سابق، 19/ 290 .

الْفَاسِقُونَ﴾[1]، وهذا التمكين هو صورة المجتمع الصالح الذي أرسل الأنبياء لإقامته، وخاتمهم النبي صلى الله عليه وسلم الذي أقام مجتمع مكة النواة الصالحة للمجتمع الصالح، ثم أقام مجتمع المدينة المنورة الذي أقام الدولة الصالحة .

إن هذه الدولة التي أصبحت أمة، لها الخيرية والأفضلية على باقي الأمم، والخيرية لم تكن محاباة، وإنما كانت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقاعدة في ذلك الإيمان بالله تعالى، قال عزوجل: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾**[2]، فلابد أن يستمر هذا الخطاب، يتلوه المسلم كل حين ويستشعره كل لحظة؛ لأنه انفرد عن غيره بهذه الخصيصة، وأن يبقى على هذه الخيرية، بالالتزام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن تكون أكبر الهموم التي يتحملها، وأرقى المسؤوليات التي يتقلدها هي تطبيق ما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

ولما وصفت هذه الأمة بالخيرية والصلاح، جاء الأمر بنفس ما وصفت به، وهو الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى:﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[3]، "وصيغة :﴿ **وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ**﴾ صيغة وجوب لأنّها أصرح في الأمر من صيغة افعلوا لأنّها أصلها. فإذا كان الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر غير معلوم بينهم من قبل نزول هذه الآية، فالأمر لتشريع الوجوب، وإذا كان ذلك حاصلاً بينهم من قبل كما يدلّ عليه قوله: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ**

1- سورة النور: 55 .
2- سورة آل عمران: 110 .
3- سورة آل عمران: 104 .

الْمُنْكَرِ﴾[1]، فالأمر لتأكيد ما كانوا يفعلونه ووجوبه، وفيه زيادة الأمر بالدّعوة إلى الخير وقد كان الوجوب مقّراً من قبل بآيات أخرى مثل: ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾[2]، أو بأوامر نبويَّة. فالأمر لتأكيد الوجوب أيضا للدلالة على الدّوام والثبات عليه"[3]، وعليه فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صفة هذه الأمة، ومن واجباتها؛ لأن بهما يقام المجتمع الصالح، فتنصلح أموره وتستقيم أحواله، فالخير في هذه الأمة إلى يوم الدين.

وحديث السفينة لأحسن مثال على تضافر أفراد المجتمع، وصلاحه من صلاحهم، وربط النبي صلى الله عليه وسلم هذا الصلاح بإقامة حدود الله تعالى، فعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا**"[4]، فالذي يؤدي حق الله تعالى بإقامة حدوده، ليس كالذي يقع فيها بتضييعها بعدم النهي عن المنكر، وترك الأمر بالمعروف، فهذا البعد عن هذا الحد يؤدي بكل المجتمع إلى الهلاك والموت. فلن يضيع الذي قام بالمنكر فقط، وإنما يهلك الجاني والمجني عليه، كل ذلك لمصلحة الخاصة، والرؤية من الزاوية الضيقة للحياة. فبعد هذا العرض من النبي صلى الله عليه وسلم

1- سورة آل عمران: 110 .

2- سورة العصر: 3 .

3- ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، 4/ 37 .

4- أخرجه البخاري، كتاب: الشركة، باب:هل يقرع في القسمة والاستهام فيها، 2/ 882.

للحياة في مثال السفينة، يعطي الحل في آخر الحديث؛ وذلك بتعاون كل أفراد المجتمع من أجل المصلحة العامة بأن يأخذوا بأيدي إخوانهم للخروج من ضيق الدنيا، إلى سعتها.

من خلال ما سبق نخلص إلى النتائج التالية:

-أما شروط المسؤولية فتلخصت فيما يلي: الفهم والإخلاص، التخطيط والتنظيم، العمل والممارسة العملية الميدانية، المتابعة والتقويم، الاستمرار .

- أما أهداف المسؤولية فتلخصت في : الأهداف العامة: عبادة الله تعالى، مرضاة الله تعالى، السعادة، هيمنة المعروف، النجاة من العقاب الإلهي. الأهداف الخاصة: بناء الإنسان الصالح، بناء الأسرة الصالحة، بناء المجتمع الصالح.

الفصل الثاني: أسس المسؤولية

المبحث الأول: الأساس الاستخلافي للمسؤولة

المطلب الأول: التكريم الإلهي للغنسان

المطلب الثاني: مسؤولية العباد

المطلب الثالث: مسؤولية عمارة الأرض

المبحث الثاني: مراتب المسلولية

المطلب الأول: المسؤولية التعبدية

المطلب الثاني: المسؤولية الاجتماعية

المطلب الأول: التكريم الإلهي للإنسان

خلق الإنسان كان أول تكريم له، حيث لم يكن موجودا ولا مذكورا، وهذا الخلق هو بداية الملامح الأولى لاستخلاف هذا المخلوق الجديد؛ فكانت التجربة ُآدم عليه السلام؛ حيث مرت بمشاهد ثلاثة: المسؤولية التشريفية في مشهد السماء، المسؤولية التأهيلية في مشهد الجنة، المسؤولية التكليفية في مشهد الأرض.

الفرع الأول: المسؤولية التشريفية في مشهد السماء

وقعت أحداث هذا المشهد في السماء، حيث الملأ الأعلى، أين أطلع الله تعالى الملائكة أنه خلق الإنسان خليفة، ويجعله في الأرض، قال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾**[1]، فهذا الخليفة سيكون له شأن في الأرض، فهو ليس كباقي المخلوقات، وميزته كسلالة أولى أن الله "خلق أباه بيده، ونفخ من روحه. وأسجد له ملائكته. وعلمه أسماء كل شيء. وأظهر فضله على الملائكة فَمَنْ دونهم من جمع المخلوقات. وطرد إبليس عن قربه. وأبعده عن بابه، إذ لم يسجد له مع الساجدين. واتخذه عدوا له"[2]، فهذا المخلوق الجديد هو من خلق الله تعالى، وكل أمر يتعلق به فيما بعد فهو خدمة له .

يفسر الشعراوي قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾**:" أي أن الله سبحانه وتعالى يطلب من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن يقول أنه عند خلق آدم. خلقه خليفة في الأرض. والكلام

1- سورة البقرة:30 .

2- ابن قيم الجوزية: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب، مدارج السالكين بين منازل"إياك نعبد وإياك نستعين"، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، دت، 1 /232 .

هنا لا يعني أن الله سبحانه وتعالى يستشير أحدا في الخلق. بدليل أنه قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ إذن فهو أمر مفروغ منه. ولكنه إعلام للملائكة.. والله سبحانه وتعالى عندما يحدث الملائكة عن ذلك فلأن لهم مع آدم مهمة. فهناك المدبرات أمرا. والحفظة الكرام. وغيرهم من الملائكة الذين سيكلفهم الحق سبحانه وتعالى بمهام متعددة تتصل بحياة هذا المخلوق الجديد. فكان الإعلام. لأن للملائكة عملا مع هذا الخليفة."[1]. فإعلام الله تعالى الملائكة بهذا الخليفة إعدادا لهم لمهام تربطهم به على طول مكوثه في الأرض.

وهذه الأرض التي سوف يسكنها آدم – ومن بعده ذريته- هيأها الله تعالى بما تتوافق وخلقته، وبما تساعده على أداء وظيفته التي من أجلها وجد، " فهنالك وحدة أو تناسق بين النواميس التي تحكم الأرض – وتحكم الكون كله – والنواميس التي تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته، كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك؛ وكي لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة!. وإذن فهي منزلة عظيمة، منزلة هذا الإنسان، في نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة. وهو التكريم الذي شاءه له خالقه الكريم ."[2].

فبعد إعداد الأرض التي سيعيش فيها آدم عليه السلام وذريته، ثم خلقه عليه السلام، جاء إخبار الله تعالى الملائكة بخلق هذا البشر، فكان تساؤلهم – في حدود علمهم- عن هذا المخلوق الذي سيفسد ويسفك الدماء في هذه الأرض ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ

1- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 1/240-241.

2- سيد قطب، الظلال، مصدر سابق،1/ 56.

﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، فالملائكة مخلوقات متميزة في خِلْقتها، فعبادتها لله عبادة مطلقة، "يرون التسبيح بحمد الله والتقديس له، هو وحده الغاية المطلقة للوجود، وهو وحده العلة الأولى للخلق .. وهو متحقق بوجودهم هم، يسبحون بحمد الله ويقدسون له، ويعبدونه ولا يفترون عن عبادته!"[2]، فخلقة الملائكة طبيعة خاصة بهم، يرون أن كل مخلوق لابد وأن تكون حياته كلها لعبادة الله تعالى وحده كما يعبدونه هم .

فعلم الملائكة كان مقصورا على ما كان قبل هذا المخلوق، فكان حكمهم عليه، مبنيا على من سبق، "لقد خفيت عليهم حكمة المشيئة العليا، في بناء هذه الأرض وعمارتها، وفي تنمية الحياة وتنويعها، وفي تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود في تطويرها وترقيتها وتعديلها، على يد خليفة الله في أرضه. هذا الذي قد يفسد أحياناً، وقد يسفك الدماء أحيانا، ليتم من وراء هذا الشر الجزئي الظاهر خير أكبر وأشمل. خير النمو الدائم، والرقي الدائم.... عندئذ جاءهم القرار من العليم بكل شيء، والخبير بمصائر الأمور"[3]، فخَلْقُ الله تعالى للإنسان، كان لغاية أرادها منه، وإطلاع الملائكة بذلك لحكمة أيضا – تأتي بعد فترة من الزمن – لها صلة أساسية وكبيرة بهذا الإنسان.

وبعد مرحلة خلق آدم عليه السلام، حباه الله تعالى بميزة تميَّز بها عن الملائكة، وهو العلم، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[4]. فهذا البشر الذي خلق من غير جنس الملائكة، – خلقا آخر– كان لابد من

1- سورة البقرة:30 .
2- سيد قطب، الظلال، مصدر سابق، 1 / 56-57.
3- سيد قطب، الظلال، مصدر نفسه، 1 / 57.
4- سورة البقرة:31 .

ميزة يخالف فيها الملائكة، فميزه الله تعالى بالعلم، فكان أول عرض له مع الملائكة، فقد خلق الله آدم عليه السلام " أراد –سبحانه– إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله، ميزه عليهم بالعلم فعلمه الأسماء كلها،... سبحانه لما عرَّفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علَّمه،... فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم، وأنه أحاط علما بظاهرهم وباطنهم وبغيب السموات والأرض، فتعرف إليهم بصفة العلم وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم."[1]، فكان أول عرض مع أول معارض لهذا الخلق، الملائكة، ﴿**قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾[2] ، فهنا ظهر عجز ومحدودية علم الملائكة أمام علم الله تعالى المطلق؛ ﴿ **قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾[3]؛ حيث كان أول إعلام للملائكة من هذا البشر المخلوق هو إنباؤهم بأسمائهم، فحصل ما أخبرهم به الله تعالى بعدم علمهم بما أحاط الله به علما .

كَرَّمَ الله تعالى على آدم عليه السلام لا ينتهي، فبعد خلقه، وتعليمه لكل الأسماء، جاء الأمر الإلهي للملائكة بالسجود له، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾[4]، امتُحنت الملائكة في هذا الموقف بالسجود لما خَلَق الله تعالى وكَرَّمه، فنجحوا في الامتحان وسجدوا ولم يخالفوا أمر الله عزوجل، وسجود الملائكة لآدم عليه السلام لم يكن السجود للإنسان وإنما كان السجود لعظمة الله تعالى ولعظم خلقه، وتعظيما للعلم الذي ميزه الله تعالى به آدم على الملائكة، ويذكر ابن عاشور أن " فضيلة آدم لم تظهر للملائكة إلا بعد تعليمه

1- ابن القيم، بدائع التفسير، مصدر سابق، 1 / 117 .

2- سورة البقرة: 33.

3- سورة البقرة: 30 .

4- سورة البقرة: 34 .

الأسماء وعرضها عليهم وعجزهم عن الإنباء بها، وأنهم كانوا قبل ذلك مترقبين بيان ما يكشف ظنهم بآدم أن يكون مفسدا في الأرض بعد أن لازموا جانب التوقف لما قال الله لهم ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فكان إنباء آدم بالأسماء عند عجزهم عن الإنباء بها بيانا لكشف شبهتهم فاستحقوا أن يأتوا بما فيه معذرة عن عدم علمهم بحقه."[1]، كان العلم الذي تميز به ءادم عليه السلام سبب تسليم الملائكة لأمر الله، ولم يستكبروا في تطبيق أمر الله تعالى.

إن سجود الملائكة لآدم كان امتثالا لأمر الله تعالى، إلا أنه كان بينهم من خرج عن هذا الامتثال وهو إبليس؛ الذي رفض الانصياع وامتثال الأمر الإلهي ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[2]، فهذا الاستكبار والتعالي عن أمر الله تعالى هو الذي أخرج إبليس من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، فالإيباء من "﴿أَبَى﴾ معناه امتنع من فعل ما أمر به"[3]، ومنه الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:"إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ يَا وَيْلَهُ – وَفِي رِوَايَةِ أَبِي كُرَيْبٍ يَا وَيْلِي – أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ"[4]، فهذا الشيطان الذي رفض أمر الله تعالى، يوم أمره للسجود لآدم فأبى واستكبر، فها هو الآن يتحسر على أن ابن آدم أمر بالسجود فانصاع وسجد، ولم يعرض كما أعرض إبليس.

1- ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، د ط، د ت، 1 / 420.

2- سورة البقرة: 34 .

3- القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين ،الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، د ط، 1423 هـ/ 2003م، 1 /295 .

4- رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب:بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، 61/1.

لم يكتف إبليس برفض أمر الله تعالى بعدم السجود لآدم عليه السلام، بل استكبر وتعالى، واستعظم أمر السجود، حسدا من عند نفسه، " فكأنه كره السجود في حقه واستعظمه في حق آدم، فكان ترك السجود لآدم تسفيها لأمر الله وحكمته"[1].

فهذه مسؤولية تكريمية تشريفية خُصَّ بها آدم –وذريته– جعلت الشيطان يكُنُّ الحسد لآدم عليه السلام، ومن بعده ذريته، وسيستمر إلى ما بعد نزوله إلى الأرض، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

الفرع الثاني: المسؤولية التأهيلية في مشهد الجنة

بَدَأَتْ مع آدم عليه السلام أُولى ملامح الاستخلاف العملي، وكانت بيئة تجربة الاستخلاف الجنة، وهذه التجربة لن يدخلها آدم عليه السلام وحده، وإنما يكون معه شريك وليس أحسن من زوجه، فهي مسؤولية مشتركة، على أساسها تبنى مسؤوليات ذريتهما من بعدهما، قال تعالى: ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[2]، "وتصدير الكلام بالنداء لتنبيه المأمور لما يلقى إليه من الأمر وتحريكه لما يخاطب به إذ هو من الأمور التي ينبغي أن يتوجه إليها"[3]، فالخطاب المباشر من الله تعالى لأدم عليه السلام دليل على عظم ما سيكلف به، فكانت البداية من الجنة التي دخلها؛ وكان كل ما فيها بين يديه حر التصرف

1- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، 1 / 296 .

2- سورة البقرة، 35 .

3- الآلوسي، روح المعاني، مصدر سابق، 1 / 275.

فيه؛ يأكل ما يشاء من خيراتها، إلا شجرة واحدة ُمنعِ من أكلها هو وزوجه، وهذا بداية الاختبار والامتحان.

ولقد "كان النهي عن الأكل من الشجرة للمحنة لأن الدنيا دار محنة وقد خلق من الأرض ليسكن فيها فامتحن بذلك كما امتحن أولاده في الدنيا بالحلال والحرام فذلك قوله ﴿**وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ يعني فتصيرا من الضارين بأنفسكما"[1]. فكان النهي إذن بداية المحن والابتلاءات لآدم عليه السلام ومن بعده ذريته.

وأَكْلُ الجنة المتنوع هو تمهيد لتنوع الحلال لآدم عليه السلام وذريته في أرض الدنيا، وأن الله تعالى لا يبخل على عباده بالخير والإنعام، وأما نهي آدم عليه السلام عن الأكل من الشجرة فهو للاختبار، وأن الحلال مقابل الحرام لا يكاد يذُكر. فقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ**﴾ "فهو إخبار من الله تعالى وامتحان لآدم "[2]. فالاختبار ابتدأ بالشجرة لتكبر المسؤولية إلى أعظم من ذلك؛ وهو الرسالة.

بعد نهي الله تعالى آدم عليه السلام وزوجه من الأكل من الشجرة، وهذا يعبر عن أن آدم وزوجه أمام مسؤولية عظيمة؛ وهي الامتثال المباشر من الله تعالى إلى أمره بالنهي عن الأكل، جاء من يخرج آدم من دائرة هذا النهي؛ قال تعالى: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ**﴾[3]، يقول ابن عاشور: "وتفيد الآية

1-السمرقندي: أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم الفقيه الحنفي، بحر العلوم، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، 1/ 70.

2- ابن كثير، تفسير ابن كثير، مصدر سابق، 1 / 271 .

3- سورة البقرة، 36 .

إثارة الحسرة في نفوس بني آدم على ما أصاب آدم من جراء عدم امتثاله لوصاية الله تعالى وموعظة تنبه بوجوب الوقوف عند الأمر والنهي والترغيب في السعي إلى ما يعيدهم إلى هذه الجنة التي كانت لأبيهم وتربية العداوة بينهم وبين الشيطان وجنده إذ كان سببا في جر هذه المصيبة لأبيهم حتى يكونوا أبدا ثأرا لأبيهم معادين للشيطان ووسوسته مسيئين الظنون بإغرائه"[1]، فإزلال الشيطان لآدم عليه السلام هو إزلال وإغواء لذريته، فكان هذا وعده بأن لا يترك هذه الذرية إلا واعترض طريق إيمانها بمعارضة أوامر الله تعالى، وإتيان نواهيه .

فهذا المشهد الذي عاشه آدم عليه السلام وزوجه في الجنة، مشهد يتبين فيه كيف سيتأهل آدم عليه السلام وزوجه لتحمل المسؤولية عند الإنزال إلى الأرض.

الفرع الثالث: المسؤولية التكليفية في مشهد الأرض

إن إغواء الشيطان لآدم عليه السلام وزوجه، واستجابة آدم عليه السلام له، نتج عنه العقاب الإلهي بإنزالهم إلى الأرض، وحكم عليهم الله تعالى بالعداوة المستمرة والدائمة بينهما، وبين ذريتهما إلى يوم القيامة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾[2]، و"هذا الهبوط هو بداية نزول الإنسان إلى الأرض ليباشر مهمته في الدنيا. ومادام الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾ فهي إذن حياة موقوته على قدر وقتها، وعلى قدر حجمها.."[3]، فالزمن المربوط بوقت إنزال آدم عليه السلام والشيطان، والأرض هي المخبر الذي سوف يعيش فيه آدم عليه السلام وذريته محن الحياة مع هذا الشيطان، مطالب الإنسان

1- ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، 1/ 434 .

2- سورة البقرة، 36 .

3- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 1 / 269.

في هذا الزمن الأرضي أن يعمرها بما هو مستطيع، وبما جُبِل عليه ووفق المنهج الرباني الذي أُمِر به من عند الله تعالى .

والمكوث في الأرض ليس الخلود فيها، فالإنسان مربوط بوقت محدد، مربوط بعمره، وبمهامه التي كُلِّف بها كخليفة، وبمسؤولياته المتعددة، ولابد أن يعمل على أساس أنه في هذه الأرض كعابر سبيل، وسبيله هذا مربوط بمحن وعراقيل، أولاها الشيطان. وأنه " لا أحد سيبقى في الأرض إلا بمقدار ما قدر الله له من عمر ثم يموت. وبهذا حذر الله آدم وذريته من أن يتخذوا من الحياة هدفاً لأن متاعها قليل، وأمدها قصير."[1] .

لما وقع آدم عليه السلام في معصية مخالفة أمر الله تعالى له بعدم الأكل من الشجرة، وكان العقاب الإلهي بإنزاله إلى الأرض هو ومن أغواه، أناب آدم إلى ربه، معترفا بذنبه، وطلب المغفرة، قال الله تعالى: ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾[2]، "ونهض آدم من عثرته، بما ركب في فطرته، وأدركته رحمة ربه التي تدركه دائما عندما يثوب إليها ويلوذ بها "[3]. فهذه الرحمة الإلهية بآدم عليه السلام لما كان أن يواجه الشيطان وحدة في هذه الأرض المليئة بالمحن، فلولا صدقه مع ربه، لما كانت الرحمة بالتوبة؛ لأنه بها سوف يواجه الشيطان، ويكمل مهمته في الأرض بأمر من الله تعالى، وَتلقِّي آدم عليه السلام الكلمات الربانية وهو مما علمه الله تبارك وتعالى،

إن التلقي الرباني لآدم عليه السلام"﴿ **فَتَلَقَّى**﴾ كأنه استقبله فتلقاه بالقبول حين أُوحي إليه أو أُخبر به، فمعنى ذلك إذن: فلقي الله آدم كلمات توبة، فتلقاها آدم من ربه وأخذها عنه تائبا، فتاب الله عليه بقِيلِهِ إياها من ربه"[4]، فلولا الذنب لما كانت التوبة؛ إذ بها تستمر الحياة، ويكون الأمل لأداء

1- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 1 / 270.

2 - سورة البقرة، 37 .

3 - سيد قطب، الظلال، مصدر سابق، 1 / 58 .

4- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط1، 1422هـ/2001م، 1/ 579 .

كل المسؤوليات، كونه الخليفة المسؤول عن نفسه، وعن الكون المسخر له، لذلك "كان لابد بعد أن وقعت المعصية أن يشرع الله تعالى التوبة رحمة بعباده. ذلك أن تشريع التوبة ليس رحمة بالعاصي وحده، ولكنه رحمة بالمجتمع كله. فالانسان إذا عصى وعرف أنه.. لا توبة له وأنه محكوم عليه بالخلود في النار. يتمادى في إجرامه. لأنه مادام لا أمل له في النجاة من عذاب الآخرة. فإنه يتمادى في المعصية. لأنه لا أمل في الغفران أو التوبة.."[1]، فالتوبة هدية من الله تعالى لعباده، بها يؤدون مهامهم في الأرض، وبها يأملون في ثواب الآخرة.

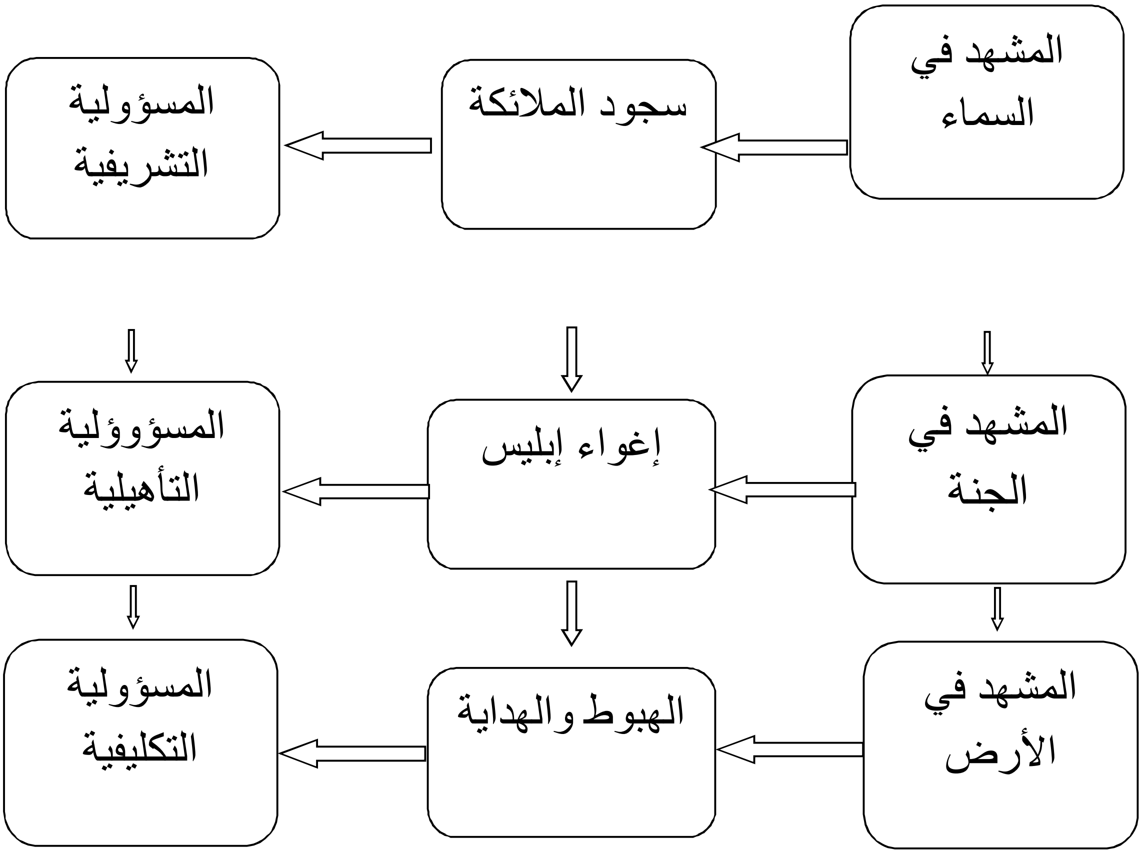

1- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 1/ 271 .

المطلب الأول: التكريم الإلهي للإنسان

خلق الإنسان كان أول تكريم له، حيث لم يكن موجودا ولا مذكورا، وهذا الخلق هو بداية الملامح الأولى لاستخلاف هذا المخلوق الجديد؛ فكانت التجربة ُآدم عليه السلام؛ حيث مرت بمشاهد ثلاثة: المسؤولية التشريفية في مشهد السماء، المسؤولية التأهيلية في مشهد الجنة، المسؤولية التكليفية في مشهد الأرض.

الفرع الأول: المسؤولية التشريفية في مشهد السماء

وقعت أحداث هذا المشهد في السماء، حيث الملأ الأعلى، أين أطلع الله تعالى الملائكة أنه خلق الإنسان خليفة، ويجعله في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، فهذا الخليفة سيكون له شأن في الأرض، فهو ليس كباقي المخلوقات، وميزته كسلالة أولى أن الله "خلق أباه بيده، ونفخ من روحه. وأسجد له ملائكته. وعلمه أسماء كل شيء. وأظهر فضله على الملائكة فَمَنْ دونهم من جمع المخلوقات. وطرد إبليس عن قربه. وأبعده عن بابه، إذ لم يسجد له مع الساجدين. واتخذه عدوا له"[2]، فهذا المخلوق الجديد هو من خلق الله تعالى، وكل أمر يتعلق به فيما بعد فهو خدمة له .

يفسر الشعراوي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾:" أي أن الله سبحانه وتعالى يطلب من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن يقول أنه عند خلق آدم. خلقه خليفة في الأرض. والكلام

1- سورة البقرة:30 .

2- ابن قيم الجوزية: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب، مدارج السالكين بين منازل"إياك نعبد وإياك نستعين"، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، دت، 1 /232 .

هنا لا يعني أن الله سبحانه وتعالى يستشير أحدا في الخلق. بدليل أنه قال: ﴿نِّي جَاعِلٌ ﴾ إذن فهو أمر مفروغ منه. ولكنه إعلام للملائكة.. والله سبحانه وتعالى عندما يحدث الملائكة عن ذلك فلأن لهم مع آدم مهمة. فهناك المدبرات أمرا. والحفظة الكرام. وغيرهم من الملائكة الذين سيكلفهم الحق سبحانه وتعالى بمهام متعددة تتصل بحياة هذا المخلوق الجديد. فكان الإعلام. لأن للملائكة عملا مع هذا الخليفة."[1]. فإعلام الله تعالى الملائكة بهذا الخليفة إعدادا لهم لمهام تربطهم به على طول مكوثه في الأرض.

وهذه الأرض التي سوف يسكنها آدم – ومن بعده ذريته- هيأها الله تعالى بما تتوافق وخلقته، وبما تساعده على أداء وظيفته التي من أجلها وجد، " فهنالك وحدة أو تناسق بين النواميس التي تحكم الأرض – وتحكم الكون كله – والنواميس التي تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته، كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك؛ وكي لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة!. وإذن فهي منزلة عظيمة، منزلة هذا الإنسان، في نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة. وهو التكريم الذي شاءه له خالقه الكريم ."[2].

فبعد إعداد الأرض التي سيعيش فيها آدم عليه السلام وذريته، ثم خلقه عليه السلام، جاء إخبار الله تعالى الملائكة بخلق هذا البشر، فكان تساؤلهم — في حدود علمهم- عن هذا المخلوق الذي سيفسد ويسفك الدماء في هذه الأرض قَالُوا﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ

1- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 1/240-241.
2- سيد قطب، الظلال، مصدر سابق،1/ 56.

﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]؛ فالملائكة مخلوقات متميزة في خِلْقتها، فعبادتها لله عبادة مطلقة، "يرون التسبيح بحمد الله والتقديس له، هو وحده الغاية المطلقة للوجود، وهو وحده العلة الأولى للخلق .. وهو متحقق بوجودهم هم، يسبحون بحمد الله ويقدسون له، ويعبدونه ولا يفترون عن عبادته!"[2]، فخلقة الملائكة طبيعة خاصة بهم، يرون أن كل مخلوق لابد وأن تكون حياته كلها لعبادة الله تعالى وحده كما يعبدونه هم .

فعلم الملائكة كان مقصورا على ما كان قبل هذا المخلوق، فكان حكمهم عليه، مبنيا على من سبق، "لقد خفيت عليهم حكمة المشيئة العليا، في بناء هذه الأرض وعمارتها، وفي تنمية الحياة وتنويعها، وفي تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود في تطويرها وترقيتها وتعديلها، على يد خليفة الله في أرضه. هذا الذي قد يفسد أحياناً ، وقد يسفك الدماء أحيانا، ليتم من وراء هذا الشر الجزئي الظاهر خير أكبر وأشمل. خير النمو الدائم، والرقي الدائم.... عندئذ جاءهم القرار من العليم بكل شيء، والخبير بمصائر الأمور"[3]، فخَلْقُ الله تعالى للإنسان، كان لغاية أرادها منه، وإطلاع الملائكة بذلك لحكمة أيضا – تأتي بعد فترة من الزمن — لها صلة أساسية وكبيرة بهذا الإنسان.

وبعد مرحلة خلق آدم عليه السلام، حباه الله تعالى بميزة تميَّز بها عن الملائكة، وهو العلم، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[4]. فهذا البشر الذي خلق من غير جنس الملائكة، – خلقا آخر– كان لابد من

1- سورة البقرة:30 .

2- سيد قطب، الظلال، مصدر سابق، 1 / 56-57.

3- سيد قطب، الظلال، مصدر نفسه، 1 / 57.

4- سورة البقرة:31 .

ميزة يخالف فيها الملائكة، فميزه الله تعالى بالعلم، فكان أول عرض له مع الملائكة، فقد خلق الله آدم عليه السلام " أراد –سبحانه– إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله، ميزه عليهم بالعلم فعلمه الأسماء كلها،... سبحانه لما عرَّفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علّمه،... فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم، وأنه أحاط علما بظاهرهم وباطنهم وبغيب السموات والأرض، فتعرف إليهم بصفة العلم وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم."[1]، فكان أول عرض مع أول معارض لهذا الخلق، الملائكة، ﴿**قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾[2] ، فهنا ظهر عجز ومحدودية علم الملائكة أمام علم الله تعالى المطلق؛ ﴿ **قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾[3]؛ حيث كان أول إعلام للملائكة من هذا البشر المخلوق هو إنباؤهم بأسمائهم، فحصل ما أخبرهم به الله تعالى بعدم علمهم بما أحاط الله به علما .

كَرَمُ الله تعالى على آدم عليه السلام لا ينتهي، فبعد خلقه، وتعليمه لكل الأسماء، جاء الأمر الإلهي للملائكة بالسجود له، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾[4]، امتُحنت الملائكة في هذا الموقف بالسجود لما خَلَق الله تعالى وكرَّمه، فنجحوا في الامتحان وسجدوا ولم يخالفوا أمر الله عزوجل، وسجود الملائكة لآدم عليه السلام لم يكن السجود للإنسان وإنما كان السجود لعظمة الله تعالى ولعظم خلقه، وتعظيما للعلم الذي ميزه الله تعالى به آدم على الملائكة، ويذكر ابن عاشور أن " فضيلة آدم لم تظهر للملائكة إلا بعد تعليمه

1- ابن القيم، بدائع التفسير، مصدر سابق، 1 / 117 .
2- سورة البقرة: 33.
3- سورة البقرة: 30 .
4- سورة البقرة: 34 .

الأسماء وعرضها عليهم وعجزهم عن الإنباء بها، وأنهم كانوا قبل ذلك مترقبين بيان ما يكشف ظنهم بآدم أن يكون مفسدا في الأرض بعد أن لازموا جانب التوقف لما قال الله لهم ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فكان إنباء آدم بالأسماء عند عجزهم عن الإنباء بها بيانا لكشف شبهتهم فاستحقوا أن يأتوا بما فيه معذرة عن عدم علمهم بحقه."[1]، كان العلم الذي تميز به ءادم عليه السلام سبب تسليم الملائكة لأمر الله، ولم يستكبروا في تطبيق أمر الله تعالى.

إن سجود الملائكة لآدم كان امتثالا لأمر الله تعالى، إلا أنه كان بينهم من خرج عن هذا الامتثال وهو إبليس؛ الذي رفض الانصياع وامتثال الأمر الإلهي ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[2]، فهذا الاستكبار والتعالي عن أمر الله تعالى هو الذي أخرج إبليس من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، فالإيباء من "﴿أَبَى﴾ معناه امتنع من فعل ما أمر به"[3]، ومنه الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ يَا وَيْلَهُ – وَفِي رِوَايَةِ أَبِي كُرَيْبٍ يَا وَيْلِي – أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ"[4]، فهذا الشيطان الذي رفض أمر الله تعالى، يوم أمره للسجود لآدم فأبى واستكبر، فها هو الآن يتحسر على أن ابن آدم أمر بالسجود فانصاع وسجد، ولم يعرض كما أعرض إبليس.

1- ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، د ط، د ت، 1 / 420.
2- سورة البقرة: 34 .
3- القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين ،الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، د ط، 1423 هـ/ 2003م، 1 /295 .
4- رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب:بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، 61/1.

لم يكتف إبليس برفض أمر الله تعالى بعدم السجود لآدم عليه السلام، بل استكبر وتعالى، واستعظم أمر السجود، حسدا من عند نفسه، " فكأنه كره السجود في حقه واستعظمه في حق آدم، فكان ترك السجود لآدم تسفيها لأمر الله وحكمته"[1].

فهذه مسؤولية تكريمية تشريفية خُصَّ بها آدم –وذريته– جعلت الشيطان يكُنُّ الحسد لآدم عليه السلام، ومن بعده ذريته، وسيستمر إلى ما بعد نزوله إلى الأرض، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

الفرع الثاني: المسؤولية التأهيلية في مشهد الجنة

بَدَأَتْ مع آدم عليه السلام أُولى ملامح الاستخلاف العملي، وكانت بيئة تجربة الاستخلاف الجنة، وهذه التجربة لن يدخلها آدم عليه السلام وحده، وإنما يكون معه شريك وليس أحسن من زوجه، فهي مسؤولية مشتركة، على أساسها تبنى مسؤوليات ذريتهما من بعدهما، قال تعالى: ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[2]، "وتصدير الكلام بالنداء لتنبيه المأمور لما يلقى إليه من الأمر وتحريكه لما يخاطب به إذ هو من الأمور التي ينبغي أن يتوجه إليها"[3]، فالخطاب المباشر من الله تعالى لأدم عليه السلام دليل على عظم ما سيكلف به، فكانت البداية من الجنة التي دخلها؛ وكان كل ما فيها بين يديه حر التصرف

1- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، 1 / 296 .
2- سورة البقرة، 35 .
3- الآلوسي، روح المعاني، مصدر سابق، 1 / 275.

فيه؛ يأكل ما يشاء من خيراتها، إلا شجرة واحدة مُنعِ من أكلها هو وزوجه، وهذا بداية الاختبار والامتحان.

ولقد "كان النهي عن الأكل من الشجرة للمحنة لأن الدنيا دار محنة وقد خلق من الأرض ليسكن فيها فامتحن بذلك كما امتحن أولاده في الدنيا بالحلال والحرام فذلك قوله ﴿**وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ يعني فتصيرا من الضارين بأنفسكما"[1]. فكان النهي إذن بداية المحن والابتلاءات لآدم عليه السلام ومن بعده ذريته.

وأكل الجنة المتنوع هو تمهيد لتنوع الحلال لآدم عليه السلام وذريته في أرض الدنيا، وأن الله تعالى لا يبخل على عباده بالخير والإنعام، وأما نهي آدم عليه السلام عن الأكل من الشجرة فهو للاختبار، وأن الحلال مقابل الحرام لا يكاد يذُكر. فقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ**﴾ "فهو إخبار من الله تعالى وامتحان لآدم "[2]. فالاختبار ابتدأ بالشجرة لتكبر المسؤولية إلى أعظم من ذلك؛ وهو الرسالة.

بعد نهي الله تعالى آدم عليه السلام وزوجه من الأكل من الشجرة، وهذا يعبر عن أن آدم وزوجه أمام مسؤولية عظيمة؛ وهي الامتثال المباشر من الله تعالى إلى أمره بالنهي عن الأكل، جاء من يخرج آدم من دائرة هذا النهي؛ قال تعالى: ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ**﴾[3]، يقول ابن عاشور: "وتفيد الآية

1-السمرقندي: أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم الفقيه الحنفي، بحر العلوم، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، 1/ 70.
2- ابن كثير، تفسير ابن كثير، مصدر سابق، 1 / 271 .
3- سورة البقرة، 36 .

إثارة الحسرة في نفوس بني آدم على ما أصاب آدم من جراء عدم امتثاله لوصاية الله تعالى وموعظة تنبه بوجوب الوقوف عند الأمر والنهي والترغيب في السعي إلى ما يعيدهم إلى هذه الجنة التي كانت لأبيهم وتربية العداوة بينهم وبين الشيطان وجنده إذ كان سببا في جر هذه المصيبة لأبيهم حتى يكونوا أبدا ثأرا لأبيهم معادين للشيطان ووسوسته مسيئين الظنون بإغرائه"[1]، فإزلال الشيطان لآدم عليه السلام هو إزلال وإغواء لذريته، فكان هذا وعده بأن لا يترك هذه الذرية إلا واعترض طريق إيمانها بمعارضة أوامر الله تعالى، وإتيان نواهيه .

فهذا المشهد الذي عاشه آدم عليه السلام وزوجه في الجنة، مشهد يتبين فيه كيف سيتأهل آدم عليه السلام وزوجه لتحمل المسؤولية عند الإنزال إلى الأرض.

الفرع الثالث: المسؤولية التكليفية في مشهد الأرض

إن إغواء الشيطان لآدم عليه السلام وزوجه، واستجابة آدم عليه السلام له، نتج عنه العقاب الإلهي بإنزالهم إلى الأرض، وحكم عليهم الله تعالى بالعداوة المستمرة والدائمة بينهما، وبين ذريتهما إلى يوم القيامة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾[2]، و"هذا الهبوط هو بداية نزول الإنسان إلى الأرض ليباشر مهمته في الدنيا. ومادام الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾ فهي إذن حياة موقوته على قدر وقتها، وعلى قدر حجمها.."[3]، فالزمن المربوط بوقت إنزال آدم عليه السلام والشيطان، والأرض هي المخبر الذي سوف يعيش فيه آدم عليه السلام وذريته محن الحياة مع هذا الشيطان، مطالب الإنسان

1- ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، 1/ 434 .

2- سورة البقرة، 36 .

3- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 1 / 269.

في هذا الزمن الأرضي أن يعمرها بما هو مستطيع، وبما جُبِل عليه ووفق المنهج الرباني الذي أُمر به من عند الله تعالى .

والمكوث في الأرض ليس الخلود فيها، فالإنسان مربوط بوقت محدد، مربوط بعمره، وبمهامه التي كُلِّف بها كخليفة، وبمسؤولياته المتعددة، ولابد أن يعمل على أساس أنه في هذه الأرض كعابر سبيل، وسبيله هذا مربوط بمحن وعراقيل، أولاها الشيطان. وأنه " لا أحد سيبقى في الأرض إلا بمقدار ما قدر الله له من عمر ثم يموت. وبهذا حذر الله آدم وذريته من أن يتخذوا من الحياة هدفاً لأن متاعها قليل، وأمدها قصير."[1] .

لما وقع آدم عليه السلام في معصية مخالفة أمر الله تعالى له بعدم الأكل من الشجرة، وكان العقاب الإلهي بإنزاله إلى الأرض هو ومن أغواه، أناب آدم إلى ربه، معترفا بذنبه، وطلب المغفرة، قال الله تعالى: ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾[2]، "ونهض آدم من عثرته، بما ركب في فطرته، وأدركته رحمة ربه التي تدركه دائما عندما يثوب إليها ويلوذ بها "[3]. فهذه الرحمة الإلهية بآدم عليه السلام لما كان أن يواجه الشيطان وحدة في هذه الأرض المليئة بالمحن، فلولا صدقه مع ربه، لما كانت الرحمة بالتوبة؛ لأنه بها سوف يواجه الشيطان، ويكمل مهمته في الأرض بأمر من الله تعالى، وَتلقِّي آدم عليه السلام الكلمات الربانية وهو مما علمه الله تبارك وتعالى،

إن التلقي الرباني لآدم عليه السلام"﴿ **فَتَلَقَّىٰ** ﴾كأنه استقبله فتلقاه بالقبول حين أُوحي إليه أو أُخبر به، فمعنى ذلك إذن: فلقي الله آدم كلمات توبة، فتلقاها آدم من ربه وأخذها عنه تائبا، فتاب الله عليه بقيله إياها من ربه"[4]، فلولا الذنب لما كانت التوبة؛ إذ بها تستمر الحياة، ويكون الأمل لأداء

1- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 1 / 270.

2 - سورة البقرة، 37 .

3 - سيد قطب، الظلال، مصدر سابق، 1 / 58 .

4- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط1، 1422هـ/2001م، 1/ 579 .

كل المسؤوليات، كونه الخليفة المسؤول عن نفسه، وعن الكون المسخر له، لذلك "كان لابد بعد أن وقعت المعصية أن يشرع الله تعالى التوبة رحمة بعباده. ذلك أن تشريع التوبة ليس رحمة بالعاصي وحده، ولكنه رحمة بالمجتمع كله. فالانسان إذا عصى وعرف أنه.. لا توبة له وأنه محكوم عليه بالخلود في النار. يتمادى في إجرامه. لأنه مادام لا أمل له في النجاة من عذاب الآخرة. فإنه يتمادى في المعصية. لأنه لا أمل في الغفران أو التوبة.."[1]، فالتوبة هدية من الله تعالى لعباده، بها يؤدون مهامهم في الأرض، وبها يأملون في ثواب الآخرة.

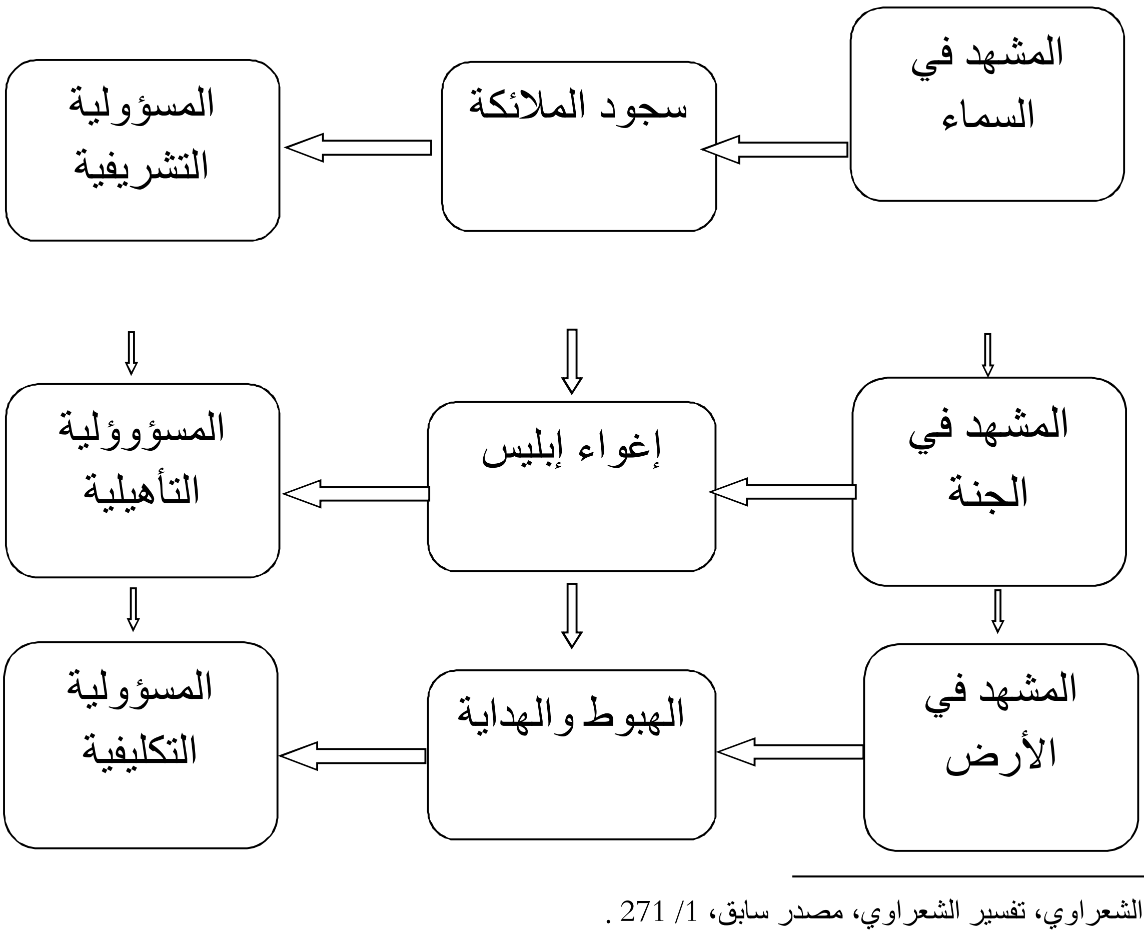

1- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 1/ 271 .

المطلب الثاني: مسؤولية العبادة (الإيمان)

لم يُخلق الإنسانعبثا، ولم يُسخَّر له الكون وما فيه من مخلوقات للهو واللعب؛ إنما كان هذا التسخير لحكمة أرادها الله تعالى، وهي عبادته سبحانه وتعالى وحده، قال عزوجل: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[1]، يفسر ابن عاشور الآية فيقول: " وأن تكاليف الله للعباد على ألسنة الرسل ما أراد بها إلا صلاحهم العاجل والآجل وحصول الكمال النفساني بذلك الصلاح، فلا جرم أن الله أراد من الشرائع كمال الإنسان وضبط نظامه الاجتماعي في مختلف عصوره. وتلك حكمة إنشائه، فاستتبع قوله إلا ليعبدون أنه ما خلقهم إلا لينتظم أمرهم بوقوفهم عند حدود التكاليف التشريعية من الأوامر والنواهي، فعبادة الإنسان ربَّه لا تخرج عن كونها محققة للمقصد من خلقه وعلة لحصوله عادة"[2]، فعبادة الله تعالى وتوحيده أسمى ما يتقرب به العبد إليه سبحانه وتعالى.

الفرع الأول: حقيقة العبودية

إن الحقيقة الأساسية في حياة العباد هي حقيقة العبودية، و" حقيقة العبودية التي هي كمال الحب وكمال الذل، وسير أهل الاستقامة إنما هو إلى هذه الحقيقة، ومنازل السير التي ينزلون فيها هي منازل الإيمان الموصلة إليها، والمنحرفون لا يرضون بهذه الحقيقة ولا يقفون معها، ويرونها منزلة من منازل العامة "[3]، فالعبودية هي الذل المطلق، والحب الأبدي لله تعالى، وإنما الاستقامة لا تكون إلا لهذه المنزلة.

1- سورة الذاريات، 56 .

2- ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، 27/ 27 .

3- ابن قيم الجوزية: شمس الدين أبي عبد الله محمد، طريق الهجرتين وباب السعادتين، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2004م. ص:311/310.

وأول سؤال يُسْأَله العبد هو التوحيد؛ الذي هو قاعدة الحياة على وجه هذه الأرض، والميثاق الذي أُخِذ من ءادم عليه السلام ومن ذريته، وهو نتيجة المآل الحتمي في الآخرة، الذي هو الجنة إن أوفى بميثاقه، أو النار إن أخلفه واتبع هواه، قال الله تعالى: ﴿ **احْشُروا الَّذينَ ظَلَموا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانوا يَعْبُدونَ. مِنْ دونِ اللَّهِ فَاهْدوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحيمِ. وَقِفوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئولونَ** ﴾[1]، يفسر الشنقيطي هذه الآية الكريمة فيقول: "فقوله تعالى: ﴿ **احْشُروا الَّذينَ ظَلَموا وَأَزْواجَهُمْ** ﴾، أي: اجمعوا الظالمين وأشباههم ونظراءهم، فاهدوهم إلى النار ليدخلها جميعهم، وبذلك تعلم أن قول من قال: المراد ب: ﴿ **أَزْواجَهُمْ** ﴾نساؤهم اللاتي على دينهم، خلاف الصواب. وقوله تعالى: ﴿ **وَما كانوا يَعْبُدونَ. مِنْ دونِ اللَّهِ** ﴾أي: احشروا مع الكفار الشركاء التي كانوا يعبدونها من دون اللَّه ليدخل العابدون والمعبودات جميعا النار"[2]، فهذا الموقف المهيب، وهذه النهاية المهينة، من نصيب كل من يخالف أمر الله تعالى ويعبد غيره، وهو سبحانه خالقه ورازقه، وهاديه إلى صراطه المستقيم الذي أبى هذا الكافر إلا مخالفته.

إن حشر الكافر إلى جهنم يكون بعد أن يوقف كل عَبْد وما عَبَد من دون الله تعالى، سواء من الأوثان أم من البشر، في موقف السؤال الأخير، يوم القيامة،﴿ **وَما كانوا يَعْبُدونَ. مِنْ دونِ اللَّهِ فَاهْدوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحيمِ. وَقِفوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئولونَ** ﴾[3]، فمن يعبد غير الله "من الأصنام والأنداد التي زعموها، فاجمعوهم جميعا ﴿ **فَاهْدوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحيمِ** ﴾ أي: سوقوهم سوقا عنيفا إلى جهنم. وبعد ما يتعين أمرهم إلى النار، ويعرفون أنهم من أهل دار البوار، يقال: ﴿ **وَقِفوهُمْ** ﴾ قبل أن توصلوهم

1- سورة الصافات: 22، 23، 24 .

2- الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت، 1415هـ/ 1995م، 309/6.

3- سورة الصافات: 23، 24 .

إلى جهنم ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ عما كانوا يفترونه في الدنيا، ليظهر على رءوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم "[1]، هذا هو الموقف الأكبر والفاضح الذي سيقفه الكافرون يُسألوا عما كانوا يعبدونه من دون الله تعالى، فيكون الخزي حينئذ والمهانة، وسوء الجزاء. ففي وسط هذا الجو المخيف يبحثون عمن يجدون عنده الإجابة عن معبودهم؟!، ولماذا عبدوه؟، لكنهم لن يجدوها!!، فيبحثون عنها عند من عبدوهم، أو دلوهم على عبادة غير الله، ولكن هيهات؟! ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ. بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ. وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾[2]. يفسر سيد قطب هذه الآيات الكريمة: "ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً وأنتم هنا جميعاً؟ وكلكم في حاجة إلى الناصر المعين ؟! ومعكم آلهتكم التي كنتم تعبدون! ولا جواب بطبيعة الحال ولا كلام! إنما يرد التعليق والتعقيب: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾.. عابدين. ومعبودين!!!"[3]، فإنما كان الاستسلام بعد عجز عن إيجاد مُخَلِّص، ومنجد من هول ذلك اليوم.

ومازال العتاب متواصلا .." ثم يعود السياق مرة أخرى إلى الحكاية، ويعرض مشهدهم يجادل بعضهم بعضاً: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ. قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾. أي كنتم توسوسون لنا عن يميننا -كما هو المعتاد في حالة الوسوسة بالأسرار غالباً- فأنتم مسؤولون عما نحن فيه. وعندئذ ينبري المتهمون لتسفيه هذا الاتهام، وإلقاء التبعة على موجهيه: ﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾."[4]، فالإيمان بالله تعالى أساس ومنهج سُلِم وكُلِّف به الإنسان وأُمر باتباعه. وإلصاق التهم

1- السعدي، تيسير الكريم الرحمن، مصدر سابق، 1/ 701-702.
2- سورة الصافات: 26،25، 27.
3- سيد قطب، الظلال، 2986/5 .
4- سيد قطب، الظلال، مصدر نفسه،5/ 2986

بالغير من أجل النفاذ من العقاب لخرق هذا القانون الإلهي العادل، لا ينفع عند مقام الحساب. والحجة عليهم يوم القيامة لأنهم اختاروا الكفر بدل الإيمان عن طواعية .

الفرع الثاني: الدعوة إلى العبادة

إن الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده جاءت بالوحي للرسل أجمعين، وخوطب بذلك الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وأُمر أن يعبد الله تعالى وحده ويتبع سبيله، ويدعو أمته بذلك كما كان على ذلك الرسل من قبله عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿**فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ. وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ**﴾[1]، يفسر أبو بكر الجزائري قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾:" أي فتمسك يا رسولنا بما يأمرك به هذا القرآن الذي أوحاه إليك ربك إنك على صراط مستقيم وهو الإسلام الذي لا يشقى من تمسك به فعاش عليه ومات عليه. وقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ**﴾ أي وأن القرآن الذي أوحى إليك وأمرت بالتمسك به هو ذكر لك أي شرف وأي شرف ولقومك من قريش كذلك إذا آمنوا به وعملوا بما جاء وسوف تسألون عن العمل به وتطبيق أحكامه والالتزام بشرائعه."[2]، فهذا التميز لأمة النبي صلى الله عليه وسلم بشرف إرساله إليهم، وإنزال القرآن عليهم، مأمورون بالإيمان به، وتطبيق شرائعه في الحياة، لأنهم مسؤولون عن كل ذلك كله يوم القيامة.

1- سورة الزخرف: 43-45 .

2- أبو بكر الجزائري: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط5، 1424هـ/2003م، 4/ 27 .

والدعوة إلى الإيمان بالله ليس قصرا على أمة النبي صلى الله عليه وسلم، إنما كانت الدعوة إلى من كان قبلهم من الأمم، قال تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾" أي وأسأل يا رسولنا مؤمني أهل الكتابين التوراة والإنجيل إذ سؤالهما سؤال رسلهم الذين ماتوا من قبلك هل جعل الله تعالى من دونه آلهة يعبدون؟ وسوف يجيبونك بقولهم حاشا لله أن يأذن بعبادة غيره من خلقه وهو الله لا إله إلا هو، وهذا من أجل تنبيه أذهان قريش إلى خطأها الفاحش في إصرارها على عبادة الأصنام إن القرآن نزل لهدايتهم وهداية غيرهم من بني آدم على الإطلاق."[1]؛ فالأمر بسؤال أهل الكتاب عن حالهم مع الإيمان بالله تعالى ورسالة رسلهم إليهم، تأكيد على أن الغاية واحدة في كل زمان ومع كل رسول وهي الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له. فهذه هي أول المسؤوليات المكلف بها الناس نحو خالقهم سبحانه وتعالى؛ وهي الإيمان به تعالى؛ كونه عز وجل خلقهم وأنعم عليهم كل ما هم فيه من النعم ابتداء بأنفسهم، والكون المسخر لهم .

وأحقية الله تعالى بالعبادة، وعدم الإشراك به شيئا إنما كان ذلك لأنه سبحانه وتعالى خلق الإنسان وخصه بكل النعم التي خلقها في الكون ليسهل عليه العيش، وميزه بالعقل عن باقي المخلوقات ليعرف الخير من الشر، ويميز بين الهدى والضلال، وكُفر الإنسان بالله تعالى إنما يكون باتباع الهوى والشهوات، والإيمان بقدرة الأنداد لله بكشف الضر وجلب النفع، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

1- أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، مرجع نفسه، 4/ 27 .

﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [1]، وقد جاء في تفسير الآيات الكريم أنه: " امتن سبحانه عليهم بأن جميع ما هم متقلبون فيه من النعم هو منه لا من غيره فقال ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ ﴾ أي ما يلابسكم من النعم على اختلاف أنواعها فمن الله أي فهي منه....والنعمة إما دينية وهى معرفة الحق لذاته ومعرفة الخير لأجل العمل به وإما دنيوية نفسانية أو بدنية أو خارجية كالسعادات المالية وغيرها وكل واحدة من هذه جنس تحت أنواع لا حصر لها والكل من الله سبحانه فعلى العاقل أن لا يشكر إلا إياه ثم بين تلون الإنسان بعد استغراقه في بحر النعم فقال ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ أي إذا مسكم الضر أي مس فإلى الله سبحانه لا إلى غيره تتضرعون في كشفه"[2]، ويبقى ضعف الإنسان وحاجته الدائمة لدفع الضرر، ورفع البؤس فطرة لا تتبدل ولا تتحول، وتبقى الاستعانة في ذلك للأقوى والمهيمن، وهو الله الذي تعرفه النفس مهما شابها ويشوبها من كفر وعصيان وتمرد.

إن هذا اللجوء المتأصل في النفس البشرية إلى الله تعالى عند البأساء أمر فطري وطبيعي، فيكشف الضر وتنعم النفس. إلا أن الجحود ونكران النعم والمنعم متأصلة أيضا، فيُشكر غيرُ الله تعالى، ويُجعل له الأنداد، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [3]، " يجعلون لما لا يعلمون حقيقته من الجمادات والشياطين نصيبا مما رزقناهم من أموالهم يتقربون به إليه وقيل المعنى أنهم أي الكفار يجعلون للأصنام وهم لا يعلمون شيئا لكونهم جمادات ففاعل يعلمون على هذا هي الأصنام وأجراها مجرى العقلاء في جمعها بالواو والنون جريا على اعتقاد الكفار فيها وحاصل المعنى ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعقل شيئا نصيبا من أموالهم التي رزقهم الله

1- سورة النحل: 53-57.
2- فتح القدير، محمد الشوكاني، مصدر سابق، 3/ 169.
3- سورة النحل: 56.

إياها ﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب وهذا السؤال سؤال تقريع وتوبيخ ﴿ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ تختلقونه من الكذب على الله سبحانه فى الدنيا"[1]. فسؤالهم عما اقترفوه في أنفسهم من عبادة غير الله تعالى موعودون به منه سبحانه وتعالى، والله لا يخلف وعده، وجزاؤهم مُوفًى إليهم في الدنيا والآخرة.

إن المؤمن التالي لهذه الآيات الكريمة، يستشعر عظم الذنب والعقاب الذي يناله من خالف أمر الله تعالى بعبادة غيره؛ لذلك كان الصحابة يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعن كل ما يقرب إلى الله تعالى، ويزيد الإيمان به، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: "**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ**" قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الإِسْلاَمُ ؟. قَالَ: "**الإِسْلاَمُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ الْمَكْتُوبَةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ**". قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الإِحْسَانُ؟. قَالَ: "**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ لاَ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**"[2].

إن هذا الحديث يعبر عن حياة المؤمن مع الله تعالى، وأسس هذه الحياة والعلاقة الربانية هي الإيمان، والإسلام، ثم الإحسان، و" قدم السؤال عن الإيمان لأنه الأصل، وثنى بالإسلام لأنه يظهر مصداق الدعوى، وثلث بالإحسان لأنه متعلق بهما."[3]. ثم بيّن أن الإيمان ليس المراد به معناه لغويا،

1- فتح القدير، محمد الشوكاني، مصدر سابق، 3/ 170.

2- رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه و سلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، 27/1. رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى. وبيان الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر، وإغلاظ القول في حقه.39/1.

3- العسقلاني: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق : عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، دار الفكر،د.ط.ت، 1 / 117 .

وإنما " **الإِيَمانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ الخ**" دل الجواب أنه علم أنه سأله عن متعلقاته لا عن معنى لفظه، وإلا لكان الجواب: الإيمان التصديق."[1].

والمراد بالإيمان في الحديث هو التفصيل في متعلقاته -كما ورد في الشرح- وليس معناه اللغوي في سؤاله عن الإيمان:"**والإيمان بالله**" هو التصديق بوجوده وأنه متصف بصفات الكمال، منزه عن صفات النقص. قوله:"**وملائكته**" الإيمان بالملائكة هو التصديق بوجودهم وأنهم كما وصفهم الله تعالى: ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ وقدم الملائكة على الكتب والرسل نظرا للترتيب الواقع، لأنه سبحانه وتعالى أرسل الملك بالكتاب إلى الرسول،...قوله:"**وكتبه**" هذه...والإيمان بكتب الله التصديق بأنها كلام الله وأن ما تضمنته حق."**وبلقائه**"...فقيل: المراد بالبعث القيام من القبور، والمراد باللقاء ما بعد ذلك، وقيل: اللقاء يحصل بالانتقال من دار الدنيا، والبعث بعد ذلك. والإيمان بالرسل: التصديق بأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله "[2]، هذه هي مقتضيات الإيمان التي حددها جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم، ليبينها النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته ولكل المؤمنين.

أما المرتبة الثالثة التي حددها جبريل عليه السلام هي الإحسان، إلى جانب الإيمان والإسلام؛ والإحسان كما ذكر النووي في شرحه للحديث النبوي الشريف: " هذا من جوامع الكلم التي أوتيها صلى الله عليه وسلم، لأنا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى، لم يترك شيئا مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت، واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها

1- ابن حجر، فتح الباري، مصدر نفسه، 1 / 117.

2- ابن حجر، فتح الباري، مصدر سابق، 1/ 117-118.

على أحسن وجوهها إلا أتى به"[1]، هذه الدرجة التي يسعى إليها المؤمن ليبلغ تمام الإيمان، ويستشعر الله تعالى في حركاته وسكناته، في أقواله وأفعاله. فالإحسان درجة تجمع بين الإيمان والإسلام؛ حيث إن الإيمان عبادة غيبية، تجمع بين السماء والأرض، والإسلام أركانه التي توصل إليه.

فالإحسان درجة الإتقان للمرتبتين، فالإنسان بين تصديق الإيمان، وإسلام العمل .

إن عبادة الله تعالى وحده هي دعوة الأنبياء كلهم،وإرث يُوَرَّث للذرية من بعدهم، ولأقوامهم، فهم لم يورثوا لا درهما ولا دينارا، قال تعالى: ﴿ **أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[2]، ويفسر ابن كثير قوله تعالى: ﴿**إِلَٰهًا وَاحِدًا**﴾ "أي: نُوحِّدُه بالألوهية، ولا نشرك به شيئا غيره ﴿**وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ أي: مطيعون خاضعون كما قال تعالى: ﴿**وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾[3]، والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنّوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾[4]وقوله تعالى: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ**﴾ أي: مضت ﴿ **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ**﴾أي: إن السلف

1- النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم، مصدر سابق، 25/9، ينظر: ابن حجر، فتح الباري، مصدر سابق، 1/ 117 -118.

2- سورة البقرة: 133، 135

3 _ سورة آل عمران: 83

4 _ سورة الأنبياء: 25 .

الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوايخراً ا يعود نفعهُ عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم: ﴿ **وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾"[1]، فعبادة الله تعالى مسؤولية يتحملها الأنبياء لإبلاغها لأقوامهم، فهم عليهم الصلاة والسلام مسؤولون أمام الله تعالى. وأقوامهم مسؤولون عن قبول هذا البلاغ، والإيمان به تعالى .

إن خلق الإنسان واستخلافه في الأرض كان لمهمة جد نبيلة وخطيرة وصعبة، وهي عمارة الأرض، وصناعة حضارة إسلامية إنسانية، تُبنى على أسس متينة؛ حيث الأساس الأول وأرضيته هي عبادة الله تعالى، وإفراده بالوحدانية، إذ " لا يمكن أن تتحقق- بناء الحضارة- إلا بسبيل واحد، هو سبيل اليقين بوجود الخالق عز وجل، واليقين بأنه إله واحد متصف بكل صفات الكمال؛ ويترتب على هذا اليقين تصور العلاقة القائمة بين الإنسان وهذا الإله الخالق عز وجل، وهي علاقة العبودية المطلقة من المخلوق لخالقه والخضوع الحتمي المطلق من المملوك لمالكه."[2]. فعبادة الله تعالى مركز حياة الإنسان، ومنهج تسيير الكون، وهدف للفوز برضا الله عز وجل.

إن حاجة الإنسان للإيمان في حياته، أكبر وألزم من حاجته لأي شيء آخر يحفظ حياته، "وتلك هي حاجة الإنسان إلى الإيمان بوجود إله واحد خالق لهذا الكون، مسيّر لنظامه وقيوم على كل شؤونه. أي إن الله عز وجل ما ألزم عباده بأن يعرفوه ويستيقنوا وجوده، إلا ليهديهم من خلال ذلك اليقين إلى أيسر طريق يتعرفون به على أنفسهم ويدركون به هوياتهم في خضم هذا الوجود، فيعرفوا بذلك

1- ابن كثير، تفسير ابن كثير، مصدر سابق، 1 /447- 448.

2- البوطي: محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، دمشق، سورية، ط3، 1998م، ص:52.

سبيل التعاون فيما بينهم، والاستفادة من طاقاتهم وإمكاناتهم، ثم يسعوا إلى ذلك في ظل من التآلف والإخاء"[1]، فالإيمان مجهر يعرف به المؤمن نفسه، ويتيقن طريقه في الدنيا أنه على الصراط المستقيم. وحبل رباط يجمعه مع إخوانه المؤمنين لبناء المجتمع المنشود، وإعداد الطاقات وتكاثف الجهود لصناعة الحضارة المأمور بتحقيقها بحكم مهنته الاستخلافية في الأرض، وبحكم الأمانة التي حملها عن طواعية منه.

إن الإيمان بالله تعالى هو عصب الحياة، وروحها، و" أن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته، وإخلاص العمل له وإفراده بالتوكل عليه هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه، كما عليه أهل الإيمان، وكما دل عليه القرآن"[2]، وإذا ثبت الإيمان في نفس المؤمن، كان هو كل ما يحركه، في حياته الخاصة، وحياته العامة.

وهذه المسيرة الإنسانية الاستخلافية، البنائية لابد لها من هدف ومراد، هو إرضاء الله تعالى؛ في تطبيق شرعه كما أمر " فمن كان مراده وجه الله، وحياته في معرفته ومحبته، ونعيمه في التوجه إليه وذكره، وطمأنينته به، وسكونه إليه وحده، عرف هذا وأقر به"[3]، فلابد للسكون الروحي والنفسي، والطمأنينة التامة والخالصة، لتكمل بذلك الحياة ويخلص العمل، ويصلح البناء، فتُؤَدَّى الوظيفة الاستخلافية كما أرادها الله تعالى أن تكون.

1- البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، مرجع نفسه، ص: 53.

2- ابن القيم، طريق الهجرتين، مرجع سابق، ص:66.

3- ابن القيم، طريق الهجرتين، مرجع نفسه، ص:67.

إن العبادة هي وجه من وجوه الاستخلاف-بالإضافة إلى العمارة-؛ حيث " إن خلافة الإنسان لله وعبادته له يمثلان وجهين لحقيقة واحدة، حيث إن الخلافة إن هي إلا تنفيذ أحكام الله تعالى في شتى المجالات، والعبادة المذكورة في آية الذاريات[1] هي طاعة الله التامة، وهي أشمل من العبادات ذات التسميات المعروفة كالصلاة والزكاة، فمفهومها شامل لكل أعمال الإنسان ونواياه"[2]؛ فالعبادة المأمور بها الإنسان ليست فقط الجانب العقدي؛ يعني الإيمان بالله تعالى والملائكة والكتب السماوية، والرسل، إنما تكون أيضا بأداء الأحكام التشريعية الخاصة بالعبادات، كالصلاة، والزكاة، والحج،.....، وكل ما يتعلق بالمعاملات؛ كالتجارة، والنكاح،.... فالعبادة أول أمر كُلِّف به الإنسان بعد استخلافه، ليؤدي الشكر لله تعالى على امتنانه أن خلقه، وفضله على كل مخلوقاته، فهو أحق بالعبادة والشكر. فالإنسان مأمور في الوقت ذاته أن يكون له علاقة باقي المخلوقات، سواء الحيوانات، أو البشر غيره، أو الكون من حوله، لأنه مسؤول عنهم إلى يوم يلقى الله تعالى الذي جعله خليفة له، يؤدي الوظيفة التي أمره الله بها سبحانه وتعالى.

1- قول تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ الآية:56.

2- شوقي أحمد دنيا، الإسلام والتنمية الاقتصادية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1979م، ص:47. نقلا عن: حمدي محمد بن صالح، نظرية الاستخلاف في الأموال في الاقتصاد الإسلامي، جمعية التراث، القرارة، غرداية، الجزائر، ط1، 1425هـ /2004م، ص:64-65 .

المطلب الثالث: مسؤولية عمارة الأرض (العمل الصالح)

استخلف الله تعالى الإنسان واستأمنه على هذا الكون، ليكون قائما على إصلاحه تبعا لما شرعه الله تعالى الذي أرسل به الأنبياء عليهم صلاة الله وسلامه، واستعمار الإنسان الأرض لأنها منشؤه، وأصل خلقته، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[1]. يفسر السعدي قوله تعالى:"﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم فيها ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض، تبنون، وتغرسون، وتزرعون، وتحرثون ما شئتم، وتنتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها، فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك، فلا تشركوا به في عبادته. ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما صدر منكم، من الكفر، والشرك، والمعاصي، وأقلعوا عنها، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح، والإنابة، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ أي: قريب ممن دعاه دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، يجيبه بإعطائه سؤله، وقبول عبادته، وإثابته عليها، أجل الثواب"[2]، فتعمير الأرض هو بأمر الله تعالى حيث تجلى في خلقه للعامر لها وهو الإنسان، وبحكم الخلافة، وتحمل الإنسان حمل الأمانة؛ والتعمير يكون بما هو صالح للإنسان وغيره من المخلوقات، فلا يكون العمل إلا بما يرضي الله تعالى، ولا يفسد في الأرض لأنه منافٍ لمبدأ الاستخلاف.

الاستخلاف = عبادة + عمارة

1- سورة هود: 61.

2- السعدي، تيسير الكريم الرحمن، مصدر سابق، 1/ 384.

وعمارة الأرض واجب كل مخلوق عاقل، مأمور بتأدية مهامه الأرضية، والاستخلافية، سواء أكان من الأنبياء عليهم السلام أم من غيرهم، ومن الممكن أن نعدد ثلاث مراحل لعمارة الأرض؛ العمارة الأولى هي عمارة آدم عليه السلام، على أساس أنه أول نبي مرسل، والعمارة الثانية عمارة النبي صلى الله عليه وسلم، والعمارة الثالثة هي العمارة الأمة الإسلامية ما بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة.

الفرع الأول: عمارة آدم عليه السلام

أنزل الله تعالى آدم عليه السلام إلى الأرض؛ حيث كانت خلافته عليه السلام؛ فأصبح سيدا ملكا ومالكا لكل ما تحويه هذه الأرض من خيرات ظاهرة وباطنة، يستغلها متى يشاء، وكيف ما شاء، بما أودعه الله تعالى في خلقته، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾[1]، فالآية الكريمة عينَّت وحدَّدت أين سيكون مستقر آدم عليه السلام وذريته من بعده، وهي الأرض؛ ويفسر ابن كثير قوله تعالى:" ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ أي: قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل، ... وليس المراد هاهنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط "[2]، هذه الأرض هي ساحة العمل والتعمير، والإصلاح المطالب به الإنسان، ويكون هذا الإصلاح

1- سورة البقرة: 30
2- ابن كثير، تفسير ابن كثير، مصدر سابق، 1/ 216 .

بالزراعة والصناعة، والبناء،...، ولقد مهَّد الله تعالى الأرض لآدم عليه السلام وبنيه بما يليق للعيش والتلاؤم مع طبيعة خلقه.

فآدم عليه السلام مطالب وبنيه بعمارة الأرض كما أمر الله تعالى، وبما شرَّع؛ والعمارة من "(عمر) العين والميم والراء أصلان صحيحان، أحدهما يدلُّ على بقاءٍ وامتداد زمان، والآخر على شيءٍ يعلو، من صوتٍ أو غيره. فالأوّل العُمْر وهو الحياة، وهو العَمْر أيضاً..... ويقال: عَمِر الناسُ: طالت أعمارُهم. وعَمَّرهم الله جلّ ثناؤه تعميراً. ومن الباب عِمارة الأرض، يقال عَمَر الناسُ الأرضَ عِمارةً، وهم يَعْمُرونها، وهي عامرة معمورةٌ. وقولهم: عامرة، محمولٌ على عَمَرتِ الأرضُ، والمعمورة من عُمِرت. والاسم والمصدر العُمْران: واستَعمر الله تعالى الناسَ في الأرض ليعمُروها. والباب كلُّه يؤول إلى هذا."[1] .فالعمارة هي زمن وعمر وجود الإنسان في هذه الأرض، وهو مأمور باستغلال وظيفته الاستخلافية، وتحمُّل أمانته التي قَبِل حملها، ومسؤول عن عمارتها بكل ما هو صالح ومفيد لبني الإنسان، ومأمور أيضا بأن يبتعد عن كل فساد يلحق بالناس، أو يتسبب في خراب الأرض التي يعيش فيها .

ويذكر الأصفهاني إن: " العمارة: نقيض الخراب، يقال عَمَّر أرضه يعمرها، واستعمرته إذا فوضت إليه العمارة"[2]. فالإنسان مأمور بعمارة الأرض كونه مستخلفا، فإذا ما أخل ببند من بنود استخلافه فَقَدْ أَسَّسَ للخراب في مسكنه ومأواه.

إن المكان الذي سكنه آدم عليه السلام فيه كل ما تطلبه النفس وتشتهيه، مكان صالح للعيش بكل الشروط الإنسانية والكونية، لذلك وصفها الله تعالى بالجنة، قال عزوجل: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ

1- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 4/ 140- 141 .مادة (عمر) .
2- الأصفهاني: الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي، لبنان، 1972م. ص:359.

وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ. قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ. قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[1]، فهذه الجنة أو الأرض التي سكنها آدم عليه السلام هي مبتدأ العمل ومهمة الاستخلاف والمسؤولية، ولابد أن تكون مسخرة له، وممهدة لما يناسب خلقته؛ لأن " الله هو الذي خلق الكون، وهو الذي خلق الإنسان. وقد اقتضت مشيئته وحكمته أن يجعل طبيعة هذا الكون بحيث تسمح بنشأة هذا الإنسان، وأودع الإنسان من الاستعدادات ما يسمح له بالتعرف إلى بعض نواميس الكون واستخدامها في حاجته ... وهذا التناسق الملحوظ هو الجدير بصنعة الله الذي أحسن كل شيء خلقه . ولم يجعل خلائقه متعاكسة متعادية متدابرة !"[2]. فالكون وكل المخلوقات سخرها الله تعالى للإنسان، وخلق الإنسان باستعدادات فطرية تتلاءم والكون، وأخرى مكتسبة بحسب ما تقوم به حياته، وما يحتاجه للعيش على هذه الأرض.

إن تنوع المباحات وكثرة الخيرات في جنة آدم عليه السلام له ولزوجه، إنما كان ذلك ليستقيم عيشه، ويسعد ويهنأ، لحمل مسؤولية أداء الرسالة؛ وجعل تعالى له حدا في التعامل مع هذا الكون لا

1- سورة الأعراف:19-25.

2- سيد قطب، الظلال، مصدر سابق، 3/ 1263.

يتعداه، وهذا الحد – الذي هو الحرام – الذي سينظم العلاقات البشرية، والكونية، فقد " أذن الله لهما بالمتاع الحلال، ووصاهما بالامتناع عن المحظور . ولا بد من محظور يتعلم منه هذا الجنس أن يقف عند حد؛ وأن يدرب المركوز في طبعه من الإرادة التي يضبط بها رغباته وشهواته؛ ويستعلي بها على هذه الرغبات والشهوات، فيظل حاكماً لها لا محكوماً بها كالحيوان، فهذه هي خاصية «الإنسان» التي يفترق بها عن الحيوان، ويتحقق بها فيه معنى «الإنسان» "[1]. فالحدود تنظم حياة الإنسان، وتجعله حقيقا بهذه المنزلة، التي ميزه الله تعالى بها عن باقي المخلوقات، فالحدود آلية تحقيق وظيفة الاستخلاف؛ التي تُثبِّت معنى الإعمار، وتلغي معنى الفساد والإفساد.

وعد الله تعالى ءادم عليه السلام أن يعيش في الجنة عيشا كريما رغيدا – وذريته من بعده- إن هو أطاعه وانتهى عن الإتيان عما نهاه عنه – الشجرة والتي تمثل الحرام – إلا أن الفطرة والعدو الأبدي، وفي لحظة من النسيان، انتصر الشيطان عليه، وضيق عليه سبل التذكر ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾[2]، هذا النعيم الذي كان فيه ءادم عليه السلام وزوجه خرج منه بفعل التعدي على شيء لا يملكه ونُهي عن الاقتراب منه، أخرجه من سيكون عدوه بوسوسته، فكان الفعل، وكان الجزاء، ثم كانت التوبة ﴿**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى.**

1- سيد قطب، الظلال، مصدر سابق، 1268/3 .

2- سورة البقرة:35-37 .

وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى. فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى. فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى. قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ﴾[1]، فكانت الأرض مخبرا للهدي الرباني؛ الذي يسير به المؤمن ويتبعه اتباعا للرسل المبعوثين من عند الله تعالى برسالة الهدى، وهذا ما أُمر به. والغواية الشيطانية الطرف الآخر في حياة المؤمن الذي يسعى الشيطان إلى تبديله وتغييره عن المسار الرباني، فإن غَيَّر وبدَّل كان الضلال والشقاء.

الفرع الثاني: العمارة النبوية

اختير النبي صلى الله عليه وسلم من بين الناس جميعا ليكون رسولا مبلغا عن الله تعالى، لما ميزه الله تعالى به من صفات انفرد بها عن سائر البشر، من قبل ولادته إلى أن تحمل أداء الرسالة، إلى آخر عمره صلى الله عليه وسلم.

لم يكن تبليغ رسالة الإسلام للناس بالأمر السهل، ولا الاستجابة بالأمر السريع، فقد لاقى النبي صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لا تطيقه الجبال، فتحمله النبي عليه الصلاة والسلام من أجل عظم ما سيخبر به الناس، ومعاناته بدأت من أول أمر بالجهر بالدعوة ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ. وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ. وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَإِنْ

1- سورة طه: 117- 123 .

عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ . وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾[1]، "أسلوب تهييج وإلهاب فالخطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) بطريقة التهييج لزيادة إخلاصه وتقواه"[2]، فمكة كانت مهد الرسالة وخط انطلاقة للدعوة إلى الله تعالى، لتأسيس نواة لإعمار الأرض وتكوين الدولة، والذي سيكون منطلقها وعاصمتها المدينة المنورة .

إن القرآن عندما يعرض للإيمان وموجباته فإنه يربطه دائما بالعمل الصالح، وهو ما يحقق النفس السوية والمؤمنة، لأن "كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع، والعمل الصالح (وهما الهدى، ودين الحق)، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[3]، أقسم سبحانه أن كل إنسان خاسر إلا من كَمَّل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه – فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما–"[4]، ويبقى الإنسان في مجال زمن وجوده في هذا الكون مأمورا بأن يتواصى بتمكين هذا الدين، والصبر على ذلك، بشرطي الإيمان والعمل الصالح، وإلا فهو من الخاسرين، وهو ما تربى عليه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، الرعيل الذهبي، والجيل النموذج.

1- سورة الشعراء:213-217 .
2- محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط 1، 1423هـ/ 2002 م، ص:216 .
3- سورة العصر: 1-3.
4- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين"، تحقيق: رضوان جامع رضوان، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 1422هـ/ 2001 م، ص:20 .

إن المثالية الواقعية التي كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يعيشونها إنما هي من نفحات القرآن وتعاليمه، ومن هديه صلى الله عليه وسلم. والصحابة عملوا بما علموه من أحكام، وأخلاق، وفضائل، وآداب القرآن الكريم فكان عيشهم بالقرآن وللقرآن؛ وهذا ما كان يقوم به رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صحابته يرشدهم إلى العلم ليتعلموا ويتعبدوا بما علموه، فعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**"[1].

يذُكِّر الله تعالى الصحابة بحالهم يوم كانوا بمكة، وأُمروا أن يشكروه على نعمة الهجرة، وعلى نعمة المكان الذي هاجروا إليه – المدينة المنورة–، فقال تعالى: ﴿**وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[2]. وقد جاء في تفسير الآية الكريمة: "﴿**وَاذْكُرُواْ**﴾ وذكر المفعول به فقال: ﴿**إِذْ أَنتُمْ**﴾ أي في أوائل الإسلام ﴿**قَلِيلٌ**﴾ أي عددكم. ولما كان وجود مطلق الاستضعاف دالا على غاية الضعف بني للمفعول قوله ﴿**مُّسْتَضْعَفُونَ**﴾ أي لا منفذ عندكم ﴿**فِي الأَرْضِ**﴾ أطلقها والمراد مكة، لأنها لعظمها كأنها هي الأرض كلها، ولأن حالهم كان في بقية البلاد كحالهم فيها أو قريبا من ذلك، ولذلك

1- أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب: فضل من عَلِم وعَلَّم، 42/1.

2- سورة الأنفال: 26 .

عبر بالناس في قوله ﴿تَخَافُونَ﴾ أي في حال اجتماعكم فكيف عند الانفراد،... وفي ذلك إشارة إلى أنهم لما كانوا في تلك الحالة التي هي في غاية الضعف، وكانت كلمتهم مجتمعة على أمر الله الذي هو توحيده وطاعة رسوله، أعقبهم الإيواء في دار منيعة، وقد أيدهم بالنصر، وأحسن رزقهم"[1]، فهذا الجيل الخيّر الذي تربى على يد أعظم رجل، سيكونون عظاما من بعده في اتباع سنته، ولقد شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخيرية فقال: " **خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الذينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الذينَ يَلُونَهُمْ، – قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثا – ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدونَ ولا يُسْتَشْهَدُونَ، ويخوَّنُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ، وينذُرون ولا يفون، ويَظْهَرُ فِيهِمْ السِّمَن**[2]"[3]، فالخير ينقص بمرور الزمن، والابتعاد عن القرن الخيّر، "وقد دلت أحداث الهجرة على سلامة التربية المحمدية للصحابة رضوان الله عليهم، فقد صاروا مؤهلين للاستخلاف في الأرض وتحكيم شرع الله والقيام بأمره، والجهاد في سبيله، وهم يقبلون على بناء دولة المدينة المنورة بعد أن كانوا مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس."[4]. هذا الجيل الرباني الذي يعتبر مثالا لأجيال الأمة فيما بعد، الذي صُنع على يد وتحت عين الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم سيكون الجيل القدوة، والنواة الصافية، والمثال التطبيقي لتمكين هذا الدين.

1- البقاعي، نظم الدرر، مصدر سابق، 8/259-260 .
2- السمن: السين والميم والنون أصل يدل على خلاف الضُمْر والهزال. من ذلك السِّمَن، يقال هو سمين. والسَّمْن من هذا. ينظر: ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، د ط، 1399هـ/1979م، 3/97 .مادة (سمن).
3- أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ومن صحب النبي أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه، 3/5.
4- العمري: أكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، د ط، د ت، 1/ 235 .

كانت المدينة المنورة مبعث الأمة ومهدها الجديد؛ حيث وضع النبي صلى الله عليه وسلم أسسها فكانت عاصمة الدولة الاسلامية. في هذه المدينة المنورة المنارة أنبعثت أنوار الرسالة، ومنهاج امتلاك الأرض بما أمر الله تعالى، فلقد كانت أسس الدولة أسسا عالمية تتعدى حدود المدينة، وتجاوز مجموع الصحابة من المهاجرين والأنصار.

كان البناء مؤسسا على بناء اللحمة التي لا تنقطع بين المسلمين، متمثلة في قانون الأخوة، ثم بناء لحمة اتحاد المسلمين وتمثل ذلك في اختيار مكان التجمع للعبادة، والتخطيط، والتسيير، والمتمثل في قانون وحدة نظام الدولة (المسجد)، ثم وضع دستور لتسيير هذه الدولة؛ الذي يضمن كل الحقوق، ويلزم بأداء كل الواجبات.

لقد تضمنت الرسالة المحمدية مبادئ أساسية يسير عليها الفرد، والمجتمع، والأمة فكانت "وظيفة الرسالة الخاتمة:

1- تلاوة الوحي، أو قراءة المنهاج الذي يسير عليه المسلمون أو تحديد النطاق الذي يعملون داخله.

2- تربية الأمة بتنمية ملكاتها الطيبة وكبح غرائزها الجامحة.

3- تقرير الأحكام التفصيلية التي جاء بها الكتاب نظاما للفرد والمجتمع والدولة، وهي أحكام مقرونة بالحكمة والسداد."[1]، فهذه الأحكام والبنود التي يجب أن يسير عليها الفرد، والمجتمع، والأمة لتكون عمارة الأرض والتمكين على أسس ربانية ونبوية متينة، وهو الهدف من الاستخلاف.

1- الغزالي: محمد، السنة النبوية بين أهل الفقه..وأهل الحديث، دار الشروق، ط3، 1989م، ص: 105-106.

ولما كانت هذه الأمة الجديدة القائدة، فتية كان لابد لها من حماية، وذود عن الحمى فكانت مشروعية القتال والجهاد في سبيل الله تعالى لحمايتها، قال تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾[1]، إن الله تعالى لا يحب الظلم، فلما وقع على المؤمنين الظلم في بداية الإسلام، وتنوع العذاب، أذن لهم الله تعالى بالقتال حماية لأنفسهم ودينهم مما سُلّط عليهم من الكفار والمشركين، ووعدهم بالنصر ماداموا ثابتين على منهج الله تعالى وداعين لدينه، وتمكينهم في الأرض لإقامة شعائر الله تعالى.

الفرع الثالث: العمارة الأممية (أمة النبي صلى الله عليه وسلم)

كانت مكة المرحلة الاستضعافية للمؤمنين؛ حيث كانوا لا يملكون القوة والقدرة الكافية للدفاع عن أنفسهم ودينهم، ثم اجتازوا المرحلة بالصبر والانتظار، حتى أصبحوا في المدينة المنورة ممكنين مستخلفين، لهم القدرة على تطبيق دينهم، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ**﴾[2]، "والمَمكَّن هو الذي يحتل المكان بدون زحزحة؛ .. وقد مكننا سبحانه في الأرض وجعل فيها وسائل استبقاء الحياة، وترف الحياة، وزينة الحياة، ورياش الحياة، ولم تبخل الأرض حين حرثناها،.. ولم نمكّن في الأرض بقدراتنا بل بقدرة الله .... فأنت ممكن، وكل شيء مستجيب

1- سورة الحج:39-42.

2- سورة الأعراف:10.

لك، بتسخير الله له."[1]. فلابد للإنسان أن يكون دائم الشكر لله تعالى، مستحضرا لنعمه، ويكفي أن يكون هذا الكون بعظمه، وتنوع خيراته بيد الإنسان يستغله كيف يشاء، ويسيره على النحو الذي يحقق مصالحه، "إن «الإنسان» هو ابن هذه الأرض؛ وهو ابن هذا الكون. لقد أنشأه الله من هذه الأرض، ومكنه فيها، وجعل له فيها أرزاقاً ومعايش، ويسر له المعرفة التي تسلمه مفاتيحها؛ وجعل نواميسها موافقة لوجود هذا الإنسان، تساعده -حين يتعرف إليها على بصيرة- وتيسر حياته"[2]، فالكون والإنسان خلق متناغم، ومتناسق، والإنسان مالك لزمام تسيير مقاليد هذا الكون. ومسؤول عن استمرار هذا التناسق والتناغم بما كلَّفه الله تعالى من خلال تتبع المنهج الذي أمره باتباعه، وهو المنهج الرباني.

ربط الله تعالى الاستخلاف والتمكين بالإيمان والعمل الصالح، فهما شرطاه، وعلى أساسهما كان وعده تعالى للإنسان بالاستخلاف والتمكين، فإذا غاب شرط لا يكون استخلاف، ولن يكون تمكين، قال تعالى: ﴿ **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ. وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾[3]، هكذا

1- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 4053/7 .

2- سيد قطب، الظلال، مصدر سابق، 3/ 194 .

3- سورة النور:54- 56 .

تمكّن الصحابة رضوان الله عليهم تحت القيادة النبوية الرشيدة من إرساء قواعد الدين، في بيئة جديدة كانت مؤهلة لاستقبالهم، وكانوا هم مؤهلين لعمارتها، وتحقق وعد الله تعالى"﴿**لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾ أي ليجعل خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم أو خلفاء من الذين كانوا يخافون من الكفرة بأن ينصرهم عليهم ويورثهم أرضهم"[1]، فالصحابة فهموا وفقهوا معنى العبادة، والعمل الصالح، تحت ظل طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

إن الاستخلاف والتمكين وقع في الآية الكريمة بين مجالين أوله طاعة الله ورسوله، ومجال ثان هو طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم. فالإنسان بين هذين المجالين إذا تحرك بينهما يحفظانه من كل زيغ، أو انحراف، فيؤدي مهمة العبادة والعمارة بكل راحة وأمان. وثقة تامة بأنه على الطريق المستقيم.

إن وظيفة الإنسان في الأرض وظيفة سامية، و"ما خلق الإنس إلا ليعبدوا، وقد جعلهم عزوجل خلفاء في الأرض، لأن "العبادة" ليست صلاة فقط، أو أداء لشعائر فحسب.. العبادة هي استثمار الحياة باتجاه معين، وأداء الشعائر لن يخرج عن العبادة طبعا، لكنه لن يكون كلها بهذا المعنى، فإن الخلافة والعبادة هما صنوان، مترادفان، فالعبادة هي خلافة عندما تفهم بأنها إثمار وإعمار للحياة.. والخلافة في الأرض هي عبادة أيضا ما دامت "خلافة" مشروطة بالإيمان والعمل الصالح"[2]. فالخلافة مشروطة بالإيمان والعمل الصالح.

1- الآلوسي، روح المعاني، مصدر سابق، 18/ 203.

2- العمري: أحمد خيري، البوصلة القرآنية، دار الفكر، دمشق، ط 5، 1432هـ / 2011 م، ص:290.

عندما انقطع التواصل بين السماء والأرض بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم، لم ينقطع العمل بالكتاب الذي أُنزل عليه صلى الله عليه وسلم؛ فالخلفاء الراشدون كانوا خير الخلف في ذلك؛ فكانت الأمة في ذلك مجتمعة ماداموا قائمين على تطبيق ما جاء به القرآن الكريم، وما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أن الاستقرار لم يدم على الأمة فبدأت شوكتها في الانفصام، وبدأ الوضع يهوي بها، بعد أن انفصمت عرى التواصل بين أفراد الأمة وبين قوانين القرآن؛ فكانت الدنيا وملذاتها الحبل الذي جذب حكام الأمة، ففسدوا وأفسدوا، وضيعوا لقب التحضر والتطور والسيادة للأمة، وهو ما حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم:"**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**"[1]. فالإنسان مطالب بأن تكون الدنيا في يده يستغلها لخدمة دينه، وليس لخدمة مصالحه، والاستمتاع بها استمتاعا تاما ينسى معها وظيفته الاستخلافية، "فعبادة الدنيا أهلكت الأولين والآخرين، وأنها من وراء جرائم مذهلة يقترفها الخاصة قبل العامة. والرؤساء قبل الأتباع والأذكياء قبل الأغبياء، ولكن العلاج الصحيح للداء العضال يكون بالتمكن من الدنيا والاستكبار على دناياها.."[2]، فمتاع الدنيا لا يرحم أحدا مهما تنوعت مناصبه، أو اختلفت مذاهبه، فالكل سواء تجاه زخرفها وزينتها، فلن يسلم منها أحد تغلب عليه هواه، وأغواه شيطانه.

إن هذا التدهور والتراجع الحضاري، والمعرفي، والاجتماعي،.. وقبل ذلك التدهور على المستوى الروحي لأفراد الأمة، -سواء العامة، أم الحكام-؛ هو أن الأمة انتكاستها في بعدها وهجرها للقرآن

1- **أخرجه** مسلم، كتاب الرقاق، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، 8/ 89 .

2- الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، مرجع سابق، ص:114 .ينظر: زياد عواد أبو حماد، الإعجاز التأثيري في القرآن الكريم، مجلة جامعة دمشق، المجلد الثامن عشر، العدد الأول، 2002 م، ص: 370- 374 .

وتعاليمه من الأوامر والنواهي، والسنة النبوية وهديها. " إن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته، والتصرف تحت أمره ونهيه، ولا قوام للشريعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيما وهو الملك"[1]. فلابد للأمة أن تقيم العدل بين أفرادها، وأن تأمر به، وتسعى إلى تحقيقه؛ لأنه أساس قيام الدول والأمم.

إن الأمة الإسلامية اليوم غير مدركة لوضعها في العالم، فهي إلى انحطاط وتأخر غير مسبوق، "والمسلمون في هذا العصر يكادون يجهلون أن لهم رسالة عالمية، بل إن حياتهم وفق شرائع دينهم وشعائره موضع ريبة وقد تكون موضع مساومة !"[2]، فقد قال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾[3]، فالمسلمون مأمورون بأن ينهضوا ويلحقوا بالركب الحضاري، والعلمي، فهم الذين وصفهم الله تعالى بالخيرية، والوسطية، ولن تتحقق هذه الصفات إلا بتحقق الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[4].

إن عمارة المسلمين لميراث الأرض يتحقق بالانشغال بالنفس وما يقويها، إذ أن " البناء الحقيقي للنفوس يستهدف أمرين جليلين.. أولهما إسلامي بحيث يحرك المسلم من يقظة الفجر إلى هدأة الليل

1- ابن خلدون: عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر المشهور بالمقدمة، دار الفكر، بيروت، لبنان، د ط، 1421هـ/ 2001م، 51/1.

2- محمد الغزالي، عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، العدد 150، جمادى الآخرة 1397 هـ/ديسمبر 1977 م، ص: 384 .

3- سورة آل عمران: 110 .

4- سورة آل عمران: 104 .

بحماس العقيدة، وطهر الصلاة، وشرف الإخلاص، وحب الله ورسوله. والأمر الآخر حيوي بحت، أساسه التفوق العلمي والعملي في كل أفق امتدت إليه الحضارة الحديثة من استصلاح التربة إلى غزو الفضاء !"[1] .

إن الدنيا للمسلم والآخرة له أيضا؛ فلا يجب أن يزهد فيها ويدعي أن ذلك يقربه إلى الله تعالى، بل بالعكس لابد أن يعمل فيها فهو أولى بها من أي أحد آخر، فالدنيا مطية للآخرة " املك أكثر مما ملك قارون من المال، وسيطر على أوسع مما بلغه سليمان من سلطات، واجعل ذلك في يدك، لتدعم به الحق حين يحتاج الحق إلى دعم، وتتركه لله في ساعة فداء حين تحين المنية !! أما أن تعيش صعلوكا، حاسبا أن الصعلكة طريق الجنة فهذا جنون وفتون. إذا كان الإلحاد يفرض سلطانه بالتمكين في الأرض، فإن انصرافك عن التمكن من الأرض فاحشة أشد من الزنا والربا.."[2] .

إن الحديث المشهور الذي يحدد مسؤوليات أفراد المجتمع، والذي لا يغيب عن ذهن كل واحد منَّا كلما ذُكرت المسؤولية، والذي رواه عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم:"**كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**"[3]، فهذا الحديث يبين مسؤولية كل فرد يجب أن نتجاوز فهم الحديث من محدودية المسؤولية، وأن مسؤولية الأمة على عاتق الحاكم فقط؛ بل يجب أن

1- محمد الغزالي، النهوض الحقيقي لأمتنا، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 108، ذو الحجة 1393 هـ/ ديسمبر 1973 م، ص:331 .

2- الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه.. وأهل الحديث، مرجع سابق، ص: 114.

3- سبق تخريجه، ص:10 .

يفكر كل فرد في الأمة انطلاقا من مسؤوليته الخاصة، فيكون التكامل والتآزر، والاتحاد. يجب أن يرقى الفهم إلى فهم حضاري تغييري، إلى مسؤولية الإعمار وتحقيق وظيفة الاستخلاف. بهذا تكون الأمة في مقدمة الركب، وظاهرة على باقي الأمم، كما كانت من قبل في عهده صلى الله عليه وسلم، وعهد صحابته رضوان الله عليهم.

فالمسلم مأمور بإعمار الأرض وعدم الإفساد فيها؛ لأنها ملكه، ومسؤول عنها، وسهّل الله تعالى له استغلال خيراتها، قال تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾[1]، " فإن أصل الفطرة التي فطر الناس عليها إذا سلمت من الفساد إذا رأت الحق اتبعته وأحبته. إذ الحق نوعان: حق موجود فالواجب معرفته والصدق في الإخبار عنه، وضد ذلك الجهل والكذب. وحق مقصود وهو النافع للإنسان، فالواجب إرادته والعمل به، وضد ذلك إرادة الباطل واتباعه."[2] ، فالحق يجب أن يكون هدف المسلم في تحقيق أهدافه، المربوطة بالكتاب والسنة، فهدف المسلم في الأول والأخير الآخرة، وإنما الدنيا مزرعتها، فلا يفسدها، ولا يتركها قاحلة، ليس فيها ما ينفع نفسه، ولا غيره. فلا يفوته أبدا أنه موقوف أمام الله تعالى ليسأل عن كل ما كان منه في الدنيا، قال تعالى: ﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ**﴾[3].

إن السبيل الوحيد في عمارة أمة النبي صلى الله عليه وسلم هذه الأرض، واسترجاع المجد الأول، الذي كان في عهده صلى الله عليه وسلم وعهد صحابته، لابد من التمسك بما جاء به الرسول عليه

1- سورة القصص: 77.

2- ابن تيمية، تقي الدين، التفسير الكبير، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د، ط، ت، 5/ 195 .

3- سورة الصافات:24 .

الصلاة والسلام، ولا يوجد غيره، قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (1)، فالله تعالى وصفه بأنه الطريق المستقيم، فمن حاد عنه — وهو يعلم علم اليقين أنه الطريق المستقيم والمرتضى- فهو من الضالين المضلين.

إن رسالة الإسلام رسالة عالمية، مكلف بتبليغها المسلم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (2)، "إن إعادة الحياة إلى العقيدة الإسلامية لتحتل مكانها في الضمير ثم إلى الشريعة لترسم خط السير في المجتمع الكبير، هي وحدها طريق النهوض الصحيح "(3)، فالعقيدة والشريعة كفتا ميزان حياة الإنسان، لابد من توازنهما ليكون السير إلى المستقبل سليما وفي طريق صحيح.

إن أمام المسلم اليوم مهمة عظيمة جدا، إن على المستوى العلمي أو العملي، وهو البديل الأهم والأساس في هذه الفترة الحالية، وخلال المستقبل هو صناعة جيل مسلم حضاري، متأقلم مع العالم كله ليعيد للأمة هيبتها ومكانتها بين الدول، و" أن بناء النفوس والضمائر يسبق بناء المصانع والجيوش، وهذا البناء لا يتم إلا وفق تعاليم الإسلام .. تنشئة تصوغ الأجيال الجديدة، وتقاليد تحكم العلاقات السائدة، ورعاية ظاهرة وباطنة للعبادات المفروضة، ومعالنة جازمة بما في الدين من أهداف، ومقاطعة

1- سورة الزخرف: 43-44 .

2- سورة النساء: 1 .

3- محمد الغزالي، مقال النهوض الحقيقي لأمتنا، ص:335 .

حاسمة لما يعترضه من مسالك"[1]، فالاهتمام لابد وأن يكون بالنفوس قبل الأبدان، وبالروح قبل الجسد، ثم يكون التوازن، مع مراعاة الأحكام في سلوكات المسلم، لأنه أدعى للحكم عليه.

يجب أن يعيد كل مسلم مجموعة من الأسئلة ويطرحها على نفسه، لتكون نهضته ودعوته على أساس صحيح، وفقهه للذات والواقع على بينة ونور وفهم، وهذه الأسئلة: من أنا؟، لماذا خلقت؟، ما هو الإسلام؟، ماذا يحوي هذا الدين لنا وللبشرية؟، ما هدفي في هذه الحياة؟.. قد تكون هذه من أهم الأسئلة التي يجب أن تكون في مقدمة قاموس حياة كل مسلم، ليؤدي وظيفته الاستخلافية، وعمارته لها نتيجته اللازمة، كما أمره الله تعالى، وكما جاءت به السنة النبوية المطهرة. فهو مسؤول على نفسه، وأهله، والكون، والناس أجمعين في الدنيا، فكيف تكون الإجابة يوم الآخرة؟؟.

من خلال ما سبق نخلص إلى النتائج التالية:

- الأسس الاستخلافية للمسؤولية فتمحورت في: التكريم الإلهي في خلق الإنسان، وتمثل في المسؤولية التشريفية في مشهد السماء، والتأهيلية في مشهد الجنة، ثم التكليفية في مشهد الأرض.

- العمارة في الأرض تضمنت عمارة آدم عليه السلام، العمارة النبوية، العمارة الأممية.

- أما مراتب المسؤولية فتلخصت في: مرتبة الإيمان، ومرتبة الإسلام، ومرتبة الإحسان.

-المسؤولية الاجتماعية تضمنت، البعد الثقافي، والاجتماعي، والإنساني للمسؤولية.

1- محمد الغزالي، مقال النهوض الحقيقي لأمتنا، ص:330-331.

المبحث الثاني: مراتب المسؤولية

المطلب الأول: المسؤولية التعبدية

المطلب الثاني: المسؤولية الاجتماعية

المطلب الأول: مراتب المسؤولية التعبدية

إن أول ما أخذ الله تعالى على خلقه يوم خلقهم ميثاق العبادة، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، قال تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾**[1]، وهذا الميثاق يضمن بنودا لا يمكن أن يقوم إلا بها جميعا، وبنوده: الإيمان، والإسلام، والإحسان.

الفرع الأول: مرتبة الإيمان (البعد الإيماني للمسؤولية)

منذ أن أخذ الله تعالى الميثاق على الإنسان بعبادته تعالى، أثبت الإنسان لنفسه تحمل هذه المسؤولية، وألزمها تطبيق أحكامه، وتعتبر مرتبة الإيمان أعلى مرتبة يتقلدها الإنسان في دنياه وأخراه، وما أشرفها من مرتبة. قال الله تعالى: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾**[2]. فعبادة الله تعالى رسالة كل الأنبياء والرسل إلى أقوامهم، "والعبادة معناها التزام بأمر فيُفعل ويُنهى عن أمر فلا يُفعل؛ ...فهنا أُمر بالعبادة ونَهي عن الطاغوت، وهذا يُسمونه تخلية وتحلية: التحلية في أنْ تعبدَ الله، والتخلية في أنْ تبتعدَ عن الشيطان. وعلى هذين العنصرين تُبنى قضية الإيمان حيث نَفي في: "أشهد أن لا إله"..وإثبات في "إلا الله"، وكأن الناطق بالشهادة ينفي التعدُّد ويُثبت الوحدانية لله تعالى، وبهذا تكون قد خلَّيتَ نفسك عن الشرك، وحلَّيتَ نفسك بالوحدانية. ولذلك سيكون الجزاء عليها في

1- سورة الأعراف: 172 .
2- سورة النحل: 36 .

الآخرة من جنس هذه التحلية والتخلية"[3]، فهذه التحلية النورانية بمنهج الله تعالى تجعل المؤمن في أمان وإيمان، يسير على الطريق المستقيم ولا يخشى الزلل والانحراف أبدا .

بَيَّن النبي صلَّى اللَّه عليه وسلَّم الإيمان بعد سؤال جبريل عليه السلام له عنه، فَعَنْ أَبِي هريرة قال: كَانَ النَّبِيُّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم بارِزًا يوما للناس فأتاه جبريل فقال: **"مَا الْإِيمَانُ؟. قَالَ: الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ"**[4]، فهذه الأركان التي يتم بها كمال إيمان المؤمن، ولن يتم الكمال إلا بجميعها؛ فإذا نقص ركن كان الإيمان ناقصا .

جعل الله تعالى البر هو الإيمان به تعالى، وباليوم الأخر، والملائكة، والكتاب والنبيين، قال تعالى: ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ**﴾[5]؛ إن الله تعالى بين حقيقة البر؛ وأنه ليس في تولية الوجوه قِبَل الجهات، ولكنه "أخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمسة التي لا قوام للإيمان إلا بها، وأنها الشرائع الظاهرة: من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنفقات الواجبة، وأنها الأعمال القلبية التي هي حقائقه: من الصبر والوفاء بالعهد، فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين حقائقه وشرائعه، والأعمال المتعلقة بالجوارح، والقلب، وأصول الإيمان الخمسة."[6]، فالإيمان بما فرضه الله تعالى على الإنسان ينبثق عنه أحكام عملية كالصلاة، والزكاة،...

3- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 7917/13 .

4- رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، 27/1 . ومسلم، كتاب الإيمان، باب: الإيمان ما هو وبيان خصاله، 30/1 .

5- سورة البقرة: 177 .

6- ابن قيم الجوزية، الضوء المنير على التفسير، مصدر سابق، 306/1 .

وحقائق قلبية تقويه كالصبر، والوفاء بالعهد،....، فالإيمان تكامل بين الأعمال القلبية والأعمال التطبيقية.

إن الإيمان ليس فقط ما يصدق به القلب، وإنما لابد أن يكون ترجمانه ظاهر يثبت أو ينفي ما يصدق به، وذلك أن " قاعدة الإيمان له ظاهر وباطن؛ وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته فلا ينفع ظاهر لا باطن له وإن حقن به الدماء، وعصم به المال والذرية، ولا يجزئ باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذر بعجز، أو إكراه وخوف هلاك، فتخلف العمل ظاهرا مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان، ونقصه دليل نقصه، وقوته دليل قوته، فالإيمان قلب الإسلام ولبه، واليقين قلب الإيمان ولبه، وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين قوة فمدخول، وكل إيمان لا يبعث على العمل فمدخول"[7]؛ فالإيمان الحقيقي هو ما كان علم اليقين بالقلب، وعين اليقين بالعمل، فهما متكاملان، لا ينفك أحدهما عن الأخر، وإذا نقص واحد منهما فالإيمان ناقص لابد للمؤمن أن يتدارك النقص ويتممه.

إن تكامل الإيمان والعمل بموجبه، وفقه المؤمن بذلك، والاجتهاد في تمثل الإيمان في أعماله وسلوكاته، لأن الأعمال سَتُرفع، وعلى أساسها يكون جزاء، "والمقصود أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفا بمعناها وحقيقتها نفيا وإثباتا متصفا بموجبها قائما قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه، وفروعها

7- ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1393هـ/ 1973م، 1 / 85- 86 .

متصلة بالسماء، وهي مخرجة لثمرتها كل وقت"[8]، فالإيمان شجرة راسخة الجذور في قلب المؤمن، والأعمال الصالحة في كل المستويات أغصانها وأوراقها التي تظل على الخلق بظلها، وعبقها، وثمارها.

ففي الحديث النبوي الشريف يبين النبي صلى الله عليه وسلم أن للإيمان شعاب كثيرة كلها مرتبطة بالعمل، فعن أَبِي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**"[9]، إن الحديث النبوي الشريف يبين " أن كمال الإيمان بالأعمال وتمامه بالطاعات، وأن التزام الطاعات وضم هذه الشعب من جملة التصديق ودلائل عليه، وأنها خلق أهل التصديق ... وقد نبَّه صلى الله عليه وسلم على أن أفضلها التوحيد المتعين على كل أحد، والذي لا يصح شيء من الشعب إلا بعد صحته. وأدناها ما يتوقع ضرره بالمسلمين من إماطة الأذى عن طريقهم"[10]، فالإيمان أعلاه التوحيد، وأدناه فعل ما يجلب الأمان للمسلمين بنزع الأذى عن طريقهم، وهذا الفعل لا يصدر إلا ممن ثبت الإيمان في قلبه.

إن الإيمان أكبر وأعظم مسؤولية تقلدها الإنسان على وجه الأرض؛ وذلك بقبوله تحملها لما عُرضت عليه، فأمر تعالى الاستمساك بالدين وتعاليمه، لأنه النجاة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿**فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ**

8- ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ. 300/2 .

9- رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب: شعب الإيمان، 46/1 .

10- النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1392هـ، 2 / 4 .

تَسْأَلُونَ. وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[1]،

فمسؤولية كل من دخل دائرة الإيمان بالله تعالى عظيمة، بموجب إلزام القرآن، فهو مسؤول أمام الله تعالى يوم القيامة بما التزم بتطبيق تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، " ﴿ **وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ**﴾ عن حقه وأداء شكره. ﴿ **وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ**﴾ عن القرآن وعما يلزمكم من القيام بحقه. ومعنى الأمر بالسؤال التقرير لمشركي قريش أنه لم يأت رسول ولا كتاب بعبادة غير الله عز وجل."[2]، فعبادة الله تعالى مسؤولية الرسل في تبليغها، وأداء حقوقها مع الله تعالى، ومع عباده؛ لأنه مسؤول عنها يوم القيامة. ومن الرسل إلى المؤمنين جميعا مسؤولون عن أداء حق الإيمان.

الفرع الثاني: مرتبة الإسلام (البعد الإسلامي للمسؤولية)

مرتبة الإسلام هي المرتبة التي تجسد مرتبة الإيمان في الحياة الإنسانية؛ إذ هي الأحكام التكليفية لما جاء به الإيمان والقرآن الكريم صراحة بأن الدين المُرتضى والمُبتغى هو دين الإسلام، لقوله تعالى:﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴾[3]، وقوله سبحانه: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾[4]، وقوله:﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[5]، "فعلى هذا الإسلام معناه: إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى، وهو التبريء عن الشرك. وأصله أيضًا من السلامة؛ لأنه يعود إلى أن يُسْلِمَ دينَه

1- سورة الزخرف: 43-44-45 .
2- البغوي، معالم التنزيل، مصدر سابق، 7 / 215 – 216 .
3- سورة آل عمران: 19 .
4- سورة المائدة: 3 .
5- سورة آل عمران: 85 .

لله، حتى يكون الله ً ا من غير شريك."[1]، الآيات الكريمة تقرر أن الإسلام دين الإنسانية، والسنة النبوية تبين أركانه وقواعده عند سؤال جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام، فكان جواب النبي صلى الله عليه وسلم:"**الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ.**"[2]، وحديث آخر يبين أسس ودعائم الإسلام، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ** "[3]، فالأحكام التكليفية بُنيت على الإيمان، منطلقة منه.

إن أركان الإسلام هي الدعائم والأسس التي يقوم عليها، فهذه الدعائم العملية التي تجسد صدق الإيمان، وتعمقه في قلب المؤمن هي" فروض الإسلام وواجباته وأركانه وسننه ومستحباته: كلها مما يزكي النفس البشرية ويصقل جوهرها، بل كل فعل أو أمر أو سنة أو واجب له أثر كبير في تزكية النفس "[4]، فالمسلم الذي يلتزم بأحكام الإسلام يجد نفسه صافية مزكاة، ترتقي إلى أعالي المراتب.

إن الإسلام والإيمان متكاملان؛ لأن "(دين الإسلام) الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده، فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه... وأما الإيمان فأصله تصديق وإقرار ومعرفة. فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب، والأصل فيه

1- الواحدي، التفسير البسيط، مصدر سابق، 5 / 120 .
2- سبق تخريجه ، ص:10
3- أخرجه البخاري، كتاب كيف كان بدأ الوحي، باب: الإيمان وقول النبي صلى الله عليه وسلم بُني الإسلام على خمس وهو قول وفعل ويزيد وينقص، 1/ 11 .
4- ابن تيمية، تزكية النفس، تحقيق: محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، دار المسلم، الرياض، ط1، 1415 هـ- 1994م، ص:22 . ينظر: ابن باديس، العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، دار الفتح، الشارقة، ط1، 1416هـ- 1995م، ص:36 وما بعدها.

التصديق، والعمل تابع له، فلهذا فسر النبي صلى الله عليه وسلم (الإيمان) بإيمان القلب وبخضوعه، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وفسر "الإسلام" باستسلام مخصوص، وهو المباني الخمس."[1]، فالإيمان خضوع القلب لما أمر به الله تعالى الإيمان بهم؛ توحيد الله تعالى، وتصديق بالملائكة والكتب والرسل المرسلون. والإسلام تصديق الجوارح بما قرره القلب، وهي الدعائم الخمس للإسلام.

لقد َعيَّن الحديث الشريف دعائم الإسلام: في الصلاة، والزكاة، والحج، وصوم رمضان كلها تحت البند الرئيس والأساس وهو الشهادتين؛ التي تحمي القواعد من النقصان، أو الانحراف. وهذه الدعائم تضمن دوام العلاقة بين المسلم وبين الله تعالى، وبين المسلم وبين المسلمين، فالإسلام كله معاملة.

إن الإيمان الذي يُصدِّقه الإسلام بأحكامه العملية، مسؤول عنه المسلم يوم القيامة إذا ما خالف، قال تعالى:﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ. وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ**﴾[2]، فهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالإيمان، وعدم تطبيقهم شرائع الله تعالى، أمر تعالى أن "احبسوهم للسؤال وللحساب، وهذا السؤال سيكون فرديا ليس جماعيا، فكل واحد منهم سيُسأل وسيُناقش، قالوا: في السؤال تبكيت النفس للنفس قبل أن يُبكتهم الله الذي كفروا به، يعني: ساعة يعاينون لبعث وموقف الحساب يُبكّتون أنفسهم، ويندمون ساعة لا ينفع الندم"[3]، فالكفر بالإيمان كفر بالإسلام، وهذه مسؤولية عظيمة أن يُخرج

1- ابن تيمية: تقي الدين أحمد، مجموع الفتاوى، دار الوفاء، جمهورية مصر العربية، ط3، 1426هـ-2005م، 166/7 .
2- سورة الصافات: 22-23-24 .
3- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 20 / 12761 .

الإنسان نفسه من دائرته، ويسر على مخالفة قواعده. فهو مسؤول عنها يوم القيامة كونه خالف ما عاهد الله عليه يوم خلقه، فكان جزاؤه جهنم.

الفرع الثالث: مرتبة الإحسان (البعد الإحساني للمسؤولية)

مرتبة الإحسان مرتبة خاصة، رفيعة ومتميزة، يحاول المسلم الوصول إليها بالمجاهدة، وكثرة العبادات، والإحسان في المعاملات؛ لأن المسلم بهذا يبحث عن الجزاء الحسن، قال تعالى:﴿**هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**﴾[1]، فالجزاء بالإحسان لا يكون إلا إذا كانت الأعمال تامة كاملة خالصة لوجه الله تعالى، ويبحث المسلم في كل صغيرة وكبيرة ترضي الله تعالى عنه، سواء على المستوى الشخصي أم على المستوى الجماعي، "هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبيده، إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم المقيم، والعيش السليم"[2]، فهذا الجزاء بالإحسان التام والكامل مقابلٌ للإحسان في العبادة والعمل في أسمى وأدق مظاهرها.

ذكر الإحسان في القرآن الكريم، وذكر في السنة النبوية في سؤال جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم عن الإحسان، فكان جوابه عليه الصلاة والسلام: "**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**"[3]، فالإحسان مطلوب في كل الأمور والأحوال، في عظيمها ودقيقها، وهو يتعلق" بنفوذ البصائر في الملكوت حتى يصير الخبر للبصيرة كالعيان، فهذه أعلى درجات الإيمان بمراتبه. ويتفاوت المؤمنون والمحسنون في تحقيق هذا المقام تفاوتا كثيرا بحسب تفاوتهم في قوة الإيمان والإحسان، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك هاهنا بقوله: " **أن تعبد الله كأنك تراه،**

1- سورة الرحمن: 60 .
2- السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مصدر سابق، 1 / 831 .
3- سبق تخريجه، ص:30 .

فإن لم تكن تراه فإنه يراك" أن نهاية مقام الإحسان: أن يعبد المؤمن ربه كأنه يراه بقلبه فيكون مستحضرا ببصيرته وفكرته لهذا المقام، فإن عجز عنه وشق عليه انتقل إلى مقام آخر، وهو أن يعبد الله على أن الله يراه، ويطلع على سره وعلانيته، ولا يخفى عليه شيء من أمره"[1]. فالإحسان أعلى درجات الإيمان؛ حيث يرى المسلم الله في أدق لحظات حياته، في حركاته وسكناته، فإن لم يستطع فيجاهد نفسه أن يبلغ درجة الإيمان في حياته؛ حيث يستحضر الله في حياته وإن لم يكن هو سبحانه وتعالى يراه.

إن الإحسان، والإيمان، والإسلام أسس متكاملة، بينها خصوص وعموم"فالإحسان يدخل فيه الإيمان، والإيمان يدخل فيه الإسلام، والمحسنون أخص من المؤمنين، والمؤمنون أخص من المسلمين"[2]، فالإحسان درجة خاصة يبلغها من جرد نفسه من كل ملذات الدنيا، وشهوات النفس لإرضاء الله تعالى.

إن درجة الإحسان يبلغها إلا من وفقه الله تعالى أن يبلغها، فهي ليست لكل الناس، فالمحسن قلبه معقود بحب الله والإخلاص له، واتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فمن أهم منازل العبادة "منزلة "الإحسان" وهي لب الإيمان، وروحه وكماله. وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل. فجميعها منطوية فيها. ولله على كل قلب هجرتان. وهما فرض لازم له على الأنفاس: هجرة إلى الله سبحانه بالتوحيد والإخلاص، والإنابة والحب، والخوف والرجاء والعبودية. وهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

1- ابن رجب الحنبلي: زين الدين أبي الفرج، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق مجموعة من المحققين، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط1، 1417 هـ- 1996م، 1/ 211 .
2- ابن تيمية، الفتاوى، 10/7 . ينظر: ابن باديس، العقائد الإسلامية، ص: 55 وما بعدها .

بالتحكم له والتسليم والتفويض، والانقياد لحكمه، وتلقي أحكام الظاهر والباطن من مشكاته."[1]، فهذا القلب المحرك للإنسان لابد أن يكون اتجاهاته لها نقطة وصول واحدة وهي إرضاء الله تعالى في كل الأحوال، والأمكنة، والأزمنة، ليكون بذلك موصوفا بالمحسن المذكور في القرآن الكريم بأحسن الأوصاف، والموعود بأفضل جزاء.

إن المسلم ملزم بتحري الإحسان قدر استطاعته في حياته، سواء مع إخوانه المسلمين، أم مع غيرهم. فهو مسؤولية عظيمة بأمر من الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2]، وبأمر من النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ"[3]، فكل ما هو مأمور به الإنسان تأديته فهو عهد بينه وبين الله تعالى، يوم أخذه عليه، مسؤول عنه يوم القيامة ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[4]، وزود الله تعالى الإنسان بآليات في غاية الدقة في حسن تطبيق العهد والحفاظ عليه، فكانت آليات تفعيل العهد، مسؤولة أمام الله تعالى عن أفعاله ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[5] .

1-ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، مرجع سابق، 2/ 344 و 347 .
2- سورة النحل: 90.
3- أخرجه مسلم، كتاب الصيد والذبائح، باب: الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، 6 / 72 .
4- سورة الإسراء: 34 .
5- سورة الإسراء: 36 .

وليكون الإنسان على بينة في كونه مسؤولا أمام الله تعالى، عن كل أعماله أحسنها، وحسنها، وأسوأها وسيئها أقسم تعالى بأنه سيُسأل كل واحد عما كان يعمل وعلى أساسه يكون الجزاء فلينظر الإنسان ما قدم ؟﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[1] .

1- سورة الحجر: 92-93 .

المطلب الثاني: مراتب المسؤولية الاجتماعية

إن الإنسان بحكم استخلافه، لابد له من إنشاء علاقات تفاعلية ومعاملاتية مع بني جنسه، لأداء مهمته، فمسؤوليته الاجتماعية عظيمة وشاملة، إذ على أساسها يكون الدين ظاهرا في الحياة، فردا كان، أم مجتمعا، أم دولة، أم عالما.

الفرع الأول: البعد الثقافي للمسؤولية (الدين واللغة)

إن الإنسان كونه فردا اجتماعيا، لابد له من وسائل اتصال مع أفراد مجتمعه، وهي ثقافة كل مجتمع، " فالثقافة إذن تتعرف بصورة عملية على أنها: مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته"[1]، إذن للمحيط دور أساس في بناء شخصية الفرد، وتربي فيه الثقافة التي بها يتعامل مع أفراد مجتمعه، "بل هي دستور تتطلبه الحياة العامة، بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي"[2]، فالثقافة دستور المجتمعات لا يمكن الاستغناء عنها، فهي من أسس الحياة الفردية والاجتماعية.

أرسل الله تعالى رسله وأمرهم بتبليغ رسالته إلى أقوامهم، وكانت وسيلة التواصل بين الرسل وأقوامهم من لغة عصرهم، وما يفهمونه، وإن اختلفت لغة الخطاب والتبليغ،

1- ابن نبي: مالك شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، د ط، 1406هـ/ 1986 م، ص:83.
2- مالك بن نبي، شروط النهضة، المرجع نفسه، ص:86.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[1]، "أي ما أرسلنا من رسول بلسان إلا لسان قومه المرسل إليهم لا بلسان قوم آخرين،.. واللسان: اللغة وما به التخاطب"[2]. فنزول كتب الله بلغة قوم كل نبي، حجة عليهم في عدم إيمانهم، وضلالهم عن عمد، واضطهادهم لأنبيائه.

نزل القرآن الكريم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالقراءة، التي تتضمن علم الإنسان بحقيقة خلقه، وإن الأمر كان بيد الله تعالى، فلابد من عبادته، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3]، "وسياق الآية صريح في أنه تقرير لربوبية الخالق. وتخصيص خلق الإنسان بالذكر دون سائر المخلوقات، لأن الإنسان هو المختص بالقراءة والعلم، المنفرد بتبعة التكليف، المخاطَب بكل ما سوف ينزل به الوحي من كلمات الله"[4]، وهي ثقافة يلزم الإنسان العلم بها ومعرفتها.

إن القراءة القرآنية المخاطب بها كل إنسان، لها الدور الأساس في تحقيق التكامل الإنساني، و"القراءة التي نعنيها هنا، ويرتبط بها توازن الشخصية الإنسانية، وتحقق النهضة والمنعة الحضارية للمجتمعات، هي القراءة السننية الثقافية الشمولية التكاملية المتوازنة. أي القراءة التي تهتم بتعليم الناس سنن الله سبحانه وتعالى في حياة الأفراد وحركة المجتمعات والأمم والحضارات، وتكشف لهم: كيف يتوازن الأفراد وتنسجم حياتهم، ويتكامل جهدهم، وتعظم فعاليتهم الفكرية والنفسية والروحية والسلوكية

1- سورة إبراهيم: 4 .
2- ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، 13/ 186 .
3- سورة العلق: 1-5 .
4- بنت الشاطئ: عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة، ط5، دت، 17/2 .

والاجتماعية، وتقوى شوكتهم ومنعتهم الحضارية؟"[1]، فالقراءة السننية الثقافية الشاملة هي قراءة تجعل الإنسان في حركة تفاعلية مستمرة ومتكاملة مع نفسه، ومجتمعه، والكون بما يحقق به أداء وظيفته الاستخلافية، ويحقق مستقبله الحضاري .

إن الثقافة لا تنفصل عن الأخلاق وكلها تصب في خدمة العلم، و"تتشكل الثقافة الحقيقية من خلال التمازج والتفاعل بين الدين الحقيقي وبين الخلق السامي والفضيلة في بوتقة العلوم المهضومة جيدا، ووصول هذا المزيج إلى المستوى المطلوب من النضج."[2]، فمزيج الثقافة الأصيلة والأخلاق السامية له الفضل في الوصول إلى النضج التام والمطلوب لتحضر الأمم.

إن كل أمة تتميز بثقافتها الخاصة، فهذه الثقافة إما أن تؤثر في ثقافة غيرها، أو تتأثر هي بها، و"تحتل الثقافة محلا متميزا في حياة كل أمة. وكل ثقافة امتزجت مع ماضي الأمة وارتبطت بجذور روحها تستطيع إنارة طريق الحياة والتقدم أمامها. وعلى النقيض من هذا فإن قيام الأمة بتسليم نفسها إلى أحضان فكر وثقافة أجنبية والسير متذبذبة ذات اليسار سيؤدي إلى اضمحلال تلك الأمة وتفسخها"[3]، فتقدم أمة وحضارتها مرتبط بتشبثها بثقافتها، والأمة المسلمة إذا أرادت استعادة ريادتها كما كان أسلافها، فلابد من الرجوع إلى أصولها، وثقافتها الإسلامية المستمدة من مرجعياتها، وعاداتها وتقاليدها الأصيلة.

1- الطيب برغوث، نحو أكاديمية وطنية لتنمية المعرفة والثقافة السننية دعوة لبناء ثقافة النهضة، مرجع سابق، ص: 57.
2- كولن: محمد فتح الله، الموازين أو أضواء على الطريق، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة، ط5، 1431هـ/2010م، ص:80
3- كولن، الموازين، ص:81 .

إن اللغة العربية كانت رائدة في عصرها دائما؛ لأنها لغة القرآن الكريم أولا، ثم لغة الفهم، والتعبير بأنواعه، فتنوعت بين الشعر والنثر، والخطب،... فكان انتشارها في العالم لتميزها وتطور العلوم بفضلها.

يذكر الله تعالى تعليم في كتابه امتنانه تعالى على الإنسانية بإرساله النبي صلى الله عليه وسلم ليعلمها الكتاب والحكمة، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[1]، "الكتاب يعني الكتابة، ... فقد كانت الأمة أمية... لذلك نجد أن تفسير الكتاب بالكتابة هو المناسب للأمية"[2]، فالكتابة بالمعنى المعاصر هي العلوم تملكها الإنسانية لخدمة الإنسان، ومن هنا لابد للمسلم أن يحمل مسؤولية بعث الثقافة الإسلامية ونشرها، بآدابها، وأشعارها، وخطبها، وفنونها،... وأن يتخلى المسلم من عقدة التأخر، والتبعية، لأن ثقافته مرجعيتها اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم، ولغة العلوم.

الفرع الثاني: البعد الاجتماعي للمسؤولية (الفرد، المجتمع، الدولة)

الاجتماع مفروض على الإنسان كون فطرته تحتم عليه ذلك، فهو فرد من نسيج متماسك، متكامل له واجبات تجاه مجتمعه يؤديها، وللمجتمع واجبات لابد من تحقيقها للفرد، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً**

1- سورة آل عمران: 164.
2- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 3/1857- 1858 .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1]، ومعنى الآية "يأيها الناس اتقوا ربكم الذي أنشأكم من العدم، ورباكم وشملكم بالجود والكرم، واذكروا أنه خلقكم من نفس واحدة وجعلكم جنسا تقوم مصالحه على التعاون والتآزر، وحفظ بعضكم حقوق بعض."[2]، فهذا الخَلْق المعجز، تَوافَقَ جنسه، وتعاون على المصالح الخاصة والعامة لقيام الحياة، بمنطق التكافل والتآزر الاجتماعي.

إن مبدأ التعامل والتفاعل الاجتماعي منطلق من الفهم والتطبيق العملي للدين، "ومعنى أن الدين المعاملة: أن تحسن معاملتك في كل شيء: بدءا من المعاملة مع ربك، والمعاملة مع نفسك، أي ذاتك بكيانها الجسدي والعقلي والروحي، ومعاملتك مع الناس من حولك قريبهم وبعيدهم، مسلمهم وكافرهم، ومع الكائنات من حولك: جامدها وحيِّها، صامتها وناطقها ، عاقلها وغير عاقلها"[3]، فالمعاملة على أساس الدين مسؤولية لها بعدا اجتماعيا عظيما؛ إذ إنها تلزم كل فرد بأداء واجباته، التي هي حقوق غيره.

إن البعد الاجتماعي لمسؤولية المسلم على المستوى الفردي والجماعي، لا تخص عظيم الأعمال، وإنما لدقيقها الدور في تآلف أفراد المجتمع، وهو ما جاء على لسان خير البرية، قال صلى الله عليه وسلم:"**عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الأَذَى يُمَاطُ عَنِ**

1- سورة النساء: 1 .
2- المراغي: أحمد مصطفى، تفسير المراغي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1، 1365هـ/ 1946م، 174/4.
3- القرضاوي، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سابق، ص: 26 .

الطَّرِيقِ"[1]، فالأعمال لا تُحتقر وإن قَلَّت، فأدنى عمل يكون فيه الخير للمجتمع فهو حسن، وفيه تظهر المسؤولية الفردية تجاه البيئة التي يعيش فيها المسلم.

وأسمى ما يصل إليه المسلم أن تكون مسؤوليته تجاه مجتمعه وأمته يكتسب منها الأجر وإن لم يتصوره الإنسان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**كُلُّ سُلَامَى مِنْ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**"[2]، فهذه المعاملة السامية مع خلق الله تعالى تُكسب المسلم مصداقية اجتماعية بعيدة الهدف، ويكمن الخير الكامل فيها، "وأفق الخير والنفع الذي يعيش المسلم في دائرته ليس خاصا بالإنسان وحده، وإنما يتسع فيشمل كل كائن حي في الوجود حتى الطير والحيوان، فكل إحسان يسديه إليه أو أذى يدفعه عنه عبادة تقربه إلى الله، وتوجب له رضاه."[3]، فرضا الله تعالى غاية ما يريده المسلم من أداء مسؤوليته الاجتماعية تجاه الخلق.

إن بُعد المسؤولية الاجتماعية على المستوى الأفقي للمجتمع، يجعل المسلم لا يغادر دائرة التعاملات الإنسانية المؤسسة على المرجعية الثابتة- القرآن الكريم والسنة النبوية-، وهو ما قَعَّدَه النبي صلى الله عليه وسلم، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

1- أخرجه مسلم، كتاب المساجد باب: النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها، 2 / 77.

2- أخرجه البخاري، كتاب الوصايا، باب: من أخذ بالركاب ونحوه، 4/ 56 . ومسلم، كتاب الزكاة، باب: في المنفق والممسك، 83/3.

3- القرضاوي، العبادة في الإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة، ط24، 1416هـ/ 1995 م، ص61 .

"**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ**"[1]، فهذا السِّلم الاجتماعي الذي يعيشه المسلم مع إخوانه، هو الإسلام الحقيقي المأمور باعتناقه.

إن المسلم مطالب بقراءة القرآن والسنة قراءة تدبرية، سننية، اجتماعية، لأنها "ستغذي كل جوانب شخصية الإنسان، وتنمي كل ملكاته الذاتية المتنوعة، وتؤثر على جميع نواحي حياته، وتخرج للمجتمع شخصية إنسانية متوازنة، ذات مؤهلات وقدرات عالية، على تحقيق الانسجام والتكامل الذاتي الفعال من ناحية، وعلى تحقيق التأثير والعطاء الاجتماعي الفعال من ناحية أخرى. وهذا هو نوع الشخصية الإنسانية النموذجية، التي تطمح إليها كل المجتمعات الإنسانية، وتكابد من أجلها، وفي مقدمتها المجتمع الإسلامي، الذي تحتل الشخصية الرسالية مكانة محورية في أهدافه واهتماماته وأولوياته بشكل مستمر"[2]، فرسالية المسلم مؤسسة في القرآن والسنة ولا يجب أن يخرج عن قواعدها الواضحة المبينة، فرساليته مسؤولية فردية، اجتماعية، انسانية.

إن ما يحافظ على تماسك المجتمع وتكاتفه، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي يعتبر القانون الاجتماعي الذي يضمن قيام مسؤولية الفرد اجتماعيا؛ وذلك "أن الفضائل التي يُكسبها الأمر بالمعروف للفرد والمجتمع تدوم ويحافظ عليها بالأمر بالمعروف أيضا. وبخلافه سيبدأ التقهقر والتراجع تدريجيا حتى ينتهي بانتهاء ذلك المجتمع القاصر. وللحيلولة دون بلوغ هذه النتيجة لابد من إذكاء القوة المعنوية وجعلها في حيوية مستمرة. وهذا يحصل أيضا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بمعنى أن هذه

---

1 - **رواه البخاري**، كتاب الإيمان، بَاب:المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، 1 /11.

2- الطيب برغوث، نحو أكاديمية وطنية لتنمية المعرفة والثقافة السننية دعوة لبناء ثقافة النهضة، مرجع سابق، ص: 56.

الوظيفة المقدسة حياة للفرد والمجتمع على السواء، وفي الوقت نفسه شرط للحفاظ على الحياة."[1]، فقيام الفرد هو قيام المجتمع، وقيام المجتمع هو قيام الدولة؛ وأسس هذا البناء يقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الفرع الثالث: البعد الإنساني للمسؤولية (البيئة والكون)

إن رسالة الإسلام رسالة عالمية، لم تكن حكرا على قريش، ولا على من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فقط، بل رسالة لكل البشر، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾[2]، يقول ابن القيم إن "أصح القولين في هذه الآية: أنها على عمومها. وفيها على هذا التقدير وجهان: أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته... الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد"[3]، فعموم رسالة الإسلام للإنسانية رحمة من الله تعالى لعباده.

استخلف الإنسان في الأرض، وهيأ الله تعالى له الكون ومهده خدمة له، وأمره أن لا يفسد فيها ويحافظ على ما به تقوم حياته، قال تعالى:﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[4]، "نهاهم الله سبحانه عن الفساد في الأرض بوجه من الوجوه، قليلا كان أو كثيرا،

1- محمد فتح الله كولن، طرق الإرشاد في الفكر والحياة، دار النيل، جمهورية مصر العربية، ط5، 1431هـ/2010م، ص:56 .
2- سورة الأنبياء: 107.
3- ابن القيم، بدائع التفسير، مصدر سابق، 207/2 .
4- سورة الأعراف: 56-57 .

ومنه قتل الناس وتخريب منازلهم، وقطع أشجارهم، وتغوير أنهارهم. ومن الفساد في الأرض:الكفر بالله والوقوع في معاصيه، ومعنى ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: بعد أن أصلحها الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتقرير الشرائع"[1]، فكل ما في الأرض من الرياح، والأمطار، والنبات، و... يبشر الإنسان بالرحمة والخير له، فلا يفسد في الأرض، ويبتغي من خيراتها رضا الله تعالى؛ لأنه مسؤول عنها.

إن وجود الإنسان في الأرض وجودا آنيا، محدود الحضور فليكن وجوده نافعا؛ إذ هو مسؤول إنسانيا تجاه بيئته، "ودور الإنسان هنا هو الدور الأساسي والرئيس، فكل ما في البيئة من مكونات مسخر له، وعليه أن يتعامل معها بما لا يجافي سنن الله في خلقه، ولا أحكام الله في شرعه، فيأخذ منها ويعطيها، ويرعى لها حقها ، لتؤتي له حقه، ويتمثل هذا الدور الإنساني في مهام ثلاثة، تعتبر هي الأهداف الكبرى للحياة الإنسانية، هي مقاصد الله تعالى من المكلفين: المقصد الأول: عبادة الله تعالى،... المقصد الثاني: الخلافة لله في الأرض،... المقصد الثالث: عمارة الأرض..."[2]، فمقاصد استخلاف الإنسان؛ عبادة، ، وخلافة، وعمارة، وهو بين هذه الثلاثة مسؤول مسؤولية تامة وعامة على أرضه التي يعيش فيها.

إن معارضة الإنسان قانون الاستخلاف بإفساده في الأرض، ستكون النتيجة من جنس عمله، فيكثر الفساد، لعل الانسان يرجع، قال تعالى:﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ

1- الشوكاني، فتح القدير، مصدر سابق، ص: 480 .

2- القرضاوي: يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1421هـ/ 2001م، ص:23 .

لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]، "وظهور الفساد فيهما: هو بارتفاع البركات، ووقوع الرزايا، وحدوث الفتن وتغلب العدو، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر.... لعلهم يرجعون، أي: يتوبون ويراجعون بصائرهم في طاعة ربهم؛ ثم حذر –تعالى– من يوم القيامة تحذيرا يعم العالم"[2]، فالإنسان مطالب بالإصلاح في البر والبحر ؛ لأنهما مجال حياته، "وعمارة الأرض إنما تتم بالغرس والزرع والبناء، والإصلاح والإحياء، والبعد عن كل فساد أو إخلال. وهذه المقاصد كلها متداخلة ومتكاملة ومتلازمة، فعمارة الأرض تدخل في الخلافة، وكلتاهما ضرب من العبادة لله تعالى، كما أن العبادة تدخل في الخلافة، فلا خلافة بلا عبادة"[3]، فالانسان بين مقصد العبادة ومقصد الخلافة، وبينهما تكون العمارة بكل ما يبني وينفع الخلق، بما تحويه الأرض من خيرات، وفي كل ذلك يلتزم الانسان أساس التقوى، ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[4].

لابد للإنسان أن يلتزم القوام في حياته، فلا يقتر ولا يبذر، قال تعالى:﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**﴾[5]، فالله تعالى خلق البشر ويعلم ما يصلح لهم، "فيقدِّر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم، فيفقر ويغني، ويمنع ويعطي،

1- سورة الروم: 41 .
2- الثعالبي، الجواهر الحسان، مصر سابق، 315/4.
3- القرضاوي، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سابق، ص:24. ينظر: كولن: محمد فتح الله، ونحن نبني حضارتنا، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل، ط1، 1433هـ/ 2012م، ص:157 .
4- سورة الأعراف: 96.
5- سورة الشورى: 27 .

ويقبض ويبسط كما توجبه الحكمة الربانية. ولو أن أغناهم جميعا لبغوا، ولو أفقرهم لهلكوا."[1]، ومن هنا تتحدد مسؤولية الإنسان على حسب حاله، وموقعه من المجتمع، فالفقير لا يبغي في الأرض فيتسبب في هلاكه، والغني لا يسرف فيطغى فيهلك، فكل منهما مكمل لبعض لحمل مسؤولية البناء الإنساني والمادي في الأرض.

إن طغيان الفقير بفقره، والغني بغناه يُفقد العلاقات الاجتماعية تماسكها، فالتعامل مع الطبيعة تعاملا فرديا مصلحيا، يفكك الترابط الإنساني الطبيعي، "فانكشاف الطبيعة بالرزق انكشافا كاملا قد يؤدي إلى عامل يعطل الناس عن التآزر في سبيل البناء الحضاري، وهو ما ينشأ فيهم من بغي بعضهم على بعض فتتلاشى جهودهم في ذلك عوض أن تتكتل لاستثمار الطبيعة، إذ عطاؤها ممنوح دون استثمار"[2]، فالتفاهم والتكاتف بين الناس باختلاف أحوالهم، يساهم في البناء الاجتماعي والإنساني والحضاري للأمة.

إن المسلم لابد أن يعيش من أجل هدف في الدنيا، من أجل مستقر دائم في الآخرة، وهذا الهدف هو بناء الحضارة الإسلامية التي كانت في وقت ما سيدة الحضارات، "ويمكن أن نفسر هذا العامل –عامل الدافع الحضاري– بأنه عامل تفعيل للفكرة من جهة، وللبيئة الطبيعية من جهة أخرى، بحيث تصير به الفكرة التي تنتهي في خلاصتها إلى صورة للغاية من الحياة، فكرة فاعلة في النفس دافعة للعمل من أجل تحقيق تلك الغاية، كما يصير به للطبيعة موقع في النفس يدفع إلى اقتحامها لمباشرة

1- الزمخشري، الكشاف، مصر سابق، 409/5 .
2- النجار: عبد المجيد عمر، فقه التحضر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999م، ص:31.

استثمارها والتعمير فيها، فتكون إذن النفس الجماعية منفعلة بالفكرة من جهة، وبالبيئة الطبيعية من جهة أخرى، فتنفر لتحقيق الفكرة متخذة من البيئة مسرحا لذلك التحقيق تستخدم مرافقه ومقدراته"[1]، إن البناء الحضاري لا يقوم على الإنسان فقط، وإنما يتكامل البناء بين الإنسان، والبيئة، باستغلال الزمن في تحقيق ذلك.

إن القرآن كتاب الحياة، حياة الدنيا والآخرة، هو دستور النهضة والتطور، و"القرآن إنما جاء ليحمِّل الإنسان مسؤولية بناء حضارة مثلى، وأنه ما كان كتاب دين وعبادة ونسك، إلا من حيث إنه مصدر حضارة وباعث نهضة. وإنما يأمر القرآن الناس أن يدينوا لتعليماته في تحقيق هذه الأهداف كلها. والدين إذن ليس كما يتصور الجهلة من الناس، مجرد صوم وحج وصلاة.. بل هو الدينونة لكل ما رسم الله لعباده، من مناهج العلم والاجتماع والسلوك"[2]، فالعبادة لا تنفي أبدا التحضر والتطور، فالبعد الإنساني الحضاري للمسؤولية عظيم، عظمة المهمة الاستخلافية للإنسان في هذه الأرض، فالمسلم مسؤول حضاريا في تمكين الدين، وتحقيق الأمن الإنساني، والتطور بمعية كل العلوم.

إن مسؤولية البناء الحضاري تستلزم قوة في التمكن من التحقيق، ولا يستطيع القيام بذلك إلا الإنسان الرباني، ولتحقق ذلك "يجب أولا أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت

1- عبد المجيد النجار، فقه التحضر الإسلامي، مرجع سابق، ص:32.
2- البوطي: محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط3، 1998م، ص: 29.

والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى"[1]، فمسؤولية البناء الحضاري تحتاج إلى معادلة الإنسان، الزمن، والمواهب.

إن ختم الرسل بالنبي صلى الله عليه وسلم، والأديان بالقرآن الكريم لتكون الشهادة قائمة على الإنسانية في الاتباع والتسليم، وما يحويه القرآن الكريم من سعادة الإنسانية لا يمكن أن يوجد في غيره، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2] "والقرآن هو النداء الأخير والرسالة الأخيرة للإنسانية التي بلغت أشدها. هذه الرسالة الإلهية الأخيرة أكدت على الأساسيات المحكمة الثابتة بعينها في الأديان كلها، ووعدت باستيعاب متطلبات الأزمنة والأمكنة كافة فختمت كتاب الدين. فعلى الإنسانية من بَعْدُ أن تستمر في المسيرة على نور هذه الرسالة الأخيرة، وأن تستخدم طاقة التطوير والتغيير مربوطة بنظامها، وأن تحقق كدح الوصول إلى الحقيقة المطلقة تحت وصايتها."[3]، فالإنسانية لن تقوم لها قائمة، ولن تبلغ أوج تطورها، إلا باتباع دين الحق، وطريق النور، وأصل التطور والازدهار، وهذه قمة وأسمى المسؤوليات المنوط بتحقيقها المسلم، فهي عهده ووعده مع الله تعالى، فلينتبه المسلم أن يغفل عنه، أو يبدل غيره، فهو بوعد القرآن خاسر.

1- مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص:75.
2- سورة آل عمران:85 .
3- كولن: محمد فتح الله، ونحن نبني حضارتنا، مرجع نفسه، ص:143 .

الفصل الثالث: مترتبات المسؤولية

المبحث الأول: الترتب التكليفي للمسؤولية

المطلب الأول: الوسع التكليفي

المطلف الثاني: اليسر التكليفي

المطلب الثالث: التكافل التكليفي

المبحث الثاني: الترتيب الجزائي للمسؤولية

المطلب الأول: الجزاء باعتبار المكلف

المطلب الثاني:الجزاء باعتبار الأجل

المطلب الثالث: الجزاء باعتبار الدارين

المبحث الأول: الترتب التكليفي للمسؤولية

التكليف في اللغة من "كلف، والكُلْفة: ما تَكَلَّفْتَ من أمر في نائبة أو حق. ويقال: كَلِفْتُ بهذا الأمر أي أُولِعْتَ به وأَحْبَبْتَهُ. والكَلَفُ: الولوع بالشيء مع شُغْل قلب ومشقة، وكلفه تكليفا أي أمره بما يشق عليه. وتكلفت الشيء تجشمته على مشقة وعلى خلاف عادتك. ويقال حَمَلْتُ الشيء تَكْلِفَةً إذا لم تطقه إلا تكلفا. كَلِفَ الأمر وتَكَلَّفهُ تَجَشَّمهُ على مشقة وعسرة. وهي الكُلَفُ والتَّكَالِفُ، واحدها تَكْلِفَةٌ"[1]، إذن التكليف هو القيام بالفعل مع مشقة وعسر.

وفي الاصطلاح: "التكليف: الأمر بما يشق على الإنسان، قال تعالى: ﴿**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾[2]وتكلفت الشيء: تجشمته، ويقال حملت الشيء تَكلِفة: إذا لم تطقه إلا تكلُّفا. والتكلف قد يكون محمودا، وهو ما يتوخاه الإنسان ليتوصل به إلى أن يصير الفعل الذي يتعاطاه سهلا عليه ويصير كلِفا به ومحبًّا له، ولهذا النظر استعمل التكليف في تكلُّف العبادات؛ وقد يكون مذموما وهو ما يتكلَّفه الإنسان مراءاة"[3]، فالتكليف من هذا الباب هو حمل الوسع، واستفراغ الجهد في تيسير الفعل وجعله في قدرته، بجعل الفعل له هدف يجازى عليه، وذلك بمحبته عند القيام به.

1- ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، 3916/5-3917 .

2- سورة البقرة:286 .

3- الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، د ط، د ت، 376/4.

المطلب الأول: الوسع التكليفي

خلق الله تعالى الإنسان وزوده بآليات تجعله قادرا على التمكن من العيش في الأرض، والتعامل مع المخلوقات، إلا أنه لن يكون عيشه فيها عبثا، ولا تعامله مع المخلوقات تعاملا غابيا؛ فقد جعل الله له قانونا يسُيِّر حياته وينظمها، وهو ما قبله ورضي به، ولقد عبّر عنه القرآن الكريم بالأمانة، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[4]، فالإنسان وظّف عقله ليحمل هذه الأمانة ويتكلف تأديتها، بعدما رفضتها عظام المخلوقات: السماوات، والأرض، والجبال.

لم يرتبط التكليف في القرآن الكريم بأي لفظ إلا بلفظ واحد وهو الوسع؛ حيث ذُكر في ثمانية مواضع[5]، فارتباط التكليف بالوسع له دلالة عظيمة في جعل التكاليف الشرعية في قدرة المكلف وفي استطاعته.

الفرع الأول: تعريف الوسع وعلاقته بالتكليف

إن أول لفظ رُبط بالتكليف هو الوسع؛ فالوسع في اللغة: من" وسع الواو والسين والعين: كلمة تدل على خلاف الضيق والعسر. يقال وَسُع الشيء واتَّسع. والوُسع: الغِنَى. والله الواسع أي الغَني والوُسْع: الجدة والطاقة. وهو ينفق على قدر وُسْعِه. وقال تعالى في السَّعة: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ وأَوسع الرجل: كان ذا سَعة."[6]، فالوسع يشمل الجانب البدني والجانب المالي.

يقال: "إنه ليسعني، ويقال: ما أسع ذلك، أي ما أطيقه...أنا أسع هذا الأمر. وهذا الأمر يسعني. قال أبو القاسم: الوُسْع من القُدرة: ما يفضل عن قَدْرِ المكلف، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾تنبيها أنه يكلّف عبده دون ما تنوء به قدرته. وقيل: معناه: يُكَلِّفه ما يثمر له

4- سورة الأحزاب: 72 .

5- سورة البقرة: 233-286، سورة النساء: 84، سورة الأنعام: 152، سورة الأعراف:42، سورة المؤمنون،62. سورة ص:86، سورة الطلاق:7.

6- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، 109/6 مادة (وسع).

السَّعة، أي جنة عرضها السماوات والأرض"[7]، فالوسع هو قدرة المكلف التامة والوافية للقيام بالفعل.

إن النفس تميل بفطرتها إلى المجاهدة في الوصول إلى مراتب تعيش فيها براحة ونعيم، فكان الإرشاد الإلهي أن هذا النعيم تعيشه النفس في الآخرة وما يوصلها إليه هو الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[8] فالآية "تدل على التخفيف وترغيبا في اكتساب ما لا يوصف من النعيم بما هو في الوسع"[9]، فالوسع وقع بين الاجتهاد في العمل الصالح مبنيا على الإيمان والمجاهدة في ذلك، لأن الجزاء جنة الخلد، والإنسان في هذه المجاهدة لا يكون في مشقة، فالله تعالى لم يكلفه أكثر من وسعه.

والوسع "هو الطاقة والاستطاعة، والمراد هنا ما يطاق ويستطاع.. والمستطاع هو ما اعتاد الناس قدرتهم على أن يفعلوه إن توجهت إرادتهم لفعله مع السلامة وانتفاء الموانع"[10]. إذن فالإنسان مكلف بأداء ما عليه من أحكام، ما لم يكن هناك مانع من انتفاء ذلك، " وهذا دليل على عدم وقوع التكليف بما فوق الطاقة في أديان الله تعالى لعموم (نفسا) في سياق النفي، لأن الله تعالى ما شرع التكليف إلا للعمل واستقامة أحوال الخلق، فلا يكلفهم ما لا يطيقون فعله، وما ورد في ذلك فهو في سياق العقوبات، هذا حكم عام في الشرائع كلها. وامتازت شريعة الإسلام باليسر والرفق، بشهادة قوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[11] وقوله ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾[12]"[13]. فالحرج مرفوع عن المكلف، والله تعالى خالق الإنسان وأرحم به من نفسه، فلذلك ما شرعه له كان لخيره في الدنيا والآخرة، وإن كان فيه مشقة ففيها التخفيف والتيسير.

7- الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مصدر سابق، 212/5 و 214.

8- سورة الأعراف:42.

9- البقاعي، نظم الدرر، مصدر سابق، 401/7.

10- ابن عاشور: التحرير والتنوير، مصدر سابق، 135/3.

11- سورة الحج:78.

12- سورة البقرة:185.

وإن اختلف سياق قوله تعالى: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ الواردة في المواضع الثمانية في القرآن الكريم، إلا أن المعنى الذي تحمله لا يخرج من كون الخطاب مفاده عدم التكليف بالمشقة، وما هو خارج عن القدرة والاستطاعة، والتكليف المتعلق بالنفس إنما هو لتسيير شؤون الحياة وتنظيمها.

الفرع الثاني: الألفاظ المقاربة للوسع

عُرِّف التكليف على أنه تَجَشُّم القيام بالفعل على مشقة وعسرة، فما أخرجه من المشقة هو وروده مع الوسع؛ والذي فيه مدلول على الاستطاعة والطاقة والقدرة على هذه المشقة، وبهذا تنتفي المشقة التي لا يستطيعها المكلف؛ فورود ألفاظ أخرى تدل على الوسع في القيام بالتكاليف وردت في القرآن الكريم، والتي لها معاني الموافقة للوسع، وهي: القدرة، والاستطاعة، والطاقة.

أولا: القدرة

ومن بين الآيات التي ذُكرت فيها القدرة، والتي تتعلق بالإنفاق، قوله تعالى: ﴿**لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ**﴾[14]، والقدر في الآية الكريمة يتبع حالة المنفق، إن كان ميسور الحال، أو معسور، و"(قدره) من القدر وهو الحد المحدود في الشيء. (قدره) أي ما يقدر عليه ويطيقه"[15]، فالقدرة في الإنفاق بحسب الطاقة المالية للمنفق ووسعه.

مصدر القدرة في اللغة من: "القَدْر والقُدْرة والمِقدار: القوة، وقَدَر عليه يَقْدِر ويَقْدُر وقَدِر، بالكسر، قُدْرة وقَدارة وقُدُورة وقُدُورًا، وقِدْرانا وقِدارا، .. واقْتَدَر وهو قادر وقدير أقدره الله عليه، والاسم من كل ذلك المَقْدَرةُ، والمَقْدُرة والمَقْدِرة ويقال: مالي عليك مَقْدُرة ومَقْدَرةُ، ومَقْدِرة أي قُدْرة .. والاقتدار على الشيء: القدرة عليه، والقدرة مصدر قولك قَدَر على الشيء قُدرة، أي ملكه،

13- ابن عاشور: التحرير والتنوير، مصدر سابق، 135/3.

14- سورة البقرة: 236 .

15- البقاعي، نظم الدرر، مصدر سابق، 3 /354 .

فهو قادر وقدير.. والقُدْر: الغنى واليسار، وهو من ذلك لأنه كله قوةٌ "[16] . فالقدرة في اللغة بمعنى القوة في كل شيء .

أما في الاصطلاح "القدرة: هي التمكن من إيجاد شيء. وقيل: صفة تقتضي التمكن، وهي مبدأ الأفعال المستفادة على نسبة متساوية، فلا يمكن تساوي الطرفين الذي هو شرط تعلق القدرة إلا في الممكن.

القدرة الممكنة: هي أدنى قوة يتمكن بها المأمور من أداء ما لزمه بدنيا أو ماليا، وهذا النوع شرط لكل حكم.

القدرة الميسرة: هي ما يوجب اليسر على المؤدي، فهي زائدة على الممكنة بدرجة في القوة إذ بها يثبت الإمكان"[17]. فالقدرة تشمل إمكان القيام بالفعل بدنيا وماليا، ويكون القيام بالفعل فيه ممكنا وميسورا.

والقدرة تشمل كل ما يستطيعه الإنسان، سواء من الجانب المالي، أم من الجانب البدني، أم من الجانب التعبدي، كأحكام الصلاة، والصيام،.. فعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ قَالَ:" **مَنْ هَذِهِ؟**". قَالَتْ: فُلَانَةُ تَذْكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا. قال:" **مَهْ عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا. وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَادَامَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ**"[18]، فالأعمال بحسب الطاقة والقدرة، وإن كانت في عبادة الله تعالى. فالله تعالى يرضى من العبد العمل خالصا وإن كان قليلا مستمرا، فثوابه تعالى لا ينقطع عن العبد، حتى ينقطع العبد عن العبادة.

ومن رحمة الله تعالى بعباده بعد تكليفهم بتطبيق شريعته في أرضه؛ أن خفف عليهم أحكامه، وجعلها في مجال استطاعتهم وقدرتهم؛ لأنه "لا يكلف الله أحدا فوق طاقته، وهذا من لطف الله

16- ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، 26/ 3546 . مادة (قدر)

17- أبو البقاء، الكليات، ص:707- 708 .ينظر الجرجاني، التعريفات، ص:180 .

18- رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه، 17/1.

بخلقه. وللنفس ما كسبت من خير. وعليها ما اكتسبت من شر، من قول أو فعل. وأرشد الله تعالى عباده إلى دعائه واسترحامه، والضراعة إليه، وذلك بأن يقولوا: ربنا لا تؤاخذنا إن تركنا فرضنا ونحن ناسون أو ارتكبنا محرما ونحن ناسون أو مخطئون، أو عن جهل بوجهه الشرعي، ربنا ولا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها، كما شرعته للأمم السالفة من الأغلال والآصار، ربنا ولا تحملنا ما لاطاقة لنا به من التكليف والمصائب والبلاء، واعف عنا فيما بيننا وبينك، واغفر لنا فيما بيننا وبين العباد،... وسعها: طاقتها وما تقدر عليه. إصرا: عبئا ثقيلا وهو التكاليف الشاقة. لا طاقة لنا به: لا قدرة لنا على القيام به."[19]، فكل دعاء العبد هو أن يمنحه الله تعالى برحمته وعفوه القدرة على تطبيق أحكامه، وما كان من نقص أو سهو أو نسيان فلا يؤاخذه الله تعالى، ويتجاوز عنه.

ولقد "ثبت في الأصول أن شرط التكليف أو سببه القدرة على المكلف به، فما لا قدرة للمكلف عليه لا يصح التكليف به شرعا"[20]، فالتكليف أساسه الوسع، والقدرة في تطبيق الأحكام الشرعية، وما لم تكن هناك قدرة فلا تكليف، وهذا من عدل الله تعالى ورحمته.

ثانيا: الاستطاعة

بالإضافة إلى القدرة في تحمل التكاليف الشرعية، فإن مصطلح الاستطاعة أضيف إلى المصطلحات التي تُخرج المكلّف من مشقة التكليف إلى إرادة تنفيذ الأحكام الشرعية من غير عائق، وتكون في قدرته البدنية والمالية. كقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾[21]، وفي تفسير الآية يقول الشعراوي: "ولماذا يقول الحق: إن على العبد المؤمن أن يحج البيت الحرام؟ لأنه الخالق وهو خبير وعليم بأن التكليف شاق على النفس، ولكن على المؤمن المكلف حين يجد تكليفا شاقا عليه أن ينظر إلى الفائدة العائدة من هذا الحكم، فإن نظر إلى الفائدة من الحكم وجد أنها تعود عليه، ولذلك يسهل على العبد المؤمن أمر الطاعة.

19- أسعد محمود حومد، أيسر التفاسير، دون دار نشر، ط4، 1419-2009م، 128/1 .

20- الشاطبي: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، الموافقات في أصول الفقه، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1417هـ/ 1997م، 171/2 .

21- سورة آل عمران:97. ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصرية، القاهرة، د ط، 1364هـ، 431/430 .

والذي لا يقُبل على الطاعة ويهمل الجزاء عليها ويغفل عنه. تكون الطاعة شاقة عليه. والذي يقبل على المعصية ويهمل الجزاء عليها تكون المعصية هينة عليه. ولكن الطائع لو استحضر غاية الطاعة لعلم أنها له لا عليه."[22]، فالأجر الذي يرجوه المؤمن من ربه، والجزاء الذي ينتظره منه سبحانه وتعالى يخفف عنه ويجعله يتلذذ العبادة رغم مشقة التكليف.

وما يوافق ذلك من السنة النبوية المطهرة ما رواه أَبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ. فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**"[23]. فقوله صلى الله عليه وسلم:"**فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**" أي: "افعلوا قدر استطاعتكم، وقال النووي: هذا من جوامع الكلم وقواعد الإسلام، ويدخل فيه كثير من الأحكام كالصلاة لمن عجز عن ركن أو شرط فيأتي بالمقدور، وكذا الوضوء وستر العورة، وحفظ بعض الفاتحة، والإمساك في رمضان لمن أفطر بالعذر ثم قدر في أثناء النهار إلى غير ذلك من المسائل"[24]، فالنبي صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، رحمة بأمته أمرهم باتباع سنته ما كان ذلك في قدرتهم ووسعهم.

فالاستطاعة في اللغة: "مشتقة من الطوع، كأنها كانت في الأصل الاستطواع،... والعرب تقول: تطاوع لهذا الأمر حتى تستطيعه. ثم يقولون: تطوَّعْ، أي تكلف استطاعته"[25]. يعني تكليف النفس القيام بالفعل من غير تكليف خارجي.

والاستطاعة اصطلاحا: "هي التهيؤ لتنفيذ الفعل بإرادة المختار من غير عائق... وهي أخص من القدرة. وقيل: القدرة ما يظهر من القوة بقدر العمل لا زائدا عليه ولا ناقصا منه.

22- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 3/ 1640-1641.

23- البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي رواه في كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق : مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط 3، 1407هـ / 1987م، 2658/6 .

24- العيني: بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ-2001م. 49/25 .

25- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، 431/3، مادة (طوع).

ونفي الاستطاعة قد يراد به نفي القدرة والإمكان، نحو: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾[26]. والوسع من الاستطاعة: ما يسع له فعله بلا مشقة. والجهد منها: ما يتعاطى به الفعل بمشقة. والطاقة منها: بلوغ غاية المشقة. واستطاعة الأموال والأفعال كلاهما يسمى بالتوفيقية. واستطاعة الأحوال: وهي القدرة على الأفعال تسمى التكليفية"[27]. فالاستطاعة هي القدرة الموازية لطاقة الإنسان عند القيام بالفعل.

ويرى الجرجاني أن "الاستطاعة والقدرة والقوة والوسع والطاقة متقاربة المعنى في اللغة .. والاستطاعة الحقيقية وهي القدرة التامة التي يجب عندها صدور الفعل، فهي لا تكون إلا مقارنة لفعل. والاستطاعة الصحيحة وهي أن يرتفع الموانع من المرض وغيره."[28]، فلابد للكمال العقلي والبدني للقيام بالأفعال المطالب بأدائها المكلف .

ولقد ورد لفظ الاستطاعة في القرآن الكريم بمعاني: السعة، والغنى، والمال، لقوله تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[29]، القوة، والطاقة، لقوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾[30]، والقدرة والمكنة البدنية، قال تعالى: ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾[31]، والاستطاعة أخص من القدرة. ولن تخرج الاستطاعة عن معنى الوسع والقدرة، فكلها تضفي إلى البحث عن راحة المكلف في تطبيق الحكام المكلف بتطبيقها كونه مستخلفا، وحاملا لأمانة السماء باختياره عن طواعية.

ثالثا: الطاقة

ومن الألفاظ القرآنية التي تؤدي معنى الوسع والقدرة على إنفاذ الأحكام في حياة المؤمن، الطاقة، ففي اللغة مشتقة من "طوق: الطاء والواو والقاف أصل واحد يدل على مثل ما عليه الباب الذي قبله. فكل ما استدار بشيء فهو طَوق. وسمي البناء طاقا لاستدارته إذا عُقِد. والطيلسان طاق،

26- سورة يس: 50 .

27- أبو البقاء، الكليات، مصدر سابق، ص: 108

28- الجرجاني، التعريفات، مرجع سابق، ص: 19 .

29- سورة آل عمران:97.

30- سورة النساء:129.

31- سورة الكهف:97.

لأنه يدور على لابسه. فأما قولهم أطاق هذا الأمر إطاقة، وهو في طوقه وطَوَّقْتُك الشيء، إذا كلَّفْتُكَه فكله من الباب وقياسه؛ لأنه إذا أطاقه فكأنما قد أحاط به ودار به من جوانبه"[32]، فالطاقة في اللغة تدور حول الإحاطة الكاملة بالشيء المراد القيام به من كل جوانبه.

والطاقة في الاصطلاح: "من الإطاقة: القدرة على الشيء، طاقه، طوقا وأطاقه وأطاق عليه. والاسم الطاقة. وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشيء. وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾[33]؛ أي ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه: لا تحملنا ما لا قدرة لنا به، وذلك لأنه تعالى قد يحمل الإنسان ما يصعب عليه، ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾[34]، ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾[35]؛ أي خففنا عنك العبادات الصعبة التي في تركها الوزر. وقد يعبر بنفي الطاقة عن نفي القدرة"[36]. إذن فالطاقة هي الإحاطة والقدرة الكاملة للقيام بالفعل.

ولفظ الطاقة ذُكر ثلاث مرات في سورة البقرة؛ في قوله تعالى:﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[37]، وتفسير ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ "المطيق هو الذي أطاق الفعل أي كان في طوقه أن يفعله، والطاقة أقرب درجات القدرة إلى مرتبة العجز، ولذلك يقولون فيما فوق الطاقة: هذا ما لا يطاق،... وقيل الطاقة القدرة مطلقا. فعلى تفسير الإطاقة بالجهد فالآية مراد منها الرخصة على من تشتد به مشقة الصوم في الإفطار والفدية"[38]، فالطاقة في الآية الكريمة هي الرخصة لمن لا جهد له في قيامه بالفرض المطالب به، إلى فسحة الإفطار والفدية.

32- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، 433/3. مادة (طوق).
33- سورة البقرة:286 .
34- سورة الأعراف: 157 .
35- سورة الشرح: 2 .
36- الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مصدر سابق، 525/3.
37- سورة البقرة:184.
38- ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، 166/2 .

وفي موضع آخر في سورة البقرة يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[39]، وذكر ابن عاشور أن الطاقة: "يحتمل أن ذلك قالوه لما رأوا جنود الأعداء، ويحتمل أنهم كانوا يعلمون قوة العدو، وكانوا يسرون الخوف، فلما اقترب الجيشان، لم يستطيعوا كتمان ما بهم"[40]، فكان انتفاء الطاقة دال على ضعف القوة في مواجهة الجيش.

ويبقى الإنسان لا يغفو ولا يغفل عن مداومة الدعاء بتخفيف التكاليف، بعدما نفى الله تعالى أن يكون قد يشق على عباده، فقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[41]، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾، " لا تثقلنا من العمل ما لا نطيق فتعذبنا، ويقال: ما تشق علينا؛ لأنهم لو أُمروا بخمسين صلاة لكانوا يطيقون ذلك، ولكنه يشق عليهم، ولا يطيقون الإدامة عليه"[42]. فالمؤمن بدعائه هذا لا يعترض تكليف الله تعالى له، وإنما يدعوه القدرة والتوفيق منه تعالى له على حسن أدائه على الوجه الذي يرضيه عنه سبحانه وتعالى.

إن دوام رحمة الله تعالى على الإنسان، لا تنتهي، ودورها في التكليف أعظم؛ و" الحق سبحانه لا يكلف إلا الإنسان الذي بلغ الحلم فأصبح ناضج العقل والرشد بالبلوغ، ولا يستطيع أحد أن يقول أن الله قد طلب من أحد الإيمان به قبل أن ينضج عقله ويصل سن الرشد"[43]، فالبلوغ، والرشد جعلهما الله تعالى معيار التكليف وشروطه.

39- سورة البقرة: 249.

40- ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، 2 /498 .

41- سورة البقرة:286 .

42- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، 493/4.

43- الشعراوي: محمد متولي، جامع البيان في العبادات والأحكام، دار الندوة، القاهرة، دط، 1996م،41/1 .

من خلال ما سبق نخلص إلى أن الوسع، والقدرة، والاستطاعة، والطاقة متعلقة بصفة مباشرة بذات المكلف؛ إذ لابد من أن تتوفر فيه ليكون أهلا لحمل أمانة التكليف؛ الذي اقتنع قناعة عقلية بأنه أهل لحملها، بعدما أشفقت عظام المخلوقات من حملها.

المطلب الثاني: اليسر التكليفي

الإسلام دين سماحة ويسر، وهذا خصيصة الدين الإسلامي؛ حيث جاءت أحكامه في قدرة ووسع واستطاعة المكلف، والله تعالى بتكاليفه أراد الخير واليسر، ولم يرد العسر والمشقة في أحكامه، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[1].

إن معنى لفظ اليسر في اللغة من:" الياء والسين والراء: أصلان يدل أحدهما على انفتاح شيء وخفته، والآخر على عضو من الأعضاء"[2]، فالوسع دال على السهولة والاتساع، والفسحة والراحة.

وفي الاصطلاح: اليُسْر نقيض العسر. وكذلك اليُسُر، مثل عُسْرٍ وعُسُرٍ ... والمْيسور ضد المعسور. وقد يسره الله لليسرى، أي وفقه لها. ويقال أيضا يَسَّرتِ الغنم، إذا كثر ألبانها ونسلها... واليسار واليسارة: الغنى، وقد أيسر الرجل: أي استغنى.. واليسير: القليل. وشيء يسير أي هين"[3].

إن لفظ اليسر ورد بصيغتين: الصيغة الأولى: اليسير، والصيغة الثانية: اليسر؛ فإذا كان بصيغة اليسير فهو على ثلاثة معان: **هينا**، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[4]، **خفيا**، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾[5]، سريعا لا حبس فيه، كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾[6]. ويرد بالصيغة الثانية: اليسر، ولها أربعة معان: **الرخصة** في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ

1- سورة البقرة: 185 .

2- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، 155/6. مادة (يسر).

3- الجوهري: إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، د ط ت، 857/2-858-859.

4- سورة الحج :70 .

5- سورة الفرقان:46 .

6- سورة يوسف: 65 .

بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[1]، اليسر يعني: **السهل** في قوله تعالى:﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا**﴾[2]، والوجه الثالث، اليسر:**الرخاء** في قوله تعالى:﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**﴾[3]، والوجه الرابع، اليسر:**العدة الحسنة** [الوعد] في قوله تعالى:﴿**فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا**﴾[4][5]، ورغم تعدد المعاني يبقى المعنى المجمل والجامع بينها السهولة والتخفيف والسعة.

و"الياسر: كل شيء جزأته فقد يسَّرته"[6]، فالأمور التي تكون على فترات، تكون فيها السهولة في أدائها.

إن الله تعالى لم يكلف العباد ليشق عليهم تطبيق أحكامه؛ وإنما رفع عنهم الحرج والمشقة في ذلك، فقال تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾[7]، ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[8]؛ "دين الله كله يسر، والعسر والحرج هو مالا يستطاع أما ما استطيع فهو يسر. وأما قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ**﴾[9] فنعم! ولا خفيف في العالم إلا وهو ثقيل بالإضافة إلى ما هو أخف منه، ولا ثقيل البتة إلا وهو خفيف بالإضافة إلى ما هو أثقل منه. هذا أمر

1- سورة البقرة:185 .

2- سورة مريم:97 .

3- سورة الطلاق: 4 .

4- سورة الاسراء:28 .

5- ينظر: الدامغاني: أبو عبد الله الحسين بن محمد، الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، تحقيق: عربي عبد الحميد علي، د ط، د ت، ص:479-480. ينظر: الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار مصطفى الباز، د ط، د ت، 717/2 .

6- أبو البقاء، الكليات، مصدر سابق، ص:978 .

7- سورة البقرة: 185 .

8- سورة الحج:78 .

9- سورة النساء: 28.

يعلم حسا ومشاهدة، ولا يشك ذو عقل أن الصلوات الخمس المفروضة علينا، أخف من خمسين صلاة، وأنها لو كانت صلاة واحدة كانت أخف علينا من الخمس."[1]، فاليسر صبغة الأحكام التشريعية؛ والله تعالى برحمته خفف على عباده وإن كانوا مطالبين بتطبيق الأحكام، فطرأ عليهم طارئ يحول دون تحقيقها فهم في حل من أدائها ما داموا في فترة عدم الاستطاعة، فهي رخصة من الله تعالى، وإن انتفت الطوارئ انتفت معها الرخص، وثبت التكليف.

لقد ورد لفظ اليسر في القرآن الكريم بمعان:

1- **الهين**: كما في قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾**[2] .

2- **الخفيّ**: كما في قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا. ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾**[3].

3- **قليل**: كما في قوله تعالى: **﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾**[4].

4- **التسهيل**: قوله تعالى: **﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾**[5].

1- ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الأفاق الجديدة، بيروت، دط، د ت، 94/4.

2- سورة الحج: 70 .

3- سورة الفرقان:45-46.

4- سورة يوسف:65 .

5- سورة البقرة: 185 .

5- **الرخاء والفرج**: قال تعالى: ﴿**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**﴾[1].

6- **السهل**: قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾[2] .

7- الوعد الحسن: في قوله تعالى: ﴿**وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا**﴾[3]. فمعنى اليسر في القرآن الكريم لم يخرج عن المعنى اللغوي.

ذُكر لفظ اليسر في القرآن المكي أكثر منه في القرآن المدني؛ حيث له دلالة على يسر الأحكام في بدايات الدعوة، وأن المكلف فيها له مسؤولية الالتزام كونه مؤمنا، فكان اليسر صبغة الأفعال المأمور بتطبيقها.

إن اليسر هو القاعدة العامة لأحكام الشريعة السمحة، ولولاه ما استطاع المكلف تأدية ما كُلِّف به، لقوله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾[4]، من الآية يتبين أن الله تعالى يريد:"أن ييسر عليكم ولا يعسر، وقد نفى عنكم الحرج في الدين، وأمركم بالحنيفية السمحة التي لا إصر فيها "[5]، فرحمة الله تعالى بعباده وسعت تيسير تكاليفه، ليخرجهم من المشقة، ليكون ذلك لنفعهم؛ "ذلك بأن الله لا يريد إعنات الناس بأحكامه وإنما يريد اليسر بهم وخيرهم ومنفعتهم، وهذا أصل في الدين يرجع إليه غيره ومنه أخذوا قاعدة "المشقة تجلب التيسير"[6] .

1- سورة الشرح: 5-6 .
2- سورة القمر:17-22-32-40 .
3- سورة الإسراء: 28 .
4- سورة البقرة: 185 .
5- الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق، 383/1.
6- رشيد رضا: محمد، تفسير القرآن الحكيم المشهور بـ"تفسير المنار"، دار المنار، القاهرة، ط2، 1366هـ/ 1947م، 164/2 .

إن نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم مثال راق في تطبيق هذه القاعدة، في كل حياته، السلوكية، التبليغية، وكان يختار كل ما يكون يسيرا ميسورا للعباد، ما لم يكن فيه إثم، أو معصية لله تعالى، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "**مَا خُيِّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَأْثَمْ، فَإِذَا كَانَ الإِثْمُ كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ، وَاللَّهِ مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ قَطُّ حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ**"[1] .

بعث الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم رسولا للعالمين، رحيما بهم، يطلب لهم اليسر، كما قال عليه الصلاة والسلام: "**إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلَا مُتَعَنِّتًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**"[2]، فالنبي عليه السلام بإنسانيته ورحمته لم يكن متشددا على الناس، ولا أن يلزمهم بما يشق عليهم، فهذه صفة النبي صلى الله عليه وسلم الذي وصفه القرآن الكريم بأنه أُرسل رحمة للعالمين ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾[3]، ووصفه بعظيم الخلق ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[4].

وكما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصا على جلب اليسر لأمته في كل شيء؛ كان يحث صحابته ومن حوله على ذلك، فعن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي صلى الله عليه وسلم دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ. قَالَ: "**مَنْ هَذِهِ**؟، قَالَتْ: فُلَانَةُ تَذْكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا. قَالَ: **مَهْ**[5]، **عَلَيْكُمْ بِمَا**

1- أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب:إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله، 160/8 .

2- أخرجه مسلم، كتاب الطلاق، باب: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، 187/4 .

3- سورة الأنبياء:107 .

4- سورة القلم: 4 .

5- أصل (مه) ما هذا؟ وهي للزجر بمعنى: اكفف.

تُطِيقُونَ فَوا للَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مادَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ"[1]، فكان عليه الصلاة والسلام يبغي اليسر في كل الأمور، ويأمر به حتى في الطاعات والعبادات.

وثبت أنه عليه الصلاة والسلام لما بعث معاذا وأبا موسى إلى اليمن قال لهما: "يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا"[2]، فهذه الرحمة المحمدية التي تتعدى كل الناس، وكل الأزمنة، وكل الأمكنة، لتنشر اليسر للناس في أداء ما كلفهم الله تعالى بتطبيقه. فالصحابة هم القدوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم، وهم وزراؤه وقضاته.

إن اليسر صَبَغَ كل ما يتعلق بحياة الإنسان في هذه الدنيا؛ فقد شمل الاعتقاد، والتشريع، والأخلاق.

الفرع الأول: اليسر في العقيدة

أُمر الإنسان أن يعبد الله تعالى وحده لا شريك له ويُخلص له الدين؛ وذلك لبناء النفس والروح والحياة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[3]، "مفردين له الطاعة، لا يخلطون طاعتهم ربهم بشرك"[4]، فعبادة الله تعالى مسؤولية عظيمة يتحملها الإنسان كونه شهد بذلك أول خلقه. والمسؤولية من الجانب الاعتقادي هو التزامه بالمحافظة على أركان الإيمان التي وردت في حديث جبريل

1- أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: أحب الدين إلى الله أدومه، 17/1.

2- أخرجه البخاري، كتاب الوصايا، باب: ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه...، 4/ 65. ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب: في الأمر بالتيسير وترك التنفير، 141/5 .

3- سورة البينة: 5 .

4- الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، 553/24 .

عليه السلام عندما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، فقال عليه الصلاة والسلام عن الإيمان: **"أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ "**[1]. فالحفاظ على الإيمان بهذا المقصد العام، حفاظ أيضا على كل ما يتعلق بهذه الأركان من مسائل فرعية عقدية.

إن العقيدة هي وجه الصلة الخاصة بين العبد وربه، وهي عنوان وجوده في الأرض، فمن رحمة الله تعالى أن يّسَر فهمها لكل عباده، لا تمييز بينهم، "ومنها: أن تكون التكاليف الاعتقادية والعملية مما يسع الأمي تعقلها، ليسعه الدخول تحت حكمها. أما الاعتقادية -بأن تكون من القرب للفهم، والسهولة على العقل، بحيث يشترك فيها الجمهور من كان منهم ثاقب الفهم أو بليدًا-، فإنها لو كانت مما لا يدركه إلا الخواص، لم تكن الشريعة عامة، ولم تكن أمية، وقد ثبت كونها كذلك، فلا بد أن تكون المعاني المطلوب علمها واعتقادها سهلة المأخذ"[2]. فمبادئ العقيدة ميسورة الفهم لكل الخلق، وهذا كيلا يكون لأحد حجة في الإيمان بالله تعالى كما أُمر، وعلى الوجه المطلوب للإتيان بأحكامه التفصيلية.

ومن يُسْر الإسلام في الجانب الاعتقادي للإنسان أنْ رفع عليه حرج الكفر إذا كان مكرها، ولم يؤاخذه على ذلك، قال تعالى: ﴿**مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[3]، "فإذا

1- أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب: معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة، 1/ 28.

2- الشاطبي: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، الموافقات في أصول الفقه، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط 1، 1417هـ/ 1997م، 2/ 141.

3- سورة النحل: 106.

أُكره على الكفر فأظهره بلسانه وهو معتقد الإيمان بقلبه ليدفع عن نفسه بما أظهر، ويحفظ دينه بما أضمر فهو على إيمانه، ولو لم يضمره لكان كافرا"[1]، فالإيمان إذا اختلط بدم المؤمن وروحه لن ينفصل عنه، وإن أُكره على الكفر وكان هذا حاله واضطر إليه فلا إثم عليه.

وفي المقابل فإن من ظلم نفسه بعبادة غير الله وهو على يقين بأن الله وحده لا شريك له، فسوف يُسأل، ويُحاسب، ويُحشر هو ومن كانوا معه إلى الجحيم ما لم يُضطرّ إلى الكفر بالله، قال تعالى: ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ. وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ**﴾[2]، ومن رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بالناس حرصه على إيمانهم كلهم، قال تعالى: ﴿**أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾[3]، "وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم محبا مخلصا لقومه وعشيرته، وذاق حلاوة الإيمان، وحزن لأنهم لم يؤمنوا، فينبهه الحق سبحانه وتعالى أن عليه مهمة البلاغ فقط، فلا يكلف نفسه شططا"[4]. فهذه صفات الأنبياء مع أقوامهم.

إن الإثم مرفوع عمن أُكره على الكفر وهو مطمئن بالإيمان، وبالمقابل فإن الله تعالى لم يجبر ولم يكره أحدا على اعتناق الإسلام، ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[5]، " إن

1- الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، النكت والعيون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د، ط، ت، 216/3 .

2- سورة الصافات:22-24 .

3- سورة يونس:99 .

4- الشعرواي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 6223/10 .

5- سورة البقرة:256 .

الرسول له مهمة البلاغ عن الله؛ لأن الله لم يرد خلقه مكرهين على التدين، إذن فالمبلغ عنه لا يكره خلقه على التدين"[1]. فاليسر مظلة الإيمان يجعل الإنسان في مأمن من الانحراف العقدي.

الفرع الثاني: اليسر في التشريع

إن العقيدة هي حبل الوصال بين العبد وربه، والتشريع هوالتئام اللحمات والروابط بين أفراد المجتمع؛ فالتشريع هو القواعد والقوانين التي تنظم العلاقات الانسانية. والله تعالى إذْ يفرض الأحكام التشريعية إنما للمصلحة العامة والكاملة للإنسان، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا. فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا**﴾[2]. "فإن التحاب والتآلف إنما هو بالإيمان والعمل الصالح..أي يلقي بينهم المحبة، فيحب بعضهم بعضا، فيتراحمون، ويتعاطفون بما جعل الله لبعضهم في قلوب بعض من المحبة"[3]، فالإيمان والعمل الصالح أساس كل الحب والتفاهم والتكامل بين الناس.

والنبي صلى الله عليه وسلم يبين معالم هذا الدين، فقال:"**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ. فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**"[4]، فهذا الحديث يؤسس لركيزة يسر الدين، في كل أحكامه، والمكلف مأمور بالتوسط، في التكاليف، والمداومة

1- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 1113/2 .

2- سورة مريم:96-98 .

3- ابن قيم الجوزية، الضوء المنير على التفسير، مصدر سابق، 196/4 .

4- أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: الدين يسر وقول النبي صلى الله عليه وسلم أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة، 1/ 16.

على تطبيقها قدر الاستطاعة، فهذا هو الهدي النبوي، والرحمة المحمدية بأمته، يأمرهم بتحري اليسر في كل شيء اقتداء به عليه الصلاة والسلام.

أنعم الله تعالى على خلقه بأن جعل السمع والبصر والفؤاد وسائل الفهم لأحكام القرآن الكريم، وفي الوقت نفسه جعلهم مسؤولين عليها فلا تكون في غير ما شرع الله تعالى، قال عزوجل: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾[1]، "فإن الله سبحانه لم يخلق خلقه سدًى هملا، بل جعلهم موردا للتكليف، ومحلا للأمر والنهي، وألزمهم فهم ما أرشدهم إليه مجملا ومفصلا، وقسمهم إلى شقي وسعيد، وجعل لكل واحد من الفريقين منزلا، وأعطاهم مواد العلم والعمل: من القلب، والسمع، والبصر، والجوارح، نعمة منه وتفضيلا"[2]، فالمسؤولية عظيمة أما الإنسان؛ لأن الله تعالى زوده بوسائل العلم والعمل، القلب والسمع والبصر، التي تيسير التعامل وتطبيق الأحكام.

ومن مظاهر اليسر أن الله تعالى جعل الرخصة في التكاليف الشرعية، إذا حصل ما ينفي القدرة على إتيانها، كالمرض، والسفر،... وجعل القدرة والاستطاعة، والإقامة أسباب القضاء في أيام أخر، أو أن يسقط في حق الذين لا يطيقونه الصيام أبدا، قال الله عزوجل: ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[3]، فهذا اليسر في الأحكام

1- سورة الإسراء:36 .

2- ابن قيم الجوزية، الضوء المنير على التفسير، مصدر سابق، 4/98 .

3- سورة البقرة:184 . ينظر تفسير الآية: الماوردي، النكت والعيون، 1/ 234 وما بعدها.

التشريعية، والتيسير على المكلف إنما ليكون المكلف في كامل قدرته واستطاعته البدنية، والعقلية في تطبيق الأحكام، وسير الحياة بما أراده الله تعالى كمستخلف في الأرض ليعمرها بما هو منصوص في القرآن الكريم والسنة النبوية.

لم يكن اليسر في الصيام فقط فقد شمل كل العبادات، الصلاة ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا**﴾[1]، والزكاة فلا تكون في كل شيء، وحددت في: الأنعام، والخارج من الأرض، والأثمان، وعروض التجارة، وبنسب محددة، والحج قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**﴾[2]، فالأحكام التشريعية متعددة وشاملة، وبدلا من الأحكام الأصلية تتيسر فتصبح أحكاما بديلة في مستطاع المكلف، وتتنوع حسب الحالات التي يكون عليها.

بالإضافة إلى الأحكام التعبدية، لم يغب اليسر عن الأحكام التعاملية، في أحكام الأسرة، التجارة، في القصاص والحدود،..

الفرع الثالث: اليسر في الأخلاق

تصّدر عن الإنسان أعمالا وسلوكات، تجعله في وصال مع المجتمع الذي يعيش فيه؛ مع أسرته، مع أصحابه، ومع المجتمع، فيصدر عنه الخير والشر تبعا للطبيعة الإنسانية، فالإسلام يلزِم الإنسان بالأخلاق الإسلامية، وهذا الإلزام خاصيته اليسر في التطبيق العملي. وأعظم من كان

1- سورة النساء: 43 .

2- سورة البقرة:196.

متخلقا بشهادة القرآن النبي صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[1]، "والخلق العظيم: هوالخُلق الأكرم في نوع الأخلاق، وهو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان لاجتماع مكارم الأخلاق في النبي (صلى الله عليه وسلم)، فهو حسن معاملته الناسَ على اختلاف الأحوال المقتضية لحسن المعاملة، فالخلق العظيم أرفُع من مطلق الخلُق الحسن. الخلُق العظيم: هو أدب القرآن، ويشمل ذلك كل ما وصف به القرآن محامد الأخلاق، وما وصف به النبي صلى الله عليه وسلم"[2]، فالأخلاق منشؤها القرآن الكريم والسنة النبوية، والإنسان ملزم بالاتصاف بها والتحلي بها، ومادامت من القرآن والسنة فهي من قدرة المكلف، وفي مستطاعه، ويسيرة، ليس للمكلف الحجة في عدم الالتزام بها.

لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يربي صحابته رضوان الله عليهم على حسن الخلق، واليسر في التعامل بأخلاق الإسلام، فعن أَبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ أعرابيا بال في المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"دَعُوهُ وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ أَوْ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ"**[3]. فخلق الرحمة العالي والعظيم من النبي صلى الله عليه وسلم تجاه الصحابة ثم تجاه الأعرابي، رغم أن الفعل الذي قام به الأعرابي عظيم، ولا يطيق رؤيته مسلم، قابله بهذه السهولة واليسر في المعاملة والحديث، ثم جعل اليسر قاعدة يتعامل بها المسلمون مع كل الناس.

1- سورة القلم: 4 .

2- ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، 29 / 64.

3- أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: قول النبي صلى الله عليه و سلم (يسروا ولا تعسروا)، 5/ 2269.

إن أخلاق الإسلام كلها يسر، وإنما كانت هذه الأخلاق لتنظم حياة الإنسان وتزيد من لحمة المجتمع بكل طبقاته، وهي تمثل الجانب الإنساني والنفسي للإنسان، وبدونه لا يكتمل كيانه، ولا يكون توازنه.

ومن الأخلاق العظيمة للنبي عليه الصلاة والسلام رفقه بأمته، وإن كان ذلك في العبادت كالصلاة، فعن أبي قتادة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ"**[1]، فالنبي صلى الله عليه وسلم يأمر أمته بالرفق بأفرادها الضعفاء، وأن لا يشقوا على أمته من بعده، وهذا من حسن الخلق ويسره.

والأمثلة كثيرة المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم في رفقه بأمته، وابتغاء اليسر في كل الأمور.

والبر جماع الأخلاق كلها، قال صلى الله عليه وسلم: **"الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ"**[2]، هذا التعريف المختصر في عباراته والكامل والشامل في معناه، يجعل مجال حياة الإنسان فسيحة عامرة بالخير، فالالتزام بالأخلاق الإسلامية مسؤولية عظيمة، وتطبيقها على أكمل وجه من الجهاد في سبيل إرضاء الله تعالى، وتحقيق مهمة الاستخلاف في الأرض، وإعمارها بيسر الأخلاق.

1- أخرجه البخاري، كتاب الجماعة والإمامة، باب: من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، 1/ 143.

2- أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تفسير البر والإثم، 6/8.

والنبي صلى الله عليه وسلم كانت حياته كلها يسر وأخلاقه دليل ذلك؛ في عباداته، وتعاملاته، ودعوته،... وكان يحث الصحابة على اليسر والأخلاق الحميدة، فإن رأى تشددهم ردهم برفقه وأخلاقه إلى ما تستطيعه أنفسهم إلى اليسر واللين، لها صفة اليسر والليونة وإن اختلفت معانيها، فلا يمكن حصر الأخلاق في عدد محدد، لكن الأخلاق مخرجها اليسر والرفق .

المطلب الثالث: التكافل التكليفي

استُخْلِف الإنسان في الأرض ليعمرها، وأُمر بتطبيق شريعة الله تعالى التي ألزمه اتباعها، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم الذي أُرسل ليرشده إلى طريق الحق، وجعله يعيش مع مجتمع يحيا بهم ويحيون به، وهذه الحياة تنظمها قواعد وأنظمة، ومن أسمى الأنظمة نظام التكافل.

إن العالم بُني على أساس الذكر والأنثى، ومنهما تكاثر الناس وَعمرت الأرض، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾[1]، "يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوبا،.. فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم"[2]، فوحدة الخلق، ثم تنوعه يجعل العالم في تناغم وتواصل يضفي على الكون التوازن والجمال.

إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش رهبانية في حياته؛ إذ لابد له من أناس يألف بهم ويألفون به، ولذلك كان التكافل بين الناس على مستويات؛ التكافل على المستوى الأسري، والتكافل المستوى الاجتماعي، والتكافل المستوى الإنساني.

1- سورة الحجرات: 13.

2- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، 7/ 385.

الفرع الأول: التكافل على المستوى الأسري

تُبنى الأسرة على أساس الرجل والمرأة، وتعاليم الإسلام وهديه ينظم العلاقة التي بينهما تحت مظلة المودة والرحمة، هذه المظلة التي تحمي هذه الأسرة من كل ما من شأنه أن يهدمها، أو يعصف بها، قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[1]، فالله تعالى "جعل بين الزوجين المودة والرحمة فهما يتوادّان ويتراحمان، وما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر من غير رحم بينهما"[2]، فهذه الرحمة الإلهية التي قذفها الله تعالى في نفوس المتزوجين هي التي تبني الأسرة على أسس التفاهم، والتراحم، والتوازن، والتزام كل واحد من الأسرة بمسؤولياته تجاه الآخر.

إن مسؤولية الرجل والمرأة تبدأ من يوم الاختيار لكل منهما للآخر، فالرجل مطالب بنص النبي صلى الله عليه وسلم بأن يختار ذات الدين، فقال عليه الصلاة والسلام: " **تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ**"[3]. إن الرسول صلى الله عليه وسلم بين "أن هذه الخصال الأربع هي التي يرغب في نكاح المرأة لأجلها، فهو خير عما في

1- سورة الروم:21.

2- البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، ط 4، 1417 هـ - 1997 م، 6/ 266.

3- أخرجه البخاري، كتاب النكاح، بَاب: الأكفاء في الدين وقوله:﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا**﴾، 7/7. ومسلم، كتاب: الرضاع، باب: استحباب نكاح ذات الدين، 2/ 1086.

الوجود من ذلك لا أنه وقع الأمر بذلك، بل ظاهره إباحة النكاح لقصد كل من ذلك لكن قصد الدين أولى"[1]، فالدين أساس بناء الحياة الزوجية، وعليها يتربى الأولاد، ويكون التعامل.

جاءت تعاليم الإسلام تحث على التكافل بين أفراد الأسرة؛ حيث جعله الوتد الذي يثبت علاقاتهم، ويحميها من كل خصومة أو سوء تفاهم قد يهدم أعمدة هذه الأسرة فيفككها، والأعمدة الرئيسة لهذه الأسرة هما الزوجان بما لهما من حقوق، وما عليهما من واجبات. فالأسرة بحاجة لهذا الوتدين لاستمرار قيامها وثبوتها، وذلك بتحمل كل واحد منهما مسؤولياته تجاه أفرادها، وهو ما ثبت في حديثه صلى الله عليه وسلم حيث قال: **"كُلُّكُم رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"**[2]، فمسؤولية كل من الرجل والمرأة مسؤولية فردية باعتبار فطرته، ثم المسؤولية بحسب العمل المنوط به، والملزم بأدائه باعتبار مكانته في الأسرة.

إن الله تعالى يخاطب الرجل والمرأة على السواء بالقيام على أسرته والمحافظة عليها، ووقايتها من أن تقع في التفكك الدنيوي والهلاك الأخروي، بالالتزام بالدين في قيام العلاقات الأسرية سواء بين الرجل والمرأة، أم مع الأولاد وغيرهم في الدنيا، فقال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ**

1- العسقلاني: شهاب الدين ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 2، د ت، 25 / 242 .

2- سبق تخريجه، ص:10 .

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1]، فالله تعالى حمّل الرجل مسؤولية أسرته من الزوجة والأولاد، وميزه بالقوامة، بكل ما تحمله الكلمة من مسؤولية؛ فهو بقوامته مسؤول عن الإنفاق عليهم، ورعايتهم، وتربيتهم التربية الدينية والإيمانية الأساسية لحياتهم، وحثهم على طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

والمرأة في الأسرة مسؤوليتها لا تنقص عن مسؤولية الرجل وذلك بصريح القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2]، وقد جاء في تفسير الآية الكريمة "ويجب لهن من الحق على الرجال مثل الذي لهم عليهن، ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾: بالوجه الذي لا ينكر في الشرع، وعادات الناس فلا يكلفنهم ما ليس لهن ولا يكلفونهن ما ليس لهم ولا يعنف أحد الزوجين صاحبه، والمراد بالمماثلة: مماثلة الواجب الواجب في كونه حسنة، لا في جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل نحو ذلك، ولكن يقابله بما يليق بالرجال، ﴿دَرَجَةٌ﴾: زيادة في الحق وفضيلة، قيل: المرأة تنال من اللذة ما ينال الرجل، وله الفضيلة بقيامه عليها وإنفاقه في مصالحها"[3]، فالمعاشرة الزوجية وتقاسم المسؤولية حسب الفطرة، وحسب القدرة، فلا تكون مزايدات ولا المعاملة بالمثل، وهذا يربي في نفس الرجل والمرأة عدل الله ورحمته بخلقه في توزيع المسؤولية بحسب طاقة الإنسان وقدرته.

إن المسؤولية الزوجية عظيمة على الزوجين تجاه أبنائهم، فالزوج مطالب بتوفير الرعاية المعنوية والمادية لهم؛ كالأمن، والطعام، والشراب، والتربية الحسنة، والزوجة مطالبة بتهيئة الجو ليستطيع الزوج

1- سورة التحريم: 6 .

2- سورة البقرة: 228 .

3- الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق، 442/1 .

أداء مسؤوليته، ولا يخلو الأمر من أن مسؤولية الزوجة تماثل مسؤولية الزوج؛ كل حسب قدرته وأصل خلقته، ومكانته في الأسرة .

ثالثا: التكافل على المستوى الاجتماعي

بُني المجتمع على مجموع الأسر، فهي لبناته وركائزه، والعلاقات التي بين أفراده هي الروابط التي تُثبِّت التلاحم، والتكامل، والتعارف، والتآخي. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1]، إن خطاب الله تعالى للناس أي "للذين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. والمعنى: خلقكم من نفس آدم، وخلق منها أمكم حواء، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء غيركم من الأمم الفائتة للحصر"[2]

إن الإيمان هو النور الذي يتجمع حوله المؤمنون، وعلى أساسه يهتدون، والإسلام منهجهم في التطبيق، والتعامل ليستقيم أمرهم، وتتيسر حياتهم، فقد وصفهم الله تعالى بالأولياء، قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3]، فحق الولاية أن يكون الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فيما فيه مصالح العباد، وهذا الأمر والنهي مرتبطان بإقامة الصلاة؛ التي هي العلاقة الروحانية بين الله تعالى وعباده؛ حيث تنهى عن

1- سورة النساء: 1.

2- النسفي، مدارك التنزيل، مصدر سابق، 326/1 .

3- سورة التوبة: 71.

أفعال الفحش والمنكر. وإعطاء الزكاة لمستحقيها، ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾[1]، تعضد أواصر التكافل داخل المجتمع، وتنظم العلاقات، وتقضي على الفقر الذي يتسبب في الانحرافات، وتنظم مال الأغنياء لينمو بالطرق الشرعية، فينفع وينتفع.

هذا التكافل بين أفراد المجتمع الذي جاء الإسلام ليحققه، مثَّلَه الرسول صلى الله عليه وسلم أحسن مثال بالتعبير عن ذلك بتشبيك الأصابع ليستقر المعنى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ**"[2]. "وهذا التشبيك من النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث كان لمصلحة وفائدة، لم يكن عبثا؛ فإنه لما شبه شد المؤمنين بعضهم بعضا بالبنيان، كان ذلك تشبيها بالقول، ثم أوضحه بالفعل، فشبك أصابعه بعضها في بعض؛ ليتأكد بذلك المثال الذي ضربه لهم بقوله، ويزداد بيانا وظهورا. ويفهم من تشبيكه: أن تعاضد المؤمنين بينهم كتشبيك الأصابع بعضها في بعض، فكما أن أصابع اليدين متعددة فهي ترجع إلى أصل واحد ورجل واحد، فكذلك المؤمنون وإن تعددت أشخاصهم فهم يرجعون إلى أصل واحد، وتجمعهم أخوة النسب إلى آدم ونوح، وأخوة الإيمان."[3]، وما يزيد المعنى تأكيدا على قوة المؤمنين في اتحادهم، هو حبهم لبعض، وعطف بعضهم على بعض وكأنهم جسد واحد، فعن النعمان بن بشير قال قال رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: **مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ**

1- سورة البقرة: 177.

2- أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، 5/ 2242. ومسلم،كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، 8/ 20.

3- ابن رجب الحنبلي: زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن شهاب الدين البغدادي الدمشقي، فتح الباري، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط 2، 1422هـ، 2/ 584.

الْجَسَدِإِ ذَا اشْتَ كَى ِ مْنهُ عُ ضْوٌ تَ دَاعَى لَهُ سَائِ رُ الْجَسَدِ بِ السَّهَرِ َوالْحُمَّى"[1]، فالأصابع من اليد، واليد من الجسد، والجسد هو نقطة تجمع الأعضاء وتآلفها، واتحادها في أداء الجسد مهمته، والمؤمنون كلهم جسد واحد يتعاطفون ويتحدون، ويتآلفون لخدمة هذا المجتمع، تحت مظلة نظام التكافل الاجتماعي المتكامل.

إن التكافل الاجتماعي يجعل أفراد المجتمع في استعداد للمحافظة على لحمة المجتمع، وتقاسم أفرادها السراء والضراء فيما بينهم، ولقد َ مثَّل النبي صلى الله عليه وسلم لهذا المعنى مثالا رائعا يلخص معنى التكافل بين أفراد المجتمع لا يحتاج بعده إلى بيان لمن فهم وطبق، قال صلى الله عليه وسلم: **"َمثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ َوالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا َوبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ َمرُّوا عَلَى َمنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا َولَمْ نُؤْذِ َمنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ َومَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، َوإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا َونَجَوْا جَمِيعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً"**[2]، فهذا الحديث الشريف مثال ثان رائع يبين أن المجتمع لا يجب أن ينقسم، ولا أن تكون المصالح الشخصية تغلب على المصالح العامة، وأن اتباع حدود الله، والاستقامة على شرعه يحمي الإنسان من الوقوع في ما حرم الله تعالى فيضر بنفسه وبالمجتمع، فذلك مثاله السفينة التي هي الدنيا؛ فالإنسان مطالب بإقامة حدود الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لينجو من عقاب الله تعالى

1- أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، 8/ 20 .

2- أخرجه البخاري، كتاب: الشركة، باب: هل يُقْرَعُ في القسمة والاستهام فيه، 139/3 .

وينجو المجتمع من بنجاته، فتكون قناعة الفرد بنصيبه في الدنيا، ولا يتعدى على أنصبة غيره يخسر هو ويخسر المجتمع لو كان كل أفراده على هذه الشاكلة.

إن كل فرد في المجتمع مأمور، ومسؤول من حيث وجُوده في المجتمع أن يؤدي واجبه الاجتماعي بإخلاص وفعالية؛ بحيث يَؤُثِّر بمهامه في تطور مجتمعه، وتحضره، قال الله تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾[1]، إن الأخلاق من أهم المقاصد التي يدعو إليها الإسلام، فهي فيتامينات المجتمع؛ التي بها يقوى، "فمكارم الأخلاق ضرورة اجتماعية، لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لابد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان، تَفَكّك أفراد المجتمع، وتصارعوا، وتناهبوا مصالحهم، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار، ثم إلى الدمار"[2]، فقيام المجتمع أساسه التعاون والتظافر بين أفراده في القيام به، والأخلاق تجعلهم في تواصل دائم أساسه البر؛ الذي هو جماع الخير كله، فيما بينهم والتعاون على أساسه.

إن الأخلاق أربطة تشد فصائل المجتمع، وتحفظه من التشتت، والانفصام، "وإذا كانت الأخلاق في أفراد الأمم تمثل معاقد[3] الترابط فيما بينهم فإن النظم الإسلامية الاجتماعية تمثل

1- سورة المائدة: 2 .

2- الميداني: عبد الرحمن حسن حبنكة، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ط 5، 1420 هـ/1999 م، 1/ 34 .

3- المعقد: مواضع العقد من النظام، ينظر: ابن فارس، 87/4. مادة (عقد).

الأربطة التي تشد المعاقد إلى المعاقد، فتكون الكتلة البشرية المتماسكة القوية، التي لا تهون ولا تستخذي"[1]

إن الإسلام هو حبل الله المتين، وعلى أساسه يجب أن تبنى العلاقات الاجتماعية بين أفراده، انطلاقا من أمر الله تعالى بالاعتصام بشرعه ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[2]، ففي الآية الكريمة تبين مظهر التكافل الاجتماعي الرباني، المبني على القرآن الكريم، فالأخوة نتيجة الالتزام بشرع الله تعالى، "إنه مجتمع رباني يقوم على الإيمان بالله مشرعا، ومنظما لجميع أموره وعلاقاته، ودستوره وقيمه، ومثله العليا، وباعثا أواصر المحبة بين أفراده، ولتصحيح مساره، ومراقبة حكامه، وإقامة التعاون والتكافل والتضامن بين جميع هيئاته، ومؤسساته، وأفراده"[3]، هذه الأخوة؛ إنها القانون الإلهي الذي لابد أن يتجسد ويتعمق في نفسية كل مسلم، إنها قانون التراحم والتآزر، والتعاون المجتمعي، وهي من المظاهر الأساسية في التكافل الاجتماعي.

ثالثا: التكافل على المستوى الإنساني

إن الله تعالى خلق الإنسان وجعل فيه غريزة التجمع، فهذا التجمع الإنساني خلقه الله تعالى وجعل التعارف مفتاح التلاقي والتبادل والتكافل، فكان منصوصا في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

1- الميداني، الأخلاق الإسلامية، مرجع سابق، 35/1 .
2- سورة آل عمران:103 .
3- النحلاوي: عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، دار الفكر العربي، ط3، 1425هـ، ص:42 .

أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]، "وفي التذكير بالأصل الإنساني الواحد دلالة على وجوب التزام حدود الإنسانية، وأن الإنسان أخ الإنسان أحب أم كره، والأخوة تقتضي المسالمة والتعاون ونبذ المحاربة والخصومة والتقاطع"[2]، فالتكافل الإنساني امتداد للتكافل الأسري، ثم الاجتماعي، فهي ثلاثية متكاملة متكافلة، ماديا ومعنويا، تتكامل وتتكافل مع الكون لبنائه، وإعماره، يجمع بينهم الإحساس بوحدة المنشأ، ووحدة المصير.

إن الذي يضمن التكافل الإنساني من التمكن، والاستمرار، هو التزام أمانة الاستخلاف، وأمانة إعمار الأرض، فهي عمود التعاون والتآخي، إذ "كيف يكون التعايش بين الناس في أمن واستقرار، وكيف يكون التعاون بينهم في العمل ضمن بيئة مشتركة، لولا فضيلة الأمانة؟. كيف تكون أمة قادرة على إنشاء حضارة مثلى لولا فضائل التآخي والتعاون والمحبة والإيثار؟"[3]. فالأمانة من الصفات الثابتة التي اختصت بها أمة النبي صلى الله عليه وسلم.

إن الأنظمة التي تُسيِّر بها الدول شؤون شعوبها، وإن اختلفت توجهاتها ومصادرها، يبقى النظام الإسلامي أحسن وأفضل وأسمى نظام وُضِع لخير الإنسانية، فالتشريع الرباني يوحد الناس على مبادئ لصالحهم، ويدعوهم لأفضل الأعمال، وأنبل الأخلاق، لتعيش الإنسانية تحت ظل العدل والأمانة، ويجنبها الرذائل والظلم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[4]، فالدين الذي ارتضاه الله تعالى

1- سورة الحجرات: 13.

2- الزحيلي: وهبة، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، دمشق، ط2 /2003 م، 556/3 .

3- الميداني، الأخلاق الإسلامية، مرجع سابق، 34/1 .

4- سورة الأنعام:153 .

للإنسانية، هو الذي أُمِرَ باتباعه، دون النظر إلى اللون ولا الجنس، لأنه يجمعهم على كلمة واحدة فيها خير الإنسانية، وتحضرها، وفوزها في الدنيا والآخرة، " ففي ضوء القرآن يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة، وتتحكم في تطورها.

والدين على هذا يبدو وكأنه مطبوع في النظام الكوني، قانونا خاصا بالفكر، الذي يطوف في مدارات مختلفة، من الإسلام الموحد إلى أحط الوثنيات البدائية، حول مركز واحد، يخطف سناه الأبصار، وهو حافل بالأسرار ... إلى الأبد"[1] . فالدين هو الذي يجمع أفراد المجتمع، ملزمون بتأدية أحكامه فرادى وجماعات.

إن التكافل يشمل كل ما في الكون، فلا يختص بالتكافل الإنساني فقط، فيتعدى إلى الحيوان والجماد، لأنها من تمام خلق الكون، وكلها في خدمة الإنسان، وهم في تكامل وتكافل،فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" **بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ بِي فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا فَقَالَ نَعَمْ فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**"[2]، فالشاهد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى جعل الرحمة في نفس الإنسان تجاه كل المخلوقات حتى الحيوان، لأنها مسخرة له لإتمام عمارته وتحقيق خلافته في الأرض، فبذلك يكون التكافل في أدق وأخفى المواقف.

1- مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط4، 1987م، ص: 300 .

2- أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، 8/ 9 .

إن عالمية الإسلام، وانتشاره بتعاليمه الرحيمة، والشاملة جعلته يظهر على كل الأنظمة، وقد كان الإسلام سباقا لتطبيق نظام التكافل؛ حيث "إن شمول التكافل الاجتماعي في الإسلام جعلت البشرية جمعاء تدرك عظمة هذا الدين، وعن القصور الواضح فيما تنادي به الأنظمة التربوية المعاصرة من حقوق للإنسان وللحيوان، سبق إليها الإسلام وحث عليها، فالأمر بالإحسان في الإسلام شامل لكل شيء، فهو دين الرحمة والتراحم."[1]، وهذا ما جعل معتنقيه في ازدياد، لتعاليمه الرحيمة والكاملة والشاملة.

ولقد أجمل الكيلاني المسؤولية الاجتماعية وجعلها متضمنة في دوائر وميادين بعضها أكبر من بعض؛ وهي تبدأ بالفرد وتنتهي بالإنسانية؛ فمسؤولية الفرد عن نفسه وعن ما منحه الله من قدرات عقلية وسمعية وبصرية وجسدية ونفسية ليستعملها فيما خلقت له طبقا لأوامر الله ونواهيه. مسؤولية الفرد عن أسرته مسؤولية الأرحام بعضهم عن بعض. مسؤولية الفرد عن الأمة، ومسؤولية الأمة عن الفرد. مسؤولية الجيل عن الأجيال اللاحقة وكل ما يساعدها على عبور مستقبلها بنجاح، مسؤولية الأمة عن الأمم، مسؤولية الإنسان عن المخلوقات باعتباره خليفة الله في أرضه. وتتسع هذه المسؤولية حتى تشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد[2] .

1- سلطان بن عوض مطلق الجعيد، التكافل الاجتماعي في ضوء التربية الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، دط، 1429هـ/1430، ص:69 .

2- ينظر: الكيلاني: ماجد عرسان، فلسفة التربية الإسلامية، مكتبة هادي، مكة المكرمة، ط2، 1409هـ، ص:202 .

وهكذا يبقى التكافل من المسؤولية التي ألزمها الإسلام الأفراد، والأمة، والمجتمع، وجعلهم مسؤولون كل من موضعه، ومكملا لغيره على امتداد التكافل إلى الإنسانية جمعاء، فهم مسؤولون عنها في الدنيا والآخرة .

مما سبق تلخصت المترتبات التكليفية في: الترتب التكليفي للمسؤولية فشمل: الوسع التكليفي، اليسر التكليفي شمل اليسر في العقيدة، والتشريع، والأخلاق. التكافل التكليفي. أما التكافل فشمل التكافل على المستوى الأسري، والمستوى الاجتماعي، والمستوى الإنساني.

المطلب الأول: الجزاء باعتبار المكلف الفردي والجماعي

حين استُخلف الإنسان في الأرض، وأُمر أن يعمرها وفق المنهج الرباني ليُمكّن فيها وتكون له الحرية في التصرف في خيراتها على أساس الإيمان، كان مسؤولا أمام الله تعالى عن كل ذلك، قال الله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا**﴾[1]، هذا الاستخلاف، وهذا التمكين مسؤول عنه الإنسان، في الدنيا والآخرة، ولا يكون معنى لهذه المسؤولية دون أن يكون عليها جزاء.

إن الجزاء المترتب المسؤولية، والمُنْبَنِي عليها، يتعلق بالمكلف سواء أكان فردا أم جماعة، على قدر المسؤولية الفردية والجماعية.

الفرع الأول: الجزاء باعتبار الفرد

إن الإنسان بحكم وجوده في المجتمع ملزم بأن يتحمل مسؤوليته المنوطة به تجاه كل من له عليه حق، من نفسه إلى أمته إلى الإنسانية، ولن يكون لهذه المسؤولية قيمة إلا إذا ترتب عليها جزاء، إما بالخير أو بالشر، قال الله تعالى: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾[2]، فالجزاء على أعمال الفرد بيد الله تعالى، فأعطى الله تعالى حساب الأعمال الحسنة وما يعادلها، فمن كان عمله حسنا "فله عشر حسنات أمثالها، أي له من الجزاء

1- سورة النور: 55 .

2- سورة الأنعام: 160 .

عشرة أضعاف مما يجب له. ويجوز أن يكون له مثل، ويضاعف المثل فيصير عشرة. والحسنة هنا: الإيمان. أي من جاء بشهادة أن لا إله إلا الله فله بكل عمل عمله في الدنيا من الخير عشرة أمثاله من الثواب. ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ يعني الشرك ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو الخلود في النار؛ لأن الشرك أعظم الذنوب، والنار أعظم العقوبة؛ .. يعني جزاء وافق العمل. وأما الحسنة فبخلاف ذلك؛ لنص الله تعالى على ذلك... ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص ثواب أعمالهم."[1]؛ فرحمة الله تعالى بالإنسان تحفزه على فعل الخير، وعدم التخاذل في المداومة والاستمرار على ذلك لأن الجزاء مغرٍ، فمن الذي يجازي على عمل واحد حسن، فيه الخير لعامله، عشرة أضعاف مثل الذي عمله إلا الله تعالى. ومن رحمته تعالى أن يكون جزاء العمل السيئ مثله.

إن السنة النبوية أثبتت ما جاء به القرآن الكريم، وشرحت كيف يكون الجزاء للمؤمن والكافر، فعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا** "[2]، فالمؤمن فائز في الدنيا والآخرة، وجزاؤه جزاء أوفى. والكافر لا يُظلم حقه في الدنيا فحسناته ترجع له في دنياه وتنفد فيها، وما له في الآخرة من حسنة.

ولقد ثبت الأجر في الدارين لكل فرد، في الدنيا والآخرة، كما كانت المسؤولية لكل فرد، بصريح القرآن الكريم، "وقد دل القرآن في غير موضع على أن لكل من عمل خيرا أجرين: عمله في

1- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، 151/7.

2- أخرجه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة، وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا، 135/8 .

الدنيا ويكمل له أجره في الآخرة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]،... فوعد عباده أن لهم عنده في الآخرة من النعم أضعاف هذه بما لا يدرك تفاوته، وأن هذه من بعض نعمه العاجلة عليهم، وأنهم إن أطاعوه زادهم إلى هذه النعم نعما أخرى، ثم في الآخرة يوفيهم أجور أعمالهم تمام التوفية"[2]، فالفرد يعيش في الدنيا جزاء عمله الصالح، والجزاء الأوفى والكامل في الآخرة دار البقاء.

والعمل الصالح مأمور به الذكر والأنثى – على السواء- كأفراد كل واحد منهما كيان مستقل بذاته، كونهما مستخلفين في الأرض، أساس هذا العمل عبادة الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[3]، فالعمل الصالح يتعلق بالذكر والأنثى، ولم يُحتكر على الذكر دونها، "﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي بعضها حال كونه ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ وحال كونه مؤمنا، والحال الأولى لبيان من يعمل، والحال الأخرى لإفادة اشتراط الإيمان في كل عمل صالح، ﴿فَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى العمل المتصف بالإيمان... ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ أي لا ينقصون شيئا حقيرا"[4]، فالجزاء يلحق الذكر والأنثى، ولا يميز بينهما باعتبارهما أفرادا، فعدل الله تعالى لا يميز بين الذكر والأنثى، فالاعتبار بالإيمان والعمل الصالح.

1- سورة النحل: 97 .

2- ابن قيم الجوزية: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ، 3/437- 438 .

3- سورة النساء: 124 .

4- الشوكاني، فتح القدير، مصدر سابق، 1/519.

إن هذه الآية الكريمة تدل على الجزاء الفردي بذكر النفس الدالة على الواحد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾[1]، ومعنى الآية لتُجزى كل نفس بسعيها، أي: بعملها خيراً كان أو شراً"[2]، فالنفس ستجازى عن عملها كان العمل خيرا أم شرا.

إن العمل الصالح المأمور بتحقيقه الفرد في الأرض وهو مؤمن، مقدمة لجزاء متميز، وهو العيش متمتعا بطيبات الدنيا، ويحيا أيامه في أمن وسلامة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[3]، "هذه هي النتيجة الطبيعة للعمل الصالح الذي يبتغي صاحبه وجه الله والدار الآخرة، فيجمع الله له حظين من الجزاء، حظاً في الدنيا بالحياة الطيبة الهانئة، وحظاً في الآخرة"[4]، فكل فرد مؤمن يسعى لإرضاء الله تعالى بعمله الصالح، يحظى بالجزاء الأوفى الدنيوي والأخروي.

إن جزاء الأفراد ثبت لهم أو عليهم في الكتاب والسنة النبوية، وبما أن الفرد لا يمكن أن ينعزل بالعيش دون وجود الجماعة، فللجماعة أيضا جزاء.

الفرع الثاني: الجزاء باعتبار الجماعة

إن الفرد يكمل الجماعة، والجماعة تكمل الفرد، وكل منهما يتحمل مسؤوليته تجاه الآخر، وانطلاقا من هذه المسؤولية وحسب درجتها يكون الجزاء عليها، فكما كان الجزاء للفرد عن أعماله،

1- سورة طه: 15 .

2- ابن عجيبة: أحمد بن محمد بن المهدي الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس، البحر المديد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1423هـ/ 2002 م، 4/ 385.

3- سورة النحل:97 .

4- الشعراوي، تفسير الشعراوي، 9 /8197 .

فللجماعة كذلك الجزاء، قال الله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] "والذين اتّقوا: هم المؤمنون لأن الإيمان تقوى الله وخشية غضبه. والمراد بهم المؤمنون المعهودون في مكّة، والمعنى أنّ المؤمنين سئلوا عن القرآن، ومن جاء به، فأرشدوا السائلين ولم يتردّدوا في الكشف عن حقيقة القرآن بأوجز بيان وأجمعه، وهو كلمة ﴿خَيْرًا﴾ المنصوبة، فإن لفظها شامل لكلّ خير في الدّنيا، وكلّ خير في الآخرة. والّذين أحسنوا: هم المتقون فهو من الإظهار في مقام الإضمار توصّلا بالإتيان بالموصول إلى الإيماء إلى وجه بناء الخبر، أي جزاؤهم حسنة لأنهم أحسنوا."[2]، فهذا الجزاء الجماعي الذي أقره القرآن الكريم للجماعة الأولى- ومن بعدها كل جماعة مؤمنة- نتيجة الإيمان والتقوى، الذي يحمي الجماعة المؤمنة، ويجعلها حصنا صامدا.

إن الجماعة الخيرة، والمتكاتفة، والمتكافلة، هي التي يجمعها الإيمان والعمل الصالح، وجزاؤها على ذلك جزاء رباني متميز، قال الله تعالى:﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾[3]، فقوله تعالى "﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعم المهاجرين والأنصار والذين آمنوا من أهل الكتاب وغيرهم. ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ تخصيص للمنزل عليه مما يجب الإيمان به، تعظيما له وإشعارا بأن الإيمان لا يتم دونه، وأنه الأصل فيه، ولذلك أكده بقوله ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ .... ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ سترها بالإيمان وعملهم الصالح ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ في الدين والدنيا بالتوفيق

1- سورة النحل:30 .

2- ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، 14 /141- 142 .

3- سورة محمد: 2 .

والتأييد"[1]، فالمؤمن في رعاية الله تعالى وحفظه، وهو من تأييد الله تعالى وتوفيق منه جزاء لهذا المؤمن على التزامه بالعمل الصالح المنبثق من الإيمان.

إن الجماعة المسلمة يكونها مجموع أفرادها من المؤمنين والمؤمنات، وتكافلهم، وتعاونهم وإذ وعدهم الله تعالى بالجزاء العظيم رحمة بهم، فمن كان في رحمة الله فقد حاز الخير كله، وشرط هذا الجزاء التزام هذه الجماعة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء للزكاة، قال الله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[2]، "إن طبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المؤمنة. طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل، وطبيعة التضامن، ولكنه التضامن في تحقيق الخير ودفع الشر ﴿**يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ وتحقيق الخير ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون. ومن هنا تقف الأمة المؤمنة صفاً واحداً. لا تدخل بينها عوامل الفرقة. وحيثما وجدت الفرقة في الجماعة المؤمنة فثمة ولا بد عنصر غريب عن طبيعتها، وعن عقيدتها، هو الذي يدخل بالفرقة. ثمة غرض أو مرض يمنع السمة الأولى ويدفعها. السمة التي يقررها العليم الخبير ﴿**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾ يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعلاء كلمة اللّه، وتحقيق الوصاية لهذه الأمة في الأرض"[3]، هذه المقدمات العظيمة، والجامعة لأصل استخلاف الإنسان، وقيام الجماعة المؤمنة بما هم مأمورون به، ولا يكون إلا

1- البيضاوى، تفسير البيضاوى، دار الفكر، بيروت، د ط، د ت، 5/ 188 .

2- سورة التوبة: 71 .

3- سيد قطب، الظلال، مصدر سابق، 1675/3 .

بالولاية التي تنم على الاجتماع والتكافل، والتعاون. وهذا التلاحم بين أفراد الجماعة المؤمنة، لن يجعل التفرق، ولا الفتنة تنخر علاقاتهم وأواصر تلاحمهم.

إن هذا الالتزام بالأوامر الإلهية، لن يكون الجزاء إلا إلاهيا، ولن يكون إلا الجزاء الأوفى، فكان الجزاء الرحمة، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ "والرحمة لا تكون في الآخرة وحدها، إنما تكون في هذه الأرض أولاً ورحمة الّله تشمل الفرد الذي ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح. رحمة الّله في اطمئنان القلب، وفي الاتصال بالّله، وفي الرعاية والحماية من الفتن والأحداث. ورحمة الّله في صلاح الجماعة، وتعاونها وتضامنها، واطمئنان كل فرد للحياة واطمئنانه لرضاء الّله."[1]، فمن رحمه الله تعالى فقد فاز، وهنأ في حياته، واستقر الفرد، وبه تستقر الجماعة .

فكما توجد الجماعة المؤمنة، فإن مقابلها الكافرة كذلك، وكما للمؤمنة الجزاء الحسن، فإن للكافرة العذاب والعقاب، وتبقى" الصفات الأربع في المؤمنين: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، لتقابل من صفات المنافقين: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ونسيان الّله وقبض الأيدي. . وإن رحمة الّله للمؤمنين لتقابل لعنته للمنافقين والكفار. . وإن تلك الصفات لهي التي وعد الّله المؤمنين عليها بالنصر والتمكين في الأرض، ليحققوها في وصايتهم الرشيدة على البشرية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قادر على إعزاز الفئة المؤمنة ليكون بعضها أولياء بعض في النهوض بهذه التكاليف، حكيم في تقدير النصر والعزة لها، لتصلح في الأرض، وتحرس كلمة الّله بين العباد

1- سيد قطب، الظلال، مصدر سابق، 1676/3 .

"[1]، فالتمكين والنصرة في الأرض جزاء الجماعة المؤمنة، لأنها مؤتمنة على حراسة التكاليف، وأداء التعاليم الإسلامية كما أرادها الله تعالى، وبينها النبي صلى الله عليه وسلم.

إن عدل الله تعالى في جزاء المؤمن والكافر، أن للجماعة المؤمنة جزاء أعمالهم الصالحة، وامتثالهم لأوامر الله تعالى، وأقر القرآن الكريم جزاء الذين كانت أعمالهم سيئة، ويتعمدون تعطيل أوامره تعالى، الجزاء الذي يستحقونه، قال تعالى: **﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾**[2]، من خلال الآيات الكريمة يتبين "أن الجزاء بالمثوبة على ما نفعل من خير إنما هو فضل من الله؛ نستحقه بكريم وعده، وليس لنا فيه حق ذاتي. وحيث كان الإيمان بالله وطاعته حقا واجبا على المكلفين، كان الجحود والعصيان مستوجبا الجزاء بالعقوبة ضمن قانون العدل الرباني، وإدراك هذه الحقيقة من الأمور البديهية التي لا تحتاج إلى إقامة دليل. فالجزاء بالعقوبة على ما نفعل من شر تطبيق لقانون العدل المدرك بالبديهة، وقد كشف الله لنا في الشريعة صفة عدله، وأعلن علينا وعيده بالجزاء العادل إذا نحن جحدنا أو عصينا."[3]، فعدل الله تعالى في جزاء من أساء، ومن أحسن قانون تسير به الحياة، ويجعل الحدود مراعاة في التعامل، وهذا القانون الإلهي بنوده مُتَضَمَّنَة في القرآن الكريم، والسنة النبوية تشرح وتفسر ما جاء في القرآن عاما، أو مجملا،..

1- سيد قطب، الظلال، مصدر سابق، 1676/3 .

2- سورة النجم:31.

3- الميداني:عبد الرحمن حسن حبنكة، العقيدة الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، بيروت، ط2، 1399هـ- 1979م، ص: 603

إن الأمة لفظ قرآني يعبر عن الجماعة، مأمورة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لأن جزاءها الفلاح، قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]، "وليكن منكم أيها المؤمنون الذين مَنَّ الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله ﴿أُمَّةٌ﴾ أي: جماعة ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه، وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، .. وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب "[2]، فالفلاح هو الجزاء الأنسب والأوفى لهذه المجموعة المؤمنة التي كُلِّفت بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، الذي يميزها عن باقي الأمم، ومازال جزاؤها الفلاح ما دامت ملتزمة بهاتين القاعدتين (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

فالأمة هي مجموعة الأفراد التي تكونها، فلا يمكن أن تقوم إلا بأفرادها، وقيامها وتطورها مبني على استقامة أفرادها؛ حيث لها مسؤولية أداء الرسالة، وتطبيق الشريعة، والحرص الدائم على ذلك في نصرة دينها، وتنظيم جماعتها، لأنها أمة النظام.

1- سورة آل عمران :104 .

2- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط:1، 1420هـ/ 2000 م، 1 / 142.

إن الأمة كونها جماعة متماسكة، ومتكافلة، مأمورة بالتعاون على الخير والتزام حدود الله تعالى، قال الله تعالى:﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1]، فهذه الأوامر الربانية تهدف إلى توحيد جماعة المسلمين على قانون واحد، وضابط، والمقصد " من اجتماع الناس وتعاشرهم؛ التعاون على البر والتقوى، فيعين كل واحد صاحبه على ذلك علما وعملا، فإن العبد وحده لا يستقل بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه؛ فاقتضت حكمة الرب سبحانه أن جعل النوع الإنساني: قائما بعضه ببعضه، معينا بعضه لبعض."[2]، فهذه اللحمة التي تربط أفراد الجماعة المسلمة، واجبها الديني، والإنساني أن يتحد أفرادها، وأن يعين بعضهم بعضا، على أساس العلم، والعمل به لتكون خير أمة متضامنة، ومتميزة، وحضارية.

إن عمل الأمة المسلمة، ومهمتها في الأرض، هو إرساء قواعد البر على أساس التقوى، ورد الإثم والعدوان بكل أشكاله، فأُمروا "﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، تأكيد لمضمون ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ لأن الأمر بالشيء، وإن كان يتضمن النهي عن ضده، فالاهتمام بحكم الضد يقتضي النهي عنه بخصوصه. والمقصود أنه يجب أن يصد بعضكم بعضا عن ظلم قوم لكم نحوهم شنآن"[3]، والبر والتقوى المأمور بهما أفراد الأمة ليس بين أفرادها فحسب، بل بين الجماعات الأخرى التي على غير دينها، فالإسلام دين الإنسانية، ولا يحمل معنى الإثم والعدوان التعدي على غير المسلمين وإن اختلفوا معهم. فهذه قواعد إنسانية، وليست فردية.

1- سورة المائدة: 2 .

2- ابن قيم الجوزية، الضوء المنير، مصدر سابق، 2/ 330.

3- ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، 88/6 .

المطلب الثاني: الجزاء باعتبار الأجل المعجل والمؤجل

إن المسؤولية التي كُلِّفها الإنسان، والمأمور تأديتها في الأرض، سيجازى عليها، إن في الدنيا أو في الآخرة، في آجله وعاجله، ويرى أعماله سواء أكانت أعمال خير، أم أعمال شر.

إن الإسلام دين العدل، والسماحة، والخير. ولن يكون العدل سمته إلا إذا تكامل الجزاء والمسؤولية في حياة المسلم؛ إذ لولا الجزاء لما قام المكلف بمسؤولياته. "والجزاء في الإسلام يقوم على مبادئ وقواعد قد تكون من أهمها قاعدة المعاملة العادلة التي تقتضي أن يكون الجزاء عادلا، وأن يكون من جنس العمل؛ بحيث يعود كل عمل على صاحبه بمثله، ويجازي كل عامل على عمله المسؤول عنه جزاء مطابقا لجنسه، ويلقى النتيجة الطبيعة لعمله صالحا أم طالحا.

والأصل في الجزاء في الإسلام أنها في الآخرة لا في الدنيا، ولكن مقتضيات الحياة وضرورة استقرار المجتمع، وتنظيم علاقات الأفراد، وضمانا لحقوق الناس، كل ذلك دعا إلى أن يكون هناك جزاء دنيويا وآخر أخرويا"[1]، فالجزاء الذي ينتظره المسلم المترتب عن أدائه مسؤولياته تجاه من هم في دائرة تعاملاته، هو المحفز لإخلاص الأعمال، وإتقانها، ليكون الجزاء الأوفى.

إن وعد الله تعالى حق، واستجابته سبحانه لدعاء المؤمنين أنه تعالى لن يضيع أعمالهم الصالحة، فقال الله تعالى: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى**﴾[2]، فكان الجزاء على العمل للذكر والأنثى على السواء، سيكون في عاجلهم وآجلهم.

1- إيمان عبد المؤمن سعد الدين، الأخلاق في الإسلام النظرية والتطبيق، مكتبة الرشد، الرياض المملكة العربية السعودية، ط1، 1424 هـ/2002 م. ص: 139

2- سورة آل عمران: 195.

الفرع الأول: الجزاء باعتبار الأجل المعجل

إن الله تعالى لا يظلم عباده، خلقهم وكلفهم بالتزام أوامره، والانتهاء عن نواهيه، إن التزموا كان جزاؤهم حسنا، وإن خالفوا فالجزاء من جنس العمل.

وبرحمة الله تعالى وفضله يجازي من أطاعه ويعجل أجره في الدنيا، ويجعل حياته طيبة، قال الله تعالى: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[1]، هذه الحياة التي وعدها الله تعالى المؤمنين، وصفها تعالى بأنها طيبة "وطيب الحياة جنة الدنيا، قال تعالى: ﴿ **فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾[2] فأي نعيم أطيب من شرح الصدر؟ !، وأي عذاب أشد من ضيق الصدر؟ !.. فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشا وأنعمهم بالا وأشرحهم صدرا وأسرهم قلبا، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة. والصواب: أنها حياة القلب ونعيمه، وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه. فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها. ولا نعيم فوق نعيمه، إلا نعيم الجنة "[3]، إن الإنسان يحب أن يرى ثمرة عمله، فكان تعجيل الله تعالى الجزاء لعمله من رحمته وفضله، فكانت الحياة الطيبة بكل ما تحمله من الرضا، والراحة، والهناء، من بين الجزاءات التي تظل المسلم في عيشه، نتيجة إخلاصه لله تعالى، وإيمانه به، وامتثاله لأوامره، وانتهائه عن نواهيه.

1- سورة النحل: 97.

2- سورة الأنعام:125 .

3- ابن قيم الجوزية، الضوء المنير على التفسير، مؤسسة النور، د ط، د ت، 4/63-64.

ومن الجزاء الذي يعجله الله تعالى لعبده، أنه يرزقه من حيث لا يحتسب، نتيجة توكله عليه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[1]، فالله تعالى" وعد المتقين الواقفين عند حدوده بأن يجعل لهم مخرجا من الضائقات شبهّ ما هم فيه من الحرج بالمكان المغلق على الحال فيه وشبه ما يمنحهم الله به من اللطف وإجراء الأمور على ما يلائم أحوالهم بجعل منفذ في المكان المغلق يتخلص منه المتضايق فيه ..... فمعنى ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾: من مكان لا يحتسب منه الرزق أي لا يظن أنه يرزق منه"[2]، فتقوى الله تعالى جالبة للإنسان الرزق، مهما ضاقت عليه السبل، لينعم به ويهنأ بعيشه.

ومن الجزاء المعجل الذي يفوز به المؤمن الخيرات التي تخرج من الأرض، وتنزل من السماء، نتيجة الإيمان والتقوى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[3] "والبركة هي أن يعطي الموجود فوق ما يتطلبه حجمه؛ .. فقوله ﴿بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي أن يعطي الحق سبحانه وتعالى من القليل الكثير في الرزق الحلال، ويمحق الكثير الذي جاء من الحرام كالربا،...إذن فلو أخذ الإنسان قانون صيانته من خالقه لاستقامت له كل الأمور، لكن الإنسان قد لا يفعل ذلك. ويقول الحق ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾"[4]، فهذه البركات النازلة المفتوحة على الإنسان من

1- سورة الطلاق:2- 3.
2- ابن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، 28/311-312 .
3- سورة الأعراف:96 .
4- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 7/4257 .

السماء والأرض مرتبطة تمام الربط بالإيمان والتقوى، فإذا زالا من مجتمع، غيض رزق السماء والأرض .

إن رضا الله تعالى وإنزال سكينته على عباده المؤمنين أفضل جزاء، فعندما يرضى الله تعالى على عباده فلينتظروا كل خير يأتي، قال تعالى: **﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾**[1]، هؤلاء المؤمنون الذين خلصت نياتهم، وسلّموا أمرهم لله " فعلم ما في قلوبهم من الصدق والسمع والطاعة، فأنزل عليهم الطمأنينة وسكون النفس ورباطة الجأش وأعطاهم ما وهبوه من الطاعة- فتح خيبر عقب انصرافهم من الحديبية كما علمت.

ومغانم كثيرة يأخذونها أي وعوضهم في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة بقتالهم- فتح خيبر فأخذوا أموال يهودها وعقارهم وكان كثيرا، وخصهم بأهل بيعة الرضوان لا يشركهم فيه سواهم"[2]، فجزاء الله تعالى على صدقهم وطاعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، عجل الله به للمؤمنين، ليكون لهم بلسما، وحافزا للاستماتة على هذا الدين.

1- سورة الفتح:18-20.

2- المراغي: أحمد مصطفى، تفسير المراغي، مطبعة مصطفى البابي الحلمى، مصر، ط 1، 1365هـ/1946م، 102/26.

إن عدل الله سبحانه وتعالى وكرمه وفضله لا ينقطع عن عباده الذين آمنوا به، فكان الإحسان جزاؤهم، قال الله تعالى:﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[1]، " آية وعد وبسط لنفوس جميع المؤمنين"[2]، فمهما جلّ أو عظم العمل الصالح، إلا وجازى الله تعالى عنه صاحبه، وعجل جزاءه.

إن الله تعالى يجازي المحسن عن عمله بأوفى الجزاء، ولا يترك المسيء دون جزاء، فكما عجل للمحسن، يعجل للمسيء لأن عدله سبحانه وتعالى يقتضي ذلك، قال تعالى:﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[3]، "ولما كانت أمانيهم أنهم لا يجازون بأعمالهم الخبيثة، أنتج ذلك لا محالة قوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ أي بالمصائب من الأمراض وغيرها، عاجلا إن أريد به الخير، وآجلا إن أريد به الشر"[4]، فالجزاء المعجل واللاحق بالمسيء، على نفس درجة جزاء المحسن، وهو ميزان العدل الإلهي بخلقه.

إن الله تعالى عندما أرسل رسله برسالاته، أمر خلقه بأن يؤمنوا بهم ويتبعوا ما جاءوا به من ذكر من الله تعالى، منهم من آمن، ومنهم من أعرض، والذي أعرض توعده الله بجزاء ضنك العيش، قال تعالى:﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[5]، و" الضَنْك هو الضيق الشديد الذي تحاول أنْ تُفلتَ منه هنا أو هناك فلا تستطيع، والمعيشة الضَّنْك

1- سورة الرحمن: 60.

2- الثعالبي: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زيد، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ/ 1997م، 355/5.

3- سورة النساء:123.

4- البقاعي، نظم الدرر، مصدر سابق، 410/5 .

5- سورة طه:124.

هذه تأتي مَن أعرض عن الله، لأن مَن آمن بإله إنْ عَزَّتْ عليه الأسباب لا تضيق به الحياة أبداً ؛ لأنه يعلم أن لهُ ربّاً يُخرجه مما هو فيه. أما غير المؤمن فحينما تضيق به الأسباب وتُعجزه لا يجد مَن يلجأ إليه فينتحر"[1]، وأي حياة يعيشها الإنسان في الدنيا، ويهنأ بما فيها إذا حكم عليه العدل الإلهي بالضنك، إن عارض ما أمر به الله تعالى اتباعه بما شرعه له؟ !.

وإذا استمر التكذيب، استمر الوعد بالجزاء، فبعد المعيشة الضنك، يأتي الخزي، قال الله تعالى: ﴿ **كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾[2]، ومعنى "﴿ **الْخِزْيَ** ﴾ أي الذل الناشئ عن الفضيحة والعذاب الكبير بما رادوه من إخزاء الرسل بتكذيبهم ﴿ **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ أي العاجلة الدنية"[3]، وأي دنيا يعيشها الموعود بالذل والهوان من رب العالمين، بتكذيبه الرسل واستعجاله بالعذاب؟ !

إن الله تعالى خالق الإنسان، ومالك كل شيء، يعلم ما يعمل عبده بالليل والنهار، جعل الدنيا دار تكليف وعمل، "...فتحتل الدنيا مرحلة انتقالية مؤقتة ولكنها مهمة وحاسمة، يتمحور فيها هم الإنسان واهتمامه حول تهيئة المآلات الأخروية لمصيره الوجودي كله، ويؤدي الإيمان بالحياة الآخرة دور الشاحذ الرئيس لليقظة والفعالية الروحية والاجتماعية للإنسان في الحياة،... فالوعي الأخروي شاحذ عظيم الفعالية في استقامة الحياة الدنيوية للإنسان على سنن الله في التوحيد والخلافة والعبودية

1- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 15/ 9436.

2- سورة الزمر:25- 26.

3- البقاعي، نظم الدرر، مصدر سابق، 494/16 .

والعمران الحضاري، واستشراف الحياة الأخروية السعيدة الموعودة"[1]؛ فمهمة البناء والتعمير على أساس الإيمان، وتأدية المسؤوليات بكل ما أمر به الله تعالى هدف الإنسان، ورجاء تعجيل بعضا من الجزاء الحسن منه تعالى نتيجة هذا الهدف .

الفرع الثاني: الجزاء باعتبار الأجل المؤجل

إن الإنسان إذا عمل عملا يحب أن يرى جزاء ذلك لينعم به، والله تعالى بفضله وكرمه لم يبخل على الإنسان ذلك، إلا أن الجزاء لن يراه كله؛ لأن الجزاء الدائم سيكون يوم القيامة لأنها دار القرار والبقاء، قال الله تعالى: ﴿ **وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى** ﴾[2]، فزمن الدنيا زمن العمل والكد، لأن له جزاء، "كما يمكن أن نلمح أيضا من سنة الأجل: ضرورة وضع الوقت المحدد كعنصر وقيمة لابد منه في العمل حتى لا تبقى الخطة المأمولة سائبة وحتى يكون المسلم خارجا من إطار الزمن كما هو الحال..."[3]؛ فلابد للإنسان أن يكون عمله له هدف أسمى وهو الجزاء المؤجل، الذي يتمناه أوفى وتاما، ولا تكون حياته لا قيمة لها.

إن المؤمن الذي يداوم الدعاء بالغفران، والتجاوز عن ذنوبه، وتثبيته، كان الجزاء من الله تعالى بأن يؤتيه ثواب الدنيا، ويؤجل له ما يستحقه من الجزاء، قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَآتَاهُمُ**

1- الطيب برغوث، الأطروحة السننية الخلدونية ونظرية المدافعة والتجديد، ص:72-73.

2- سورة النجم: 39 – 41.

3- الغزالي: محمد،كيف نتعامل مع القرآن، شركة نهضة مصر، ط7، 2005 م، ص: 124 .

اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]؛ "أي أن الذي يريد الدنيا فالله يعطيه غنائم وأشياء، ولنا أن نلاحظ أن الحق عندما يتكلم هنا عن الدنيا فهو لم يصفها بحسن أو بشيء، فقد قال ﴿**ثَوابَ الدُّنْيَا**﴾، لكن عندما تكلم عن الآخرة فهو يقول ﴿ **وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ** ﴾ وهذا هو الجمال الذي يجب أن يعشق؛ لأن الدنيا مهما طالت فهي متاع وغرور وزخرف زائل، ومهما كنت منعما فيها فأنت تنتظر حاجة من اثنتين: إما أن تزول عنك النعمة، وإما أن تزول أنت عليها."[2]، فالجزاء المعجل أمام عظم وحسن الثواب المؤجل لا يكاد يساويه أو يُعوَّض به، ولما كان الجزاء المؤجل حسنا وأدوم، فُضِّل على الجزاء المعجل.

وكما أن للمكذب الجزاء المعجل، فالعذاب المؤجل أشد منه، قال تعالى: ﴿ **كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ وَفَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[3]، هذا التكذيب الذي يضاعف الجزاء لصاحبه بالخزي في عاجله، والجزاء الآجل أكبر وأشد.

إن الله تعالى عالم بما يعمله عباده، ولا تخفى عنه خافية، ومن حاد عن طريق الحق فإن الله تعالى أجل عذابه ليوم مشهود، ليكون جزاؤه له عادلا، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ**﴾[4]، فالآية الكريمة "خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والمراد به تثبيته

1- سورة آل عمران:147- 148.

2- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 1811/3-1812 .

3- سورة الزمر:25- 26.

4- سورة إبراهيم: 42 -43.

على ما هو عليه من أنه تعالى مطلع على أحوالهم وأفعالهم لا يخفى عليه خافية، والوعيد بأنه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة، أو لكل من توهم غفلته جهلاً بصفاته واغتراراً بإمهاله. وقيل إنه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم. ﴿**إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ**﴾ يؤخر عذابهم.. ﴿**لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ**﴾ أي تشخص فيه أبصارهم فلا تقر في أماكنها من هول ما ترى"[1]. فهذه الأحوال التي يكون عليها المكذب في آجله نتيجة كفره، أجلت ليكون الجزاء أمام الأشهاد، وما أشده وأخزاه من جزاء.

لو يعلم الكافر ما ينتظره في آجِلِ حياته لما استعجل عذابه، قال تعالى: ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾[2]، فحتى الجزاء بالعذاب رحم الله تعالى عبده في إيقاعه، فأجّله له ليعيش دنياه كما يشاء ويريد. قال الرسول صلى الله عليه وسلم في بيان قيمة الدنيا بالنسبة للمؤمن والكافر:"**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**"[3]. فللكافر مجال الدنيا واسعا في التنعم بخيراتها فهي جنته. وللمؤمن سجنه، ومجالها محدود وإن ضاق فيها العيش، أو ابتلاء ابتلي به، فلابد له من الحرية يوما ما فيجد الخير والنعيم، ولا يكون ذلك إلا في اليوم الذي أُجِّل له إن صبر واحتسب وآمن واتقى.

إن الإنسان لابد أن يكون وجوده مبنيا على التقوى، وأن يكون عمله خالصا تبعا لإيمانه، لأنه لابد من وجود يوم يرجع فيه إلى الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾[4] إن "المصير الأخروي للإنسان يشكل أقوى

1- البيضاوي: ناصر، تفسير البيضاوي، دار الفكر، بيروت، د ط، د ت، 3/ 354 .
2- سورة العنكبوت:53.
3- رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب: حدثنا قتيبة بن سعيد، 201/8.
4- سورة البقرة:281.

سند للتوحيد والخلافة والعبودية نفسها، لأن الإنسان إذا استحكمت في نفسه عقيدة اليوم الآخر، انعكس تأثيره بشكل عميق على كل جوانب حياته، وانتظم سيره مع سنن الله في التوحيد والخلافة والعبودية والعمران الحضاري، واندفع قدما نحو آفاق الإحسان البعيدة، ليعبد الله كأنه يراه، ويستشعر في الوقت نفسه رؤية الله له"[1]، هذا الاستشعار الدائم من الإنسان لمعية الله تعالى له، يجعله في توازن مع نفسه، ومع الكون بحكم وظيفته الاستخلافية، فيحقق بذلك هدف خلقه، ويؤدي أمانة مسؤوليته بكلل درجاتها ومراحلها؛ لأنه مسؤول عنها يوم القيامة، فيُوفَّى حقه المؤجل له، فلا يُظلم مقدار ذرة أدّاها في عاجل حياته.

إن ما يلتزمه الإنسان من مسؤولية أداء أمانة السماء هو حبه ورضاه التام بما جاء من عند الله تعالى؛ إذ أن "الدين دينان: دين شرعي أمري، ودين حسابي جزائي. وكلاهما لله وحده، فالدين كله لله أمرا أو جزاء.... فعاد دينه الأمري كله إلى محبته ورضاه. ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبة ورضى، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **"ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً"**[2]، فهذا الدين قائم بالمحبة، وبسببها شرع، ولأجلها شرع، وعليها أسس. وكذلك دينه الجزائي، فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وكل من الأمرين محبوب للرب، فإنهما عدله وفضله، وكلاهما من صفات كماله "[3]، فالإنسان بين المسؤولية والجزاء،

1- برغوث: الطيب، الأطروحة السننية الخلدونية ونظرية المدافعة والتجديد، دار النعمان، الجزائر، د ط،2017 م، ص:72.

2- أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب: من ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، 1 /46.

3- ابن قيم الجوزية، الداء والدواء، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، د ط، د ت، ص:479 .

إذا تحمل المسؤولية وأداها تطبيقا لأمر الله تعالى، كان الإحسان جزاؤه، وإن فرط وضيع مسؤوليته، وحاد عن طريق الله تعالى ولم يمتثل لأوامره كان السخط جزاؤه.

إن قبول الإنسان حمل الأمانة، استتبع هذا القبول الجزاء على ما أداه في فترة حياته، "وحيث كان التكليف يستلزم تبليغ المكلف الأمر والنهي وما يلحق بهما، فقد أتم الله ذلك عن طريق الرسل عليهم الصلاة والسلام. وأخيرا: فإن قانون الابتلاء يستتبع قانون الجزاء، ولذلك قرر الخالق العظيم، الفاطر الحكيم، قانون الجزاء على العمل الإرادي، سواء كان عملا جسمانيا ظاهرا، أو عملا داخليا نفسيا، أو قلبيا أو فكريا. ولدى ملاحظتنا لنصوص الشريعة الربانية، نجد أنها تقرر قانون الجزاء العادل، وتعلنه وتنبه إليه، فتبشر وتنذر منذ بدء التكليف"[1]، فالجزاء يكون على كل ما صدر عن الإنسان كونه عاقلا، قادرا، قَبِلَ الأمانة فكُلِّفَ تأديتها، فلينتظر الجزاء، والله تعالى عادل في قضائه، فلا اعتراض على حكمه.

1- الميداني، العقيدة الإسلامية، مرجع سابق، ص: 601 .

المطلب الثالث: الجزاء باعتبار الدارين الدنيا والآخرة

إن الإنسان يعيش في الدنيا وهو يعلم علم اليقين أنه مغادرها إلى دار أخرى، هي دار الآخرة حيث يكون المدُّرالنهائي. لذلك سيكون الجزاء على قدر عمله، وإن كان في الدنيا جزاء، إلا أن الجزاء الأساسي هو جزاء الآخرة، كذلك. لذلك قسم الجزاء إلى جزاء دنيوي، وجزاء أخروي.

الفرع الأول: الجزاء باعتبار الدنيا

إن الله تعالى خلق الخلق، وكلفهم باتباع شرعه، ورتب عليه جزاء، ولا يحسب الخلق أنهم أهل الدهر يحيون ويموتون دون حساب، قال تعالى:﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**﴾[1]، "﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا**﴾ أي: لعبا وباطلا لا لحكمة. وقيل العبث معناه لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب، وإنما خلقتم للعبادة وإقامة أوامر الله عزّ وجلّ ﴿**وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾ أي في دار الآخرة للجزاء."[2]، فلابد للإنسان أن يعيش حياة لها هدف، فالحياة الدنيوية ليست كلها لعب ولهو، وامتلاك للأموال، وإنما دار عمل وجزاء يلق فيها الإنسان جزاء أعماله، فالدنيا مقدمة للآخرة، ومزرعتها.

إن وجود الإنسان في الدنيا له مقصد أساس، وهو التأهيل والاستعداد ليوم الآخرة، "إذ يستهدف الإسلام تعميق وعي الإنسان بأن الحياة الدنيا ليست هي نهاية مطاف "لدورته الوجودية"

1- سورة المؤمنون: 115- 116.

2- الخازن: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1415 هـ، 3 / 278 .

الكبرى، بل هي مرحلة تأهيلية أساسية من مراحلها الكثيرة المتعاقبة،... والإسلام يربط ربطا شرطيا محكما بين صلاح دنيا الإنسان، وبين عمق وعيه بالآخرة، ويؤكد بأن قوة إيمان الإنسان بالحياة الأخروية، واستيقانه بأن هناك حسابا دقيقا، وجزاءا عادلا على سلوكه الدنيوي، كل ذلك ينعكس بشكل مباشر وعميق على موقفه السلوكي الدنيوي الذاتي والاجتماعي، الذي يأتي أكثر تطابقا مع السنن التي تحكم حركة الحياة، وتؤثر في صيرورتها الاجتماعية والحضارية باطراد."[1]، فصلاح دنيا الإنسان جسر للمرور للآخرة، فلابد أن يكون هذا الجسر مبنيا على أسس صحيحة متينة، وأن يراجع حالة هذا الجسر في كل لحظة، ولا يغفل عنه، وهذا الأمان الذي يعيشه الإنسان في الدنيا هو التمسك بأحكام الشريعة، وتطبيقها.

إن الدنيا مجال واسع للحياة، والعيش الهنيء، وذلك بما خلق الله فيها من خيرات، وسبل اليسار للعيش فيها، قال الله تعالى:﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ. أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾[2]، فمعنى قوله تعالى: "﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من أسباب الدنيا ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ تتمتعون بها أيام حياتكم، ثم أنتم وهي إلى فناء."[3]، فلا يحسبن الإنسان أن متاع الدنيا خالد، إنما هو مؤقت، لتسهيل مكوثه واستمرار عيشه، لأجل محدد بانتهاء وقت استخلافه.

1- برغوث: الطيب، التجديد الحضاري والعمق الإنساني للإنسان، دار النعمان، د ط، 2017م، ص:159-160 .

2- سورة القصص: 60-61 .

3- المقدسي: مجير الدين بن محمد العليمي الحنبلي، فتح الرحمن في تفسير القرآن، تحقيق: نور الدين طالب، دار النوادر، ط1، 1430هـ/ 2009م، 5/ 209 .

إن ما في الدنيا من زينة تغري وتستهوي كل إنسان، فتجعله يسعى إلى امتلاكها بكل الطرق والحيل، وقد وعد تعالى من يسعى لذلك فإنه سيؤتيه منها، قال الله تعالى:﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]، ومعنى قوله تعالى "﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا، ﴿وَزِينَتَهَا﴾ نزلت في كل من عمل عملا يريد به غير الله عز وجل ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نوف لهم أجور أعمالهم في الدنيا بسعة الرزق ودفع المكاره وما أشبهها. ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي: في الدنيا لا ينقص حظهم."[2]، فجزاء الدنيا يوفى لمن أراد خيرها، ويأخذ نصيبه منها لا يظلمه الله تعالى حقه من الدنيا.

لابد للإنسان أن يضع الدنيا أنها دار فناء، وإن كان فيها الجزاء فهو الجزاء المؤقت، بعدل الله تعالى ورحمته، ولا يجب أن ينسى وعد إبليس لعباد الله تعالى لهم بالغواية، واعتراضهم في كل طريق خير، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم الإنسانأن يتقي زينة الدنيا لأنها مغرية، وتبعده عن الطريق المستقيم، فعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلمقَالَ: "إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ"[3]. فالإنسان لا يجب أن يغفل أبدا أنه مستخلف في هذه الدنيا، وأنه مكلف بأداء مهمته كما أرادها الله تعالى، واستمتاعه بخيراتها لا يكون أكثر مما يكون في خدمته لأداء مهمته، وأنه مسؤول عنها، وعما كان يعمل فيها .

1- سورة هود : 15- 16.

2- البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، ط 4، 1417 هـ /1997م، 4/ 165- 166 .

3- أخرجه مسلم، كتاب الرقاق، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان فتنة النساء، 89/8.

إن الإنسان في هذه الدنيا مأمور دائما وأبدا بالتقوى، فهي تجعله لله تعالى أقرب في كل لحظات حياته، وعلى أساسه يكون الجزاء، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]، فخطاب الآية يعني "قل مناديا لأشرف الخلق، وهم المؤمنون، آمرا لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكرا لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية اللّه لهم وإنعامه عليهم، المقتضي ذلك منهم أن يتقوه، ومن ذلك ما مَنَّ اللّه عليهم به من الإيمان فإنه موجب للتقوى، وذكر لهم الثواب المنشط في الدنيا، فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ بعبادة ربهم ﴿حَسَنَةٌ﴾ ورزق واسع، ونفس مطمئنة، وقلب منشرح... ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ إذا منعتم من عبادته في أرض، فهاجروا إلى غيرها، تعبدون فيها ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم."[2]، فالإيمان والتقوى عنوانان أساسيان للجزاء الحسن في الدنيا.

إن الدعاء هو حبل الرباط بين الإنسان والله تعالى في كل العبادات، ويبقى ملتزما به في كل أحواله، قال تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ. وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[3] " إن العبد قد لا يريد من دعائه لله إلا الدنيا، ولا حظ ولا نصيب له في الآخرة، ومثل هذا الإنسان يكون ساقط الهمة؛ لأنه طلب شيئاً في الدنيا الفانية، ويريد الله أن نُصَعِّد همتنا الإيمانية. ولذلك يتبعها بقوله الحق: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، ولماذا لم ننس الدنيا هنا؟ لأنها هي المزرعة

1- سورة الزمر: 10.
2- السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مصدر سابق، ص: 720.
3- سورة البقرة: 201-202 .

للآخرة."[1]. فلابد أن يكون سعي الإنسان في الدنيا خالصا لله تعالى؛لأنه لن يُظلم أجره في الدنيا والآخرة.

إن عدل الله تعالى بعباده لا شك فيه، فجزاؤه لهم في الدنيا على قدر أعمالهم، فكما يجازي الله تعالى المؤمن، فإن الكافر له نصيب أيضا، قال تعالى:﴿ **كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ. فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾[2]، يقول تعالى ذكره: "فعجل الله لهؤلاء الأمم الذين كذبوا رسلهم الهوان في الدنيا، والعذاب قبل الآخرة، ولم ينظرهم إذ عتوا عن أمر ربهم"[3]، وهذا جزاء كل مكذب، في كل مكان، وفي كل زمان.

وعد الله تعالى بمن يكذب الرسل ويقتلونهم وأتباعهم بجزاء أشد وأنكل، فقال تعالى:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** ﴾[4]، فالله تعالى يقرر جزاء "الذين يكفرون بآيات الله وهي حججه وأعلام دينه، وما بعث بها رسله، ويقتلون مع ذلك النبيين بغير حق ولا موجب للقتل، ويقتلون الذين يأمرونهم من أتباع الأنبياء المؤمنين الصالحين، هذه جرائم بعض أهل الكتاب فبشرهم بعذاب أليم، ثم أخبر أن أولئك البعداء في مهاوي الشر والفساد والظلم والعناد، حبطت أعمالهم في الدنيا، فلا يجنون منها عاقبة

1- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 860/2 .
2- سورة الزمر: 25 – 26.
3- الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، 21 / 282 .
4- سورة آل عمران: 22 .

حسنة ولا مدحاً ولا ثناءً بل سُجلت لهم بها عليهم لعنات في الحياة والممات"[1]، فهذه الجرائم التي يرتكبها المكذب بالرسل ومتبعيهم، لن يُمنعوا الجزاء الذي يستحقونه بعدم قبول الأعمال، فلا خير في أعمالهم فهي كالهباء المنثور .

وجزاء الدنيا يشمل المؤمن والكافر، كما " في قوله ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ما من كافر عمل مثقال ذرة من خير إلا عجل له ثواب ذلك في الدنيا في نفسه، أو في أهله، أو في ماله، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله مثقال ذرة من خير. وما من مؤمن عمل مثقال ذرة من شر إلا عجل له عقوبتها في الدنيا في نفسه، أو في ماله، أو في أهله، حتى يخرج من دار الدنيا وليس له عند الله مثقال ذرة من شر"[2]، ويبقى جزاء الدنيا ثابت للمؤمن وللكافر مهما دَقَّ أو عظم العمل، سواء كان العمل خيرا أم شرا.

الفرع الثاني: الجزاء باعتبار الآخرة

إن أصل الجزاء يكون في الآخرة وهو الأبقى ، وإن جُوزي الإنسان عن عمله في الدنيا فإنما هو جزاء مؤقت نسبي، قال تعالى:﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[3]، ومعنى الآية أنه "ما من كافر عمل مثقال ذرة من خير إلا عجل له ثواب ذلك في الدنيا في نفسه، أو في أهله، أو في ماله، حتى يخرج من الدنيا وليس

1- أبو بكر الجزائري: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط5 ، 1424هـ/2003م، 1/ 366 .

2- السمرقندي، بحر العلوم، مصدر سابق، 3/ 582 .

3- سورة الزلزلة: 6- 7-8 .

له عند الله مثقال ذرة من خير. وما من مؤمن عمل مثقال ذرة من شر إلا عجل له عقوبتها في الدنيا في نفسه، أو في ماله، أو في أهله، حتى يخرج من دار الدنيا وليس له عند الله مثقال ذرة من شر"[1]، فدار الآخرة دار حساب وجزاء، مهما كان نوع العمل في الدنيا؛ ومهما كان حال الشخص كافرا أو مؤمنا.

إن المؤمن الذي يؤمن بالجزاء الحقيقي يوم القيامة، يعمل لهذا اليوم، ويسعى أن تكون أعماله صالحة خالصة لله تعالى، لهذا لا يعلم ما يحضره الله تعالى له من جزاء: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ. أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[2]. إن جزاء الذين ارتبط إيمانهم بعملهم الصالح بأداء ما افْتُرض عليهم "من فروض ونوافل ﴿ **فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى**﴾ أي: الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب، والنفوس، والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتع بقربه، والنظر إلى وجهه، وسماع خطابه ﴿**نُزُلًا**﴾ لهم أي: ضيافة،وقِرًى ﴿ **بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ فأعمالهم التي تفضل اللّه بها عليهم، هي التي أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال، ولا بالجنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح، ولا يتقرب إليها بشيء أصلا سوى الإيمان والعمل الصالح"[3]. فهذا الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، هما من أنجيا المؤمن، وأدخلاه إلى النعيم الخالد.

1- السمرقندي، بحر العلوم، مصدر سابق، 3 / 582 .

2- سورة السجدة : 17-18-19.

3- السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مصدر سابق، 1/ 655 .

والمؤمن لا يراوده شك أبدا في أن جزاء الله تعالى عادل يوم الآخرة، "والاعتقاد في عدل الجزاء في الدار الآخرة، وفي ضخامة العوض عما يفوت ونفاسته؛ استعدت النفس للبذل في سبيل الحق والخير والصلاح الذي تعلم أنه من أمر الله، وأنه مناط العوض والجزاء، وصلح خُلُق الفرد واستقام سلوكه – متى استيقن من الآخر كما هي في التصور الإسلامي– وصلحت الأوضاع والأنظمة، التي لا يتركها الأفراد تسوء وتنحرف، وهم يعلمون أن سكوتهم على فسادها لا يحرمهم صلاح الحياة الدنيا وحدها وخيراتها؛ ولكنه يحرمهم كذلك العوض في الآخرة! فيخسرون الدنيا والآخرة"[1]. فالجنة جزاء يستحق مجاهدة النفس في فعل الخير، وتجنب الشر، وجعل الدنيا مطية وجسرا للآخرة.

إن المؤمن لا يفتر من دعاء الله تعالى في الدنيا، مع مراعاة أداء مهامه الاستخلافية وفق المنهج الرباني، ولا يبالي ممن يسخر به، وكأن الدنيا مستقره ومقامه، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ. فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ. إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾[2]، إن أهل الإيمان الذين يدعون الله تعالى في الدنيا بكل تضرع ورجاء، "﴿**رَبَّنَا آمَنَّا**﴾ بك وبرسلك، وما جاءوا به من عندك ﴿**فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا**﴾ وأنت خير من رحم أهل البلاء، فلا تعذبنا بعذابك .... فاتخذتم أهل الإيمان بي في الدنيا هُزُوًا ولعبا، تهزءون بهم.... لم يزل استهزاؤكم بهم، أنساكم ذلك من فعلكم بهم ذكري، فألهاكم عنه... إني جزيتهم اليوم الجنة بما صبروا في الدنيا على أذاكم بها في أنهم اليوم هم الفائزون بالنعيم الدائم والكرامة الباقية أبدا؛ بما عملوا من صالحات الأعمال في الدنيا، ولقوا

1- فائز: أحمد، اليوم الآخر في ظلال القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، د ط، 1983م، ص: 5 .

2- سورة المؤمنون: 109-110-111.

في طلب رضاي من المكاره فيها."[1] إن المؤمن الذي قوي إيمانه بالله تعالى لا يخاف فيه لومة لائم، ولا استهزاء مستهزئ، يدعو الله لا يفتر على طلب المغفرة والرحمة والجزاء الأوفى في الآخرة، فكان ما طلبوا لصدقهم وإخلاصهم.

إن الأموال والأولاد زينة الحياة الدنيا، إلا أنها فانية، ويبقى أجر وجزاء الآخرة أحسن وأبقى، قال الله تعالى:﴿ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ**﴾[2]، "ليست هذه دليلا على محبتنا لكم، ولا اعتنائنا بكم... ولهذا قال: ﴿**إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ أي: إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح، ﴿**فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا**﴾ أي: تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضعف ﴿**وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ**﴾ أي: في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يُحْذَر منه."[3]، فالأموال والأولاد ليست مقياسا للقربى من الله تعالى، ولا التفاخر بها، إنما الاعتبار بالأعمال، ومدى إخلاصها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**"[4]. فليعمل المؤمن على أساس هذه القاعدة النبوية الجليلة: صفاء القلب مع الإخلاص، وسداد العمل مع الصلاح .

1- الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، 19 / 79- 80 – 81 .
2- سورة سبأ: 37.
3- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، 6 / 522 .
4- أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، 8 /11 .

إن الكافر يُجازى كما يُجازى المؤمن، فالدار الآخرة هي الفاصلة والمآل، والذي يبدل إيمانه بالكفر المهلك، فجزاؤه بطلان أعماله في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]. فالمرتد مآله "أنه لا يبقى له حكم المسلمين في الدنيا، فلا يأخذ شيئاً مما يستحقه المسلمون، ولا يظفر بحظ من حظوظ الإسلام، ولا ينال شيئاً من ثواب الآخرة الذي يوجبه الإسلام، ويستحقه أهله"[2]، فالله تعالى لن يقبل أعمال المرتد والكافر، فليس له ما يقابل به الله، فيكون الجزاء الخسران فلا يبقى له أثر يُذكر به في الدنيا والآخرة، فيخلد في النار .

إن الإنسان مُلزم بتأدية عهوده مع الله تعالى، لأنه محاسب ومُجازى عليها في الآخرة، ولا يشري الآخرة بالدنيا دار الفناء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3]. والعهود والمواثيق "يدخل فيه جميع ما أمر الله به ويدخل فيه العهود والمواثيق المأخوذة من جهة الرسل، ويدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه من عهد وميثاق، فكل ذلك من عهد الله الذي يجب الوفاء به. ومعنى إن الذين يشترون يستبدلون بعهد الله يعني الأمانة وأيمانهم يعني الكاذبة ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني شيئا يسيرا من حطام الدنيا، ...﴿أُولَٰئِكَ﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي لا نصيب لهم في الآخرة ونعيمها وجميع منافعها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ يعني

1- سورة البقرة : 217.
2- الشوكاني، فتح القدير، مصدر سابق، 1 / 291 .
3- سورة آل عمران : 77.

كلاما يُسَرُّهم به أو ينفعهم ...﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لا يرحمهم ولا يحسن إليهم ولا ينيلهم خيرا﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي ولا يطهرهم من الذنوب ولا يثني عليهم بجميل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يعني في الآخرة."[1]، فالالتزام بالعهود بين العبد والله تعالى واجبة مُلزِمة، لتكون النجاة والفوز بنظر الله ورحمته يوم القيامة .

يجب أن يركز الإنسان نظره وفكره نحو الآخرة، ولا يجب أن يوازي بينها وبين الدنيا، لأن "النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما ههنا [الدنيا].... فكل أحد مطبوع على أن يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة، إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل وقويت رغبته في الأعلى الأفضل،... فإن الراغب في الدنيا الحريص عليها المؤثر لها: إما أن يصدق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى وإما ألا يصدق، فإن لم يصدق ذلك كان عادماً للإيمان رأساً، وإن صدق بذلك ولم يؤثره كان فاسد العقل سيئ الاختيار لنفسه"[2]، فعمل العقل في الاختيار الأحسن والأدوم والأنفع مهمة أساسية وفطرية؛ لأن الآخرة أبقى وأفضل .

إن المؤمن كيس فطن، لا يجعل نفسه مطواعة لشهواتها وغرائزها، إلا بما جُبلت عليه، فهو يجاهد لتكون دنياه صالحة، لتصلح آخرته، فهما متكاملتان " فالدنيا إذا انفصلت عن الوعي الأخروي، وجرت بعيدا عنه وعن مؤثراته، تحولت إلى مادية متوحشة قاتلة،... ولذلك جاء في القرآن الكريم التوجيه إلى ضرورة الموازنة بين البعدين الدنيوي والأخروي في حياة الإنسان..... فمن تجزأت

1- الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، مصدر سابق، 1 / 261 .
2- ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله الجوزية، الفوائد ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1393هـ/ 1973م، ص: 94.

خريطة منظوره السنني الكوني وتمحورت حول جوانب من هذه الخريطة على حساب جوانب أخرى منها، استحال عليه تحقيق توازنه المطلوب، وانعكس ذلك على حياته الدنيوية مباشرة، وأصابها بالاختلال والاضطراب والتنافرية والضنكية المنهكة"[1]، فالإنسان بإيمانه وعمله الصالح، وخبرته الدنيوية، تجعله في تناغم مع نفسه، وتكامل مع الكون، لأنها مقدمات لدار بقاء تكون فيها النتيجة الخلد في الجنة وهو ما يرجوه كل مؤمن.

مما سبق نخلص إلى النتائج التالية:

- المترتبات الجزائية للمسؤولية تمثلت في تحقق الجزاء للفرد المكلف باعتبار الفرد والجماعة. وهذا الجزاء يُوفَّاه الفرد والجماعة في العاجل والآجل، في الدنيا والآخرة.

1-برغوث: الطيب، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، دار النعمان، د ط، 2017م، ص: 42-43 .

المطلب الثالث: الجزاء باعتبار الدارين الدنيا والآخرة

إن الإنسان يعيش في الدنيا وهو يعلم علم اليقين أنه مغادرها إلى دار أخرى، هي دار الآخرة حيث يكون المقَرّ النهائي. لذلك سيكون الجزاء على قدر عمله، وإن كان في الدنيا جزاء، إلا أن الجزاء الأساسي هو جزاء الآخرة، كذلك. لذلك قسم الجزاء إلى جزاء دنيوي، وجزاء أخروي.

الفرع الأول: الجزاء باعتبار الدنيا

إن الله تعالى خلق الخلق، وكلفهم باتباع شرعه، ورتب عليه جزاء، ولا يحسب الخلق أنهم أهل الدهر يحيون ويموتون دون حساب، قال تعالى:﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**﴾[1]، "﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا**﴾ أي: لعبا وباطلا لا لحكمة. وقيل العبث معناه لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب، وإنما خلقتم للعبادة وإقامة أوامر الله عزّ وجلّ ﴿**وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾ أي في دار الآخرة للجزاء."[2]، فلابد للإنسان أن يعيش حياة لها هدف، فالحياة الدنيوية ليست كلها لعب ولهو، وامتلاك للأموال، وإنما دار عمل وجزاء يلق فيها الإنسان جزاء أعماله، فالدنيا مقدمة للآخرة، ومزرعتها.

إن وجود الإنسان في الدنيا له مقصد أساس، وهو التأهيل والاستعداد ليوم الآخرة، "إذ يستهدف الإسلام تعميق وعي الإنسان بأن الحياة الدنيا ليست هي نهاية مطاف "لدورته الوجودية"

1- سورة المؤمنون: 115- 116.

2- الخازن: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1415 هـ، 3 / 278 .

الكبرى، بل هي مرحلة تأهيلية أساسية من مراحلها الكثيرة المتعاقبة،... والإسلام يربط ربطا شرطيا محكما بين صلاح دنيا الإنسان، وبين عمق وعيه بالآخرة، ويؤكد بأن قوة إيمان الإنسان بالحياة الأخروية، واستيقانه بأن هناك حسابا دقيقا، وجزاءا عادلا على سلوكه الدنيوي، كل ذلك ينعكس بشكل مباشر وعميق على موقفه السلوكي الدنيوي الذاتي والاجتماعي، الذي يأتي أكثر تطابقا مع السنن التي تحكم حركة الحياة، وتؤثر في صيرورتها الاجتماعية والحضارية باطراد."[1]، فصلاح دنيا الإنسان جسر للمرور للآخرة، فلابد أن يكون هذا الجسر مبنيا على أسس صحيحة متينة، وأن يراجع حالة هذا الجسر في كل لحظة، ولا يغفل عنه، وهذا الأمان الذي يعيشه الإنسان في الدنيا هو التمسك بأحكام الشريعة، وتطبيقها.

إن الدنيا مجال واسع للحياة، والعيش الهنيء، وذلك بما خلق الله فيها من خيرات، وسبل اليسار للعيش فيها، قال الله تعالى:﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ. أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**﴾[2]، فمعنى قوله تعالى: "﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ** ﴾ من أسباب الدنيا ﴿ **فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا** ﴾ تتمتعون بها أيام حياتكم، ثم أنتم وهي إلى فناء."[3]، فلا يحسبن الإنسان أن متاع الدنيا خالد، إنما هو مؤقت، لتسهيل مكوثه واستمرار عيشه، لأجل محدد بانتهاء وقت استخلافه.

1- برغوث: الطيب، التجديد الحضاري والعمق الإنساني للإنسان، دار النعمان، د ط، 2017م، ص:159-160 .
2- سورة القصص: 60-61 .
3- المقدسي: مجير الدين بن محمد العليمي الحنبلي، فتح الرحمن في تفسير القرآن، تحقيق: نور الدين طالب، دار النوادر، ط1، 1430هـ/ 2009م، 5/ 209 .

إن ما في الدنيا من زينة تغري وتستهوي كل إنسان، فتجعله يسعى إلى امتلاكها بكل الطرق والحيل، وقد وعد تعالى من يسعى لذلك فإنه سيؤتيه منها، قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]، ومعنى قوله تعالى "﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا، ﴿وَزِينَتَهَا﴾ نزلت في كل من عمل عملا يريد به غير الله عز وجل ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نوف لهم أجور أعمالهم في الدنيا بسعة الرزق ودفع المكاره وما أشبهها. ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي: في الدنيا لا ينقص حظهم."[2]، فجزاء الدنيا يوفى لمن أراد خيرها، ويأخذ نصيبه منها لا يظلمه الله تعالى حقه من الدنيا.

لابد للإنسان أن يضع الدنيا أنها دار فناء، وإن كان فيها الجزاء فهو الجزاء المؤقت، بعدل الله تعالى ورحمته، ولا يجب أن ينسى وعد إبليس لعباد الله تعالى لهم بالغواية، واعتراضهم في كل طريق خير، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم الإنسان أن يتقي زينة الدنيا لأنها مغرية، وتبعده عن الطريق المستقيم، فعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ: "إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ"[3]. فالإنسان لا يجب أن يغفل أبدا أنه مستخلف في هذه الدنيا، وأنه مكلف بأداء مهمته كما أرادها الله تعالى، واستمتاعه بخيراتها لا يكون أكثر مما يكون في خدمته لأداء مهمته، وأنه مسؤول عنها، وعما كان يعمل فيها .

1- سورة هود : 15- 16.

2- البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، ط 4، 1417 هـ /1997م، 4/ 165- 166 .

3- أخرجه مسلم، كتاب الرقاق، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان فتنة النساء، 89/8.

إن الإنسان في هذه الدنيا مأمور دائما وأبدا بالتقوى، فهي تجعله لله تعالى أقرب في كل لحظات حياته، وعلى أساسه يكون الجزاء، قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[1]، فخطاب الآية يعني "قل مناديا لأشرف الخلق، وهم المؤمنون، آمرا لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكرا لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية اللّه لهم وإنعامه عليهم، المقتضي ذلك منهم أن يتقوه، ومن ذلك ما مَنَّ اللّه عليهم به من الإيمان فإنه موجب للتقوى، وذكر لهم الثواب المنشط في الدنيا، فقال: ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا**﴾ بعبادة ربهم ﴿**حَسَنَةٌ**﴾ ورزق واسع، ونفس مطمئنة، وقلب منشرح... ﴿**وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ**﴾ إذا منعتم من عبادته في أرض، فهاجروا إلى غيرها، تعبدون فيها ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم."[2]، فالإيمان والتقوى عنوانان أساسيان للجزاء الحسن في الدنيا.

إن الدعاء هو حبل الرباط بين الإنسان والله تعالى في كل العبادات، ويبقى ملتزما به في كل أحواله، قال تعالى:﴿**فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾[3] " إن العبد قد لا يريد من دعائه لله إلا الدنيا، ولا حظ ولا نصيب له في الآخرة، ومثل هذا الإنسان يكون ساقط الهمة؛ لأنه طلب شيئاً في الدنيا الفانية، ويريد الله أن نُصَعِّد همتنا الإيمانية. ولذلك يتبعها بقوله الحق: ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾، ولماذا لم ننس الدنيا هنا؟ لأنها هي المزرعة

1- سورة الزمر: 10.
2- السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مصدر سابق، ص: 720.
3- سورة البقرة: 201-202 .

للآخرة."[1]. فلابد أن يكون سعي الإنسان في الدنيا خالصا لله تعالى؛لأنه لن يُظلم أجره في الدنيا والآخرة.

إن عدل الله تعالى بعباده لا شك فيه، فجزاؤه لهم في الدنيا على قدر أعمالهم، فكما يجازي الله تعالى المؤمن، فإن الكافر له نصيب أيضا، قال تعالى:﴿ **كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ. فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[2]، يقول تعالى ذكره: "فعجل الله لهؤلاء الأمم الذين كذبوا رسلهم الهوان في الدنيا، والعذاب قبل الآخرة، ولم ينظرهم إذ عتوا عن أمر ربهم"[3]، وهذا جزاء كل مكذب، في كل مكان، وفي كل زمان.

وعد الله تعالى بمن يكذب الرسل ويقتلونهم وأتباعهم بجزاء أشد وأنكل، فقال تعالى:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾[4]، فالله تعالى يقرر جزاء "الذين يكفرون بآيات الله وهي حججه وأعلام دينه، وما بعث بها رسله، ويقتلون مع ذلك النبيين بغير حق ولا موجب للقتل، ويقتلون الذين يأمرونهم من أتباع الأنبياء المؤمنين الصالحين، هذه جرائم بعض أهل الكتاب فبشرهم بعذاب أليم، ثم أخبر أن أولئك البعداء في مهاوي الشر والفساد والظلم والعناد، حبطت أعمالهم في الدنيا، فلا يجنون منها عاقبة

1- الشعراوي، تفسير الشعراوي، مصدر سابق، 860/2 .

2- سورة الزمر: 25 – 26.

3- الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، 21 / 282 .

4- سورة آل عمران: 22 .

حسنة ولا مدحاً ولا ثناءً بل سُجلت لهم بها عليهم لعنات في الحياة والممات"[1]، فهذه الجرائم التي يرتكبها المكذب بالرسل ومتبعيهم، لن يُمنعوا الجزاء الذي يستحقونه بعدم قبول الأعمال، فلا خير في أعمالهم فهي كالهباء المنثور .

وجزاء الدنيا يشمل المؤمن والكافر، كما " في قوله ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ما من كافر عمل مثقال ذرة من خير إلا عجل له ثواب ذلك في الدنيا في نفسه، أو في أهله، أو في ماله، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله مثقال ذرة من خير. وما من مؤمن عمل مثقال ذرة من شر إلا عجل له عقوبتها في الدنيا في نفسه، أو في ماله، أو في أهله، حتى يخرج من دار الدنيا وليس له عند الله مثقال ذرة من شر"[2]، ويبقى جزاء الدنيا ثابت للمؤمن وللكافر مهما دَقَّ أو عظم العمل، سواء كان العمل خيرا أم شرا.

الفرع الثاني: الجزاء باعتبار الآخرة

إن أصل الجزاء يكون في الآخرة وهو الأبقى ، وإن جُوزي الإنسان عن عمله في الدنيا فإنما هو جزاء مؤقت نسبي، قال تعالى:﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ. فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[3]، ومعنى الآية أنه "ما من كافر عمل مثقال ذرة من خير إلا عجل له ثواب ذلك في الدنيا في نفسه، أو في أهله، أو في ماله، حتى يخرج من الدنيا وليس

1- أبو بكر الجزائري: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط5 ، 1424هـ/2003م، 1/ 366 .

2- السمرقندي، بحر العلوم، مصدر سابق، 3/ 582 .

3- سورة الزلزلة: 6- 7-8 .

له عند الله مثقال ذرة من خير. وما من مؤمن عمل مثقال ذرة من شر إلا عجل له عقوبتها في الدنيا في نفسه، أو في ماله، أو في أهله، حتى يخرج من دار الدنيا وليس له عند الله مثقال ذرة من شر"[1]، فدار الآخرة دار حساب وجزاء، مهما كان نوع العمل في الدنيا؛ ومهما كان حال الشخص كافرا أو مؤمنا.

إن المؤمن الذي يؤمن بالجزاء الحقيقي يوم القيامة، يعمل لهذا اليوم، ويسعى أن تكون أعماله صالحة خالصة لله تعالى، لهذا لا يعلم ما يحضره الله تعالى له من جزاء: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ. أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[2]. إن جزاء الذين ارتبط إيمانهم بعملهم الصالح بأداء ما افْتُرِض عليهم "من فروض ونوافل ﴿ **فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى**﴾ أي: الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب، والنفوس، والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتع بقربه، والنظر إلى وجهه، وسماع خطابه ﴿**نُزُلًا**﴾ لهم أي: ضيافة،وقِرًى ﴿ **بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ فأعمالهم التي تفضل اللّه بها عليهم، هي التي أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال، ولا بالجنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح، ولا يتقرب إليها بشيء أصلا سوى الإيمان والعمل الصالح"[3]. فهذا الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، هما من أنجيا المؤمن، وأدخلاه إلى النعيم الخالد.

1- السمرقندي، بحر العلوم، مصدر سابق، 3 / 582 .

2- سورة السجدة : 17-18-19.

3- السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مصدر سابق، 1/ 655 .

والمؤمن لا يراوده شك أبدا في أن جزاء الله تعالى عادل يوم الآخرة، "والاعتقاد في عدل الجزاء في الدار الآخرة، وفي ضخامة العوض عما يفوت ونَفَاسته؛ استعدت النفس للبذل في سبيل الحق والخير والصلاح الذي تعلم أنه من أمر الله، وأنه مناط العوض والجزاء، وصلح خُلُق الفرد واستقام سلوكه – متى استيقن من الآخر كما هي في التصور الإسلامي– وصلحت الأوضاع والأنظمة، التي لا يتركها الأفراد تسوء وتنحرف، وهم يعلمون أن سكوتهم على فسادها لا يحرمهم صلاح الحياة الدنيا وحدها وخيراتها؛ ولكنه يحرمهم كذلك العوض في الآخرة! فيخسرون الدنيا والآخرة"[1]. فالجنة جزاء يستحق مجاهدة النفس في فعل الخير، وتجنب الشر، وجعل الدنيا مطية وجسرا للآخرة.

إن المؤمن لا يفتر من دعاء الله تعالى في الدنيا، مع مراعاة أداء مهامه الاستخلافية وفق المنهج الرباني، ولا يبالي ممن يسخر به، وكأن الدنيا مستقره ومقامه، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ. فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ. إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾[2]، إن أهل الإيمان الذين يدعون الله تعالى في الدنيا بكل تضرع ورجاء، "﴿**رَبَّنَا آمَنَّا**﴾ بك وبرسلك، وما جاءوا به من عندك ﴿**فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا**﴾ وأنت خير من رحم أهل البلاء، فلا تعذبنا بعذابك .... فاتخذتم أهل الإيمان بي في الدنيا هُزُؤًا ولعبا، تهزءون بهم.... لم يزل استهزاؤكم بهم، أنساكم ذلك من فعلكم بهم ذكري،فألهاكم عنه... إني جزيتهم اليوم الجنة بما صبروا في الدنيا على أذاكم بها في أنهم اليوم هم الفائزون بالنعيم الدائم والكرامة الباقية أبدا؛ بما عملوا من صالحات الأعمال في الدنيا، ولقوا

1- فائز: أحمد، اليوم الآخر في ظلال القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، د ط، 1983م، ص: 5 .
2- سورة المؤمنون: 109-110-111.

في طلب رضاي من المكاره فيها."[1] إن المؤمن الذي قوي إيمانه بالله تعالى لا يخاف فيه لومة لائم، ولا استهزاء مستهزئ، يدعو الله لا يفتر على طلب المغفرة والرحمة والجزاء الأوفى في الآخرة، فكان ما طلبوا لصدقهم وإخلاصهم.

إن الأموال والأولاد زينة الحياة الدنيا، إلا أنها فانية، ويبقى أجر وجزاء الآخرة أحسن وأبقى، قال الله تعالى:﴿ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ**﴾[2]، "ليست هذه دليلا على محبتنا لكم، ولا اعتنائنا بكم... ولهذا قال: ﴿**إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ أي: إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح، ﴿**فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا**﴾ أي: تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضعف ﴿**وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ**﴾ أي: في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يُحْذَر منه."[3]، فالأموال والأولاد ليست مقياسا للقربى من الله تعالى، ولا التفاخر بها، إنما الاعتبار بالأعمال، ومدى إخلاصها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:**إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**"[4]. فليعمل المؤمن على أساس هذه القاعدة النبوية الجليلة: صفاء القلب مع الإخلاص، وسداد العمل مع الصلاح .

1- الطبري، جامع البيان، مصدر سابق، 19 / 79- 80 – 81 .
2- سورة سبأ: 37.
3- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، 6 / 522 .
4- أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، 8 /11 .

إن الكافر يُجازى كما يُجازى المؤمن، فالدار الآخرة هي الفاصلة والمآل، والذي يبدل إيمانه بالكفر المهلك، فجزاؤه بطلان أعماله في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]. فالمرتد مآله "أنه لا يبقى له حكم المسلمين في الدنيا، فلا يأخذ شيئاً مما يستحقه المسلمون، ولا يظفر بحظ من حظوظ الإسلام، ولا ينال شيئاً من ثواب الآخرة الذي يوجبه الإسلام، ويستحقه أهله"[2]، فالله تعالى لن يقبل أعمال المرتد والكافر، فليس له ما يقابل به الله، فيكون الجزاء الخسران فلا يبقى له أثر يُذكر به في الدنيا والآخرة، فيخلد في النار .

إن الإنسان مُلزَم بتأدية عهوده مع الله تعالى، لأنه محاسب ومُجازى عليها في الآخرة، ولا يشري الآخرة بالدنيا دار الفناء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3]. والعهود والمواثيق "يدخل فيه جميع ما أمر الله به ويدخل فيه العهود والمواثيق المأخوذة من جهة الرسل، ويدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه من عهد وميثاق، فكل ذلك من عهد الله الذي يجب الوفاء به. ومعنى إن الذين يشترون يستبدلون بعهد الله يعني الأمانة وأيمانهم يعني الكاذبة ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني شيئا يسيرا من حطام الدنيا، ...﴿أُولَئِكَ﴾ يعني من هذه صفتهم ﴿لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي لا نصيب لهم في الآخرة ونعيمها وجميع منافعها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ يعني

1- سورة البقرة : 217.
2- الشوكاني، فتح القدير، مصدر سابق، 1 / 291 .
3- سورة آل عمران : 77.

كلاما يُسَرُّهم به أو ينفعهم ...﴿وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لا يرحمهم ولا يحسن إليهم ولا ينيلهم خيرا﴿وَلا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي ولا يطهرهم من الذنوب ولا يثني عليهم بجميل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني في الآخرة."[1]، فالالتزام بالعهود بين العبد والله تعالى واجبة مُلزِمة، لتكون النجاة والفوز بنظر الله ورحمته يوم القيامة .

يجب أن يركز الإنسان نظره وفكره نحو الآخرة، ولا يجب أن يوازي بينها وبين الدنيا، لأن "النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها وبقائها وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما ههنا [الدنيا].... فكل أحد مطبوع على أن يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة، إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل وقويت رغبته في الأعلى الأفضل،... فإن الراغب في الدنيا الحريص عليها المؤثر لها: إما أن يصدق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى وإما ألا يصدق، فإن لم يصدق ذلك كان عادماً للإيمان رأساً، وإن صدق بذلك ولم يؤثره كان فاسد العقل سيئ الاختيار لنفسه"[2]، فعمل العقل في الاختيار الأحسن والأدوم والأنفع مهمة أساسية وفطرية؛ لأن الآخرة أبقى وأفضل .

إن المؤمن كيس فطن، لا يجعل نفسه مطواعة لشهواتها وغرائزها، إلا بما جُبلت عليه، فهو يجاهد لتكون دنياه صالحة، لتصلح آخرته، فهما متكاملتان " فالدنيا إذا انفصلت عن الوعي الأخروي، وجرت بعيدا عنه وعن مؤثراته، تحولت إلى مادية متوحشة قاتلة،... ولذلك جاء في القرآن الكريم التوجيه إلى ضرورة الموازنة بين البعدين الدنيوي والأخروي في حياة الإنسان..... فمن تجزأت

1- الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، مصدر سابق، 1 / 261 .
2- ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله الجوزية، الفوائد ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1393هـ/ 1973م، ص: 94.

خريطة منظوره السنني الكوني وتمحورت حول جوانب من هذه الخريطة على حساب جوانب أخرى منها، استحال عليه تحقيق توازنه المطلوب، وانعكس ذلك على حياته الدنيوية مباشرة، وأصابها بالاختلال والاضطراب والتنافرية والضنكية المنهكة"[1]، فالإنسان بإيمانه وعمله الصالح، وخبرته الدنيوية، تجعله في تناغم مع نفسه، وتكامل مع الكون، لأنها مقدمات لدار بقاء تكون فيها النتيجة الخلد في الجنة وهو ما يرجوه كل مؤمن.

مما سبق نخلص إلى النتائج التالية:

– المترتبات الجزائية للمسؤولية تمثلت في تحقق الجزاء للفرد المكلف باعتبار الفرد والجماعة. وهذا الجزاء يُوفَّاه الفرد والجماعة في العاجل والآجل، في الدنيا والآخرة.

1-برغوث: الطيب، مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، دار النعمان، د ط، 2017م، ص: 42-43 .

الخاتمة

الخاتمة

بعد هذا المشوار العلمي مع المسؤولية وأحكامها من خلال نصوص الكتاب والسنة، أقف لسرد النتائج :

-بعد تحليل مفهوم المسؤولية وبيان خصائصها كانت نتائج الفصل الأول:

- المسؤولية مصطلح قرآني اجتماعي تعلق بالإنسان منذ أن بقِي حمل الأمانة التي عُرضت عليه وقَبَلِها. والمسؤولية هي المحاسبة والمجازاة والطلب، والمؤاخذة

- جاء لفظ المسؤولية في الحديث النبوي الشريف بمعنى الرعاية؛ وهذه الرعاية تختلف باختلاف درجة المسؤول، ووضعية المسؤول عنهم؛ والحديث لم يترك مكلفا لم يلزمه بالمسؤولية؛ فهي تشمل كل أفراد المجتمع وكل مناحي الحياة.

-خصائص المسؤولية تلخصت فيما يلي: الربانية، العموم، الشمول، ارتباط المسؤولية بالجزاء.

-أما شروط المسؤولية فتلخصت فيما يلي: الفهم والإخلاص، التخطيط والتنظيم، العمل والممارسة العملية الميدانية، المتابعة والتقويم، الاستمرار .

- أما أهداف المسؤولية فتلخصت في : الأهداف العامة: عبادة الله تعالى، مرضاة الله تعالى، السعادة، هيمنة المعروف، النجاة من العقاب الإلهي. الأهداف الخاصة: بناء الإنسان الصالح، بناء الأسرة الصالحة، بناء المجتمع الصالح.

-أما الفصل الثاني الذي كنت أحاول من خلاله بيان أسس المسؤولية، فتلخصت نتائجه كالتالي:

- الأسس الاستخلافية للمسؤولية فتمحورت في: التكريم الإلهي في خلق الإنسان، مسؤولية العبادة (الإيمان)، مسؤولية عمارة الأرض (العمل الصالح)

– أما مراتب المسؤولية فتلخصت في: المسؤولية التعبدية، والمسؤولية الاجتماعية.

-مراتب تعبدية وهي مرتبة الإيمان وتتمثل في البعد الإيماني للمسؤولية، ومرتبة الإسلام وتتمثل في البعد الإسلامي للمسؤولية، ومرتبة الإحسان وتتمثل في البعد الإحساني للمسؤولية.

-ومراتب اجتماعية التي لها صفة التفاعلية والمعاملاتية؛ وتتمثل في البعد الثقافي للمسؤولية، والبعد الاجتماعي، والبعد الإنساني .

– أما الفصل الثالث فكان محوره في مترتبات المسؤولية، فكانت نتائجه كما يلي:

- تلخصت المترتبات التكليفية في: الترتب التكليفي للمسؤولية فشمل: الوسع التكليفي، اليسر التكليفي، التكافل التكليفي.

-أما المترتبات الجزائية للمسؤولية فتلخصت في: الجزاء باعتبار المكلف الفردي والجماعي، الجزاء باعتبار الأجل المعجل والمؤجل، الجزاء باعتبار الدارين الدنيوي والأخروي.

من خلال ما توصلنا إليه من نتائج، يمكن أن نخرج ببعض التوصيات:

- تخصيص بحوث جدية ومتنوعة الاختصاصات في موضوع المسؤولية.

-الاهتمام بالمواضيع القرآنية ذات الطابع الاجتماعي، التي لها الأثر البارز والكبير في إيجاد الحلول المناسبة لكل المشاكل الاجتماعية، وإخراج الفقه والاجتهاد من قوقعة الفهم الساذج للقضايا الشرعية.

فهرس الآيات القرآنية

السورة/ الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة البقرة		
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً....﴾	30	
﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ...........﴾	31	
﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ....﴾	33	
﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾	34	
﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾	35	
﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ..إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾	37-36	
﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ....﴾	36	
﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾	37	
﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ .... قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾	135-133	
﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾	134	
﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾	143	

	169	﴿ نَّما يَ أْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّـه ما لا تَعْلَمُونَ﴾
	177	﴿لَيْسَ الْبِرَّ نْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ .... ﴾
	184	﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ....﴾
	185	﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ... ﴾
	186	﴿إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ... ﴾
	196	﴿أَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّـهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ... ﴾
	202-201	﴿ وَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ .أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّـهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾
	217	﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّـهِ وَكُفْرٌ بِهِ... ﴾
	228	﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ...﴾
	236	﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً... ﴾
	249	﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّـهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ...﴾
	256	﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ...﴾
	281	﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّـهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾
	286	﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّـهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا... ﴾

سورة آل عمران		
﴿ نَّ الدِّينَ ِعْدَ للَّـهِ ْ ِسْلَامُ ... ﴾	19	
﴿ وِلَـٰئِـ ِكَ الَّـذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ِي لدُّنْيَا الْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾	22	
﴿ نَّ الَّـذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ للَّـهِ أَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا لِيلًا وِلَـٰئِـ ِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ .... ﴾	77	
﴿أَفَغَيْرَ دِينِ للَّـهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن ِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾	83	
﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾	85	
﴿ ِيهِ ِآيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا... ﴾	97	
﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ للَّـهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَاللَّـهِ عَلَيْكُمْ... ﴾	103	
﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ ِلَى الْخَيْرِ ... ﴾	104	
﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ...﴾	110	
﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ لَا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ..... وَاللَّـهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾	148-147	
﴿ لَقَدْ مَنَّ للَّـهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ِذْ بَعَثَ ِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ...﴾	164	
﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ... ﴾	195	
سورة النساء		
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّـذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ... ﴾	1	

﴿لْك حُدُود للَّه وَمَنْ ؛ُطِع للَّه وَرَسُولَه ؛ُدْخِلْه جَنَّات ...﴾	13	
﴿ُرِيدُ للَّه أَنْ ؛ُخَفِّفَ عَنْكُم وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾	28	
﴿ا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا قْرَبُوا لصَّلَاةَ ؛أَنْتُم سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...﴾	43	
﴿مَنْ ؛ُطِع الرَّسُولَ فَقَدْ لَاعَ ـه وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِم حَفِيظًا﴾	80	
﴿لَيْسَ أَمَانِيِّكُم وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ لْكِتَاب...﴾	123	
﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ لصَّالِحَات مِنْ ذَكَرٍ أَوْ نْثَى...﴾	124	
﴿وَلَن ستَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا يْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُم..﴾	129	
﴿ا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّه وَرَسُولِه ...﴾	136	
سورة المائدة		
﴿ا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا حِلُّوا شَعَائِرَ للَّه وَلَا الشَّهْر الْحَرَام ...﴾	2	
﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُم الْمَيْتَةُ لدَّمُ وَلَحْم الْخِنْزِير وَمَا هِلَّ غَيْرِ اللَّه بِه ...﴾	3	
﴿ا أَهْلَ لْكِتَاب قَدْ جَاءَكُم رَسُولُنَا ... وَيَهْدِيهِم لَى صِرَاط مُسْتَقِيم﴾	16-15	
﴿ا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْك مِنْ رَبِّكَ...﴾	67	
﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾	116	
سورة الأنعام		
﴿فَمَنْ ُرِد للَّه أَنْ يَهْدِيَه ؛َشْرَح صَدْرَه لِلْإِسْلَام...﴾	125	
﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوه ..﴾	153	

﴿مَنْ ءَ ِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ ءَالِ هِ....﴾	160	
سورة الأعراف		
﴿ن َسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِ ِينَ...﴾	6	
﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ ِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ لِ يلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾	10	
﴿ َا دَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ... قَالَ ِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِ يهَا ُمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾	25-19	
﴿قُلْ ِ نَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا َطَنَ...﴾	33	
﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا لصَّالِحَاتِ لَا كَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا ُسْعَهَا...﴾	42	
﴿وَلَا تُفْسِدُوا ِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا... كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾	57-56	
﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا تَحْنَا عَلَيْهِمْ َبَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾	96	
﴿الَّذِينَ .عُونَ الرَّسُولَ لنَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي جِدُونَهُ تُوبًا عِنْدَهُمْ...﴾	157	
﴿إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ َنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ... ﴾	172	
سورة الأنفال		
﴿وَاذْكُرُوا ِذْ أَنْتُمْ لِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ ِي الْأَرْضِ..﴾	26	
سورة التوبة		
﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ ِيَاءُ بَعْضٍ...﴾	71	
﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى للَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾	105	
سورة يونس		

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾	14	
﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾	99	
سورة هود		
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ... وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾	16-15	
﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ... ﴾	61	
سورة يوسف		
﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ... ﴾	65	
سورة إبراهيم		
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ... ﴾	4	
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ.... وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾	43-42	
سورة الحجر		
﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ... ﴾	43	
﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾	89	
﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. ﴾	92	
﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ.. ﴾	93-92	
سورة النحل		
﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ... ﴾	27	
﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا...﴾	30	
﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ	36	

﴿...ـنـ ـبـ ـوا لطَّاغُوتَ...﴾		
﴿وَما أَرسلنا من قَبلِك إلا رجالا نُوحي إِلَيهم...﴾	**43**	
﴿وما بِكُم من نِعمة فمن الله... ولهم ما يشتهون﴾	**57-53**	
﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتُسألُنَّ عما كنتم تفترون﴾	**56**	
﴿إنَّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى...﴾	**90**	
﴿ولو شاء الله لجعلكم أُمَّةً واحدةً ...﴾	**93**	
﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينَّه حياة طيبة...﴾	**97**	
﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان...﴾	**106**	
سورة الإسراء		
﴿وإمَّا تُعرضنَّ عنهم ابتغاء رحمة من ربِّك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا﴾	**28**	
﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن...﴾	**34**	
﴿ولا تقف ما ليس لك به علم...﴾	**36**	
﴿ويسألونك عن الرُّوح قل الرُّوح من أمر ربِّي...﴾	**85**	
سورة الكهف		
﴿فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا﴾	**97**	
سورة مريم		
﴿إنَّ الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات... ركزا﴾	**98-96**	
﴿فإنَّما يسَّرناه بلسانك لتُبشِّر به المُتَّقين وتُنذر به قوما لُدًّا﴾	**97**	
سورة طه		
﴿إنَّ السَّاعة آتية أكاد أُخفيها لتُجزى كُلُّ نفس بما	**15**	

تَسْعَى﴾		
﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ... فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾	123-117	
﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا... ﴾	124	
سورة الأنبياء		
﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾	10	
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾	25	
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾	107	
سورة الحج		
﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا... وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾	42-39	
﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾	70	
﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ...﴾	78	
سورة المؤمنون		
﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا... أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾	111-109	
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾	115	
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ.... هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾	116-115	
سورة النور		
﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ... لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾	56-54	
﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾	55	

سورة الفرقان		
﴿قُلْ ذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ...لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾	16-15	
﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾	16	
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا. ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾	46-45	
﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾	46	
سورة القصص		
﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ...﴾	61-60	
﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ...﴾	77	
سورة العنكبوت		
﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ...﴾	53	
سورة الروم		
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا...﴾	21	
﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ...﴾	41	
سورة السجدة		
﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ...نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾	19-17	
سورة الأحزاب		
﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ	8	

عَذَابًا ا لِ يمًا ﴾		
﴿ وَلَقَدْ كَانُوا ءَ اهَدُوا للَّهَ مِنْ ُ لَا ُوَلُّونَ لْأَدْبَ ارَ وَكَانَ عَهْدُاللَّهِ مَسْئُولًا ﴾	15	
﴿ ا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا ُ يُوتَ لنَّبِيِّ لَّا أَنْ ُؤْذَنَ لَكُمْ... ﴾	53	
﴿ نَّا عَرَضْنَ ا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْجِبَ الِ... ﴾	72	
سورة سبأ		
﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ الَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى... ﴾	37	
سورة فاطر		
﴿ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ لَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾	24	
سورة يس		
﴿ فَلَا سْتَطِيعُونَ تَوْصِيَ ةً وَلَا لِى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾	50	
سورة الصافات		
﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ. وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾	24-22	
﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا...فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا نَّا ذَائِقُونَ ﴾	31-22	
﴿ مِنْ دُونِ للَّهِ فَاهْدُوهُمْ لَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ. وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ.. ﴾	24-23	
﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾	24	
﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ. بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ. وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ... ﴾	27-25	
سورة الزمر		

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾	10	
﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ. فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾	26-25	
سورة الشورى		
﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ..﴾	27	
سورة الزخرف		
﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ...هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ.﴾	44-43	
﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ...أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾	45-43	
﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ... وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾	46-43	
سورة محمد		
﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾	2	
سورة الفتح		
﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ... وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾	20-18	
سورة لحجرات		
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ...﴾	13	
سورة الذاريات		
﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾	19	
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾	56	
سورة النجم		

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾	28	
﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ....﴾	31	
﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾	40-39	
﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾	41-39	
سورة القمر		
﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾	-22-17 32-40	
سورة الرحمن		
﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾	29	
﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾	60	
سورة الممتحنة		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ...﴾	10	
سورة الجمعة		
﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ....﴾	2	
سورة الطلاق		
﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .... قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾	3-2	
﴿اللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ....﴾	4	

		سورة التحريم
	6	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا.. ﴾
		سورة القلم
	4	﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾
		سورة المعارج
	1	﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾
		سورة النبأ
	1	﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾
		سورة التكوير
	8	﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾
		سورة المطففين
	26	﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾
		سورة الغاشية
	26-25	﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾
		سورة الضحى
	10	﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾
		سورة الشرح
	2	﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾
		سورة العلق
	5-1	﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ.عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾
	6-5	﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾
		سورة البينة

	5	﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾
سورة الزلزلة		
	8-6	﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾
سورة التكاثر		
	8	﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾
سورة العصر		
	3	﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث الاحاديث	الصفحة
الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به.....	
إذا قرأ ابن آدم السجدة....	
إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث.......	
إن الدنيا حلوة.......	
إن الدين يسر....	
إن الله كتب الإحسان.....	
إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة.......	
إن الله لا ينظر إلى صوركم......	
إن الله لم يبعثني معنتا....	
إن المؤمن للمؤمن كالبنيان......	
أن تعبد الله كأنك تراه......	
أن تؤمن بالله وملائكته.......	
إن مثل ما بعثني به الله عز وجل....	
إنما الأعمال بالنيات.....	
إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول.....	
الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة.......	
البر حسن الخلق.....	
بَني الإسلام على خمس.......	
بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش......	
تركت فيكم أمرين.....	
تنكح المرأة لأربع....	
خير أمتي قرني....	
دعوني ماتركتكم....	
دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبا من الماء...	

	الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر......
	ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا....
	ُرضت علي أعمال أمتي حسنها وسيئها.........
	كل سلامى من الناس عليه صدقة........
	كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته.....
	لا تزول قدما عبد يوم القيامة.......
	ما الإيمان؟.......
	ما خُيّر النبي صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما...
	مثل القائم على حدود الله.........
	مثل المؤمنين.....
	المسلم من سلم المسلمين من لسانه ويده......
	مه عليكم ما تطيقون.......
	وقد تركت فيكم......
	يا معاذ هل تدري حق الله على عبده.......
	يسروا ولا تعسروا...........

فهرس المصادر والمراجع

. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

حرف الألف

1. أسعد محمود حومد، أيسر التفاسير، دون دار النشر، ط4، 1419هـ/ 2009م.
2. إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين، د.ط.ت.
3. الأصفهاني: أبو قاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب، معجم مفردات ألفاظ القران، تحقق: نديم مرعشلي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، د. ط، 1972م.
4. الآلوسي: أبو الفضل شهاب الدين محمود البغدادي، روح معاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ط.ت
5. أنور الجندي، التربية الإسلامية في الإطار الحقيقي للتعليم، دار الأنصار، القاهرة، د.ط، د.ت
6. إيمان عبد المؤمن سعد الدين، الأخلاق في الإسلام النظرية والتطبيق، مكتبة الرشد الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1424هـ/ 2002م.

حرف الباء

7. ابن باديس عبد الحميد ، أصول الهداية، دار الريان، الامارات، د. ط. ت.
8. ابن باديس عبد الحميد العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبويّة، دار الفتح الشارقة، ط1، 1416هـ/ 1995م.

فهرس المصادر والمراجع

9. البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله "صلى الله عليه وسلم" وسننه وأيامه، تحقيق: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ط1 ،1400هـ.

10. البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل،ت:محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، ط1417،4هـ/1997م.

11. البقاعي: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2003م.

12. أبو بكر الجزائري: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر، أيسر التفاسير لكلام العلى الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط5، 1424هـ/2003م.

13. بنت الشاطئ: عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة، ط5، دت.

14. البوطي: محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ط3، 1998م.

15. البيضاوي: تفسير البيضاوي، دار الفكر،بيروت، دط، دت.

حرف التاء

فهرس المصادر والمراجع

16. ابن تيمية تقي الدين، التفسير الكبير، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، د ط، دت.

17. ابن تيمية: تقي الدين، تزكية النفس، تحقيق: محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، دار مسلم، الرياض، ط1، 1415هـ/ 1994م.

18. ابن تيمية تقي الدين، مجموع الفتاوى، دار الوفاء، جمهورية مصر العربية، ط3، 1426هـ/ 2005م.

حرف الثاء

19. الثعالبي: عبد الرحمن ابن محمد ابن مخلوف أبي زيد، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1418هـ /1997م.

حرف الجيم

20. الجرجاني: علي بن محمد الشريف، التعريفات، مكتبة لبنان، د.ط، 1985م.

21. الجوهري: إسماعيل بن حماد، تاج اللغة والصحاح العربية، ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، د ط، د ت.

حرف الحاء

22. ابن حجر: شهاب الدين العسقلاني، شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، د ت.

فهرس المصادر والمراجع

23. ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الأفاق الجديدة، بيروت، د.ط، دت.

24. حمدي محمد بن صالح، نظرية الاستخلاف في الأموال في الاقتصاد الإسلامي، جمعية التراث، القرارة، غرداية، الجزائر، ط:1، 1421هـ/2001م

حرف الخاء

25. الخازن: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم الشيحي أبو الحسن، لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ .

26. ابن خلدون: عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ البربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت، لبنان، د ط، 1421هـ/2001م.

حرف الدال

27. دراز: محمد عبد الله، دستور الأخلاق في القرآن، دار البحوث العلمية، الكويت، ط3، 1980م.

28. الدمغاني: أبو عبد الله الحسين بن محمد، الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، تحقيق: عربي عبد الحميد علي، د.ط، دت.

حرف الراء

29. ابن رجب الحنبلي: زين الدين أبي فرج، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: مجموعة من المؤلفين، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط:1، 1417هـ/ 1996م.

30. ابن رجب الحنبلي: زين الدين أبي الفرج، عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي الدمشق، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط:2، 1422هـ.

31. رشيد رضا محمد، تفسير القران الحكيم المشهور بتفسير المنار، دار المنار، القاهرة، ط2، 1366هـ/ 1947م.

حرف الزاي

32. الزحيلي وهبة، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دارالفكر، دمشق، ط2 2003م.

33. الزمخشري: جار الله أبي القاسم محمود عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، 1418هـ/ 1998م.

34. زياد عواد أبو حماد، الاعجاز التأثيري في القرآن الكريم، مجلة جامعة دمشق، المجلد الثامن عشر، العدد الأول، 2002م.

فهرس المصادر والمراجع

35. زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن شهاب البغدادي الدمشقي، فتح الباري، دار ابن الجوزي، الدمام السعودية، ط 2، 1422هـ.

حرف السين

36. السعدي: عبد الرحمان بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحم بن معلا الويحق، مؤسسة الرسالة، ط:1، 1420ه /2000م.

37. سلطان بن عوض مطلق الجعيد، التكافل الاجتماعي في ضوء التربية الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السّعودية، دط، 1429ه .

38. السمرقندي: أبو الليث نصر بن محمد إبراهيم، بحر العلوم، دار الفكر، بيروت، د.ط، 1998م.

39. السنهوري: الوسيط في شرح القانون المدني، 1950م.

40. سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، ط32، 1423ه / 2003م.

حرف الشين

41. الشاطبي: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، الموافقات في أصول الفقه، تحقيق:أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط:1، 1417ه/ 1997م

42. الشرباصي أحمد، موسوعة أخلاق القرآن، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، 2000م.

43. الشّعراوي: محمد متولي ، تفسير الشعراوي، الأخبار اليوم، قطاع الثقافة، د.ط.ت

44. الشعراوي، جامع البيان في العبادات والأحكام، دار الندوة، القاهرة، د.ط، 1996م

فهرس المصادر والمراجع

45. الشنقيطي محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني، أضواء البيان في إيضاح القران بالقران دار الفكر، بيروت، دط، 1415هـ/ 1995م.

46. شوقي أحمد دنيا، الإسلام والتنمية الاقتصادية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1979م.

47. الشوكاني: محمد بن علي بن محمد، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر بيروت، د.ط، دت.

حرف الطاء

48. الطبري: أبو جعفر محمد بن حرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، ط1، 1422هـ/ 2000م.

49. طهماز عبد الحميد محمود، المسؤولية والجزاء في سورة هود، دار القلم، دمشق، بيروت، ط 1، 1994م.

50. الطيب برغوث: مدخل سنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، دار النعمان الجزائر، د ط، 2017م.

51. الطيب برغوث: التجديد الحضاري والعمق الإنساني للإنسان، دار النعمان الجزائر، د ط، 2017م.

52.الطيب برغوث، الأطروحة السننيّة الخلدونية ونظرية المدافعة والتجديد، دار النعمان الجزائر، د ط، 2017م.

فهرس المصادر والمراجع

53. الطيب برغوث، نحو أكاديمية وطنية لتنمية المعرفة والثقافة السننية دعوة لبناء ثقافة النهضة، دار النعمان الجزائر، د ط، 2017م.

حرف العين

54. ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، د.ط، 1997م.

55. عبد الحميد الصيد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السيرة النبوية، دار العربية للكتاب، ليبيا ، ط2، 1993م.

56. عبد المجيد النجار، فقه التحضر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999م.

57. ابن عجيبة: أحمد بن محمد ابن مهدي الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1423هـ/ 2002م.

58. العسقلاني: أبو الفضل احمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الفكر،د.ط. ت.

59. العسقلاني: شهاب الدين ابن حجر ، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 2، د ت.

60. ابن عطية: أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عبد الرحمن بن تمام المحاربي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 1422هـ/2001م.

فهرس المصادر والمراجع

61. العمري أحمد خيري، البوصلة القرآنية، دار الفكر، دمشق، ط 5، 2011م.

62. العمري أكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، د ط، د ت.

63. العيني: بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد، شرح صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ/ 2001م.

حرف الغين

64. الغزالي: محمد، السنة النبوية بين أهل الفقه و أهل الحديث، دار الشروق، ط 3، 1989م.

65. الغزالي: محمد، عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، العدد 150 جمادى الآخرة، 1393هـ/ ديسمبر 1977م.

66. الغزالي: محمد، كيف نتعامل مع القرآن، شركة نهضة مصر، ط7، 2005م.

67. الغزالي: محمد، مقال النهوض الحقيقي لأمتنا، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 108، ذو الحجة 1393هـ/ ديسمبر1973م.

حرف الفاء

68. فائز أحمد: اليوم الآخر في ظلال القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، د ط، 1983م.

69. ابن فارس: أبو الحسن أحمد زكريا، معجم مقاييس اللغة، دار الجيل، بيروت، دط، 1991م.

70. الفيروزآبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، د ط، د ت.

فهرس المصادر والمراجع

حرف القاف

71. القرضاوي: العبادة في الإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة، ط24، 1416هـ/ 1995م.

72. القرضاوي: يوسف، الخصائص العامة للإسلام، بيروت لبنان، ط1، 1999م.

73. القرضاوي: يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1421هـ / 2001م.

74. القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية، الرياض، د.ط، 1423هـ /2003م.

75. ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، الجواب الكافي لمن سال عن الدواء الشافي، دار الكتب العلمية،بيروت، د ط، د ت.

76. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ .

77. ابن قيم الجوزية، الداء والدواء، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، د ط، د ت.

78. ابن قيم الجوزية، الضوء المنير على التفسير، مؤسسة النور، الرياض، د ط، د ت.

79. ابن قيم الجوزية، الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1393هـ/ 1973م.

فهرس المصادر والمراجع

80. ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبي عبد الله محمد، طريق الهجرتين وباب السعادتين، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1 ، 2004م.

81. ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين"، تحقيق: رضوان جامع رضوان، مؤسسة المختار القاهرة، ط1، 1422 ه/ 2001م.

82. ابن قيم الجوزية، بدائع التفسير، دار ابن الجوزي، مملكة العربية السعودية، ط:1، 1427ه.

حرف الكاف

83. ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل ابن عمر القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار الطيبة، ط2، 1420ه/ 1999م.

84. كولن: محمد فتح الله ، طرق الإرشاد في الفكر والحياة، دار النيل، جمهورية مصر العربية، ط5، 1431ه/2010م.

85. كولن: محمد فتح الله، الموازين أو أضواء على الطريق، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة، ط5، 1431ه/2010م.

86. كولن: محمد فتح الله، ونحن نبني حضارتنا، ترجمة: عوني عمر لطفي أوغلو، دار النيل، ط1، 1433ه/ 2012م.

فهرس المصادر والمراجع

87. الكيلاني: ماجد عرسان، فلسفة التربية الإسلامية، مكتبة هادي، مكة المكرمة، ط2، 1409 هـ.

حرف الميم

88. مالك بن أنس: أبو عبد الله الأصبحي، موطأ الإمام مالك،-رواية محمد ابن الحسن-، تحقيق تقي الدين الندوي، دار القلم، دمشق ط1، 1413هـ/ 1991م.

89. مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق سوريا، ط4، 1987م.

90. مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، دط، 1406هـ/1986م

91. الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، النكت والعيون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د ط، د ت.

92. محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، الاعتصام بالكتاب والسنة، دار ابن كثير، بيروت ط3، 1987م.

93. محمد حسن سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن، دار الأفاق العربية، القاهرة، ط1، 2002م.

94. محمد علي بن أحمد بن سعيد، الأحكام في أصول الأحكام، دار الأفاق الجديدة، بيروت، د ط، د ت.

فهرس المصادر والمراجع

95. محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصرية، القاهرة، بيروت، د ط، 1364هـ .

96. المراغي: أحمد مصطفى، تفسير المراغي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1، 1365هـ/ 1946م.

97. مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، دار الجيل، بيروت، دار الأفاق الجديدة، بيروت، د ط، د ت.

98. المقدسي: مجبر الدين بن محمد العليمي الحنبلي، فتح الرحمن في تفسير القرآن، تحقيق: نور الدين طالب، دار النوادر، ط1، 1430هـ/2009م.

99. ابن منظور: جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم علي بن أحمد بن أبي القاسمي الأنصاري، لسان العرب ن دار المعارف، القاهرة، د ط، دت.

100. الميداني: عبد الرحمن حسن حبنكة، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ط5 ، 1420هـ/ 1999م .

101. الميداني: عبد الرحمن حسن حبنكة، العقيدة الإسلامية وأسسها، دار القلم دمشق بيروت، ط2، 1399هـ /1979م.

حرف النون

102. النجار: عبد المجيد عمر، فقه التحضر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999م.

فهرس المصادر والمراجع

103. النحلاوي عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، دار الفكر العربي، ط3 1425 هـ.

104. النسفي: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط:1، 1419هـ/ 1998م.

105. النووي: أبو زكرياء يحي بن شرف بن مري، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1392هـ.

حرف الواو

106. الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: مجموعة من المؤلفين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ /1994م.

فهرس الموضوعات

مقدمة..أ

الفصل الأول: ماهية المسؤولية

المبحث الأول: مفهوم المسؤولية وخصائصها...3

المطلب الأول: مفهوم المسؤولية...3

الفرع الأول: مفهوم المسؤولية لغة......................................3

الفرع الثاني: مفهوم المسؤولية اصطلاحا................................5

الفرع الثالث: مفهوم المسؤولية في القرآن والحديث النبوي.......8

المطلب الثاني: خصائص المسؤولية..13

الفرع الأول: الربانية (مرجعية التوحيد)................................13

الفرع الثاني: العموم..16

الفرع الثالث: الشمول...19

الفرع الرابع:ارتباط المسؤولية بالجزاء...............................21

المبحث الثاني: شروط المسؤولية وأهدافها...26

المطلب الأول: شروط المسؤولية..27

الفرع الأول:الإخلاص والفهم...27

الفرع الثاني:التخطيط والتنظيم.......................................30

الفرع الثالث:العمل والممارسة العلمية الميدانية....................32

الفرع الرابع:المتابعة والتقويم.......................................33

الفرع الخامس:الاستمرار...35
المطلب الثاني: أهداف المسؤولية. 37
الفرع الأول: الأهداف العامة..37
الفرع الثاني: الأهداف الخاصة...49
الفصل الثاني: أسس المسؤولية
المبحث الأول: الأساس الاستخلافي للمسؤولية..................................59
المطلب الأول:التكريم الإلهي للإنسان.......................................60
الفرع الأول:المسؤولية التشريفية في مشهد السماء................60
الفرع الثاني: المسؤولية التأهيلية في مشهد الجنة.................65
الفرع الثالث: المسؤولية التكليفية في مشهد الأرض...............67
المطلب الثاني: مسؤولية العبادة(الإيمان)....................................71
الفرع الأول: حقيقة العبودية...71
الفرع الثاني: الدعوة إلى العبودية...74
المطلب الثالث:مسؤولية عمارة الأرض(العمل الصالح)...............84
الفرع الأول:عمارة آدم عليه السلام..85
الفرع الثاني:العمارة النبوية...89
الفرع الثالث: العمارة الأممية(أمة النبي صلى الله عليه وسلم)....94

المبحث الثاني: مراتب المسؤولية..103
المطلب الأول: مراتب المسؤولية التعبدية..................................104
الفرع الأول:مرتبة الإيمان(البعد الإيماني للمسؤولية)...........104
الفرع الثاني: مرتبة الإسلام (البعد الإسلامي للمسؤولية)........108
الفرع الثالث:مرتبة الإحسان(البعد الإحساني للمسؤولية)....... 111
المطلب الثاني: مراتب المسؤولية الاجتماعية.............................114
الفرع الأول: البعد الثقافي للمسؤولية.............................115
الفرع الثاني:البعد الاجتماعي للمسؤولية..........................118
الفرع الثالث: البعد الإنساني للمسؤولية..........................122
الفصل الثالث: مترتبات المسؤولية
المبحث الأول: الترتب التكليفي للمسؤولية.......................................129
المطلب الأول: الوسع التكليفي..130
الفرع الأول:تعريف الوسع وعلاقته بالتكليف......................130
الفرع الثاني:الألفاظ المقاربة للوسع.................................132
المطلب الثاني: اليسر التكليفي...142
الفرع الأول:اليسر في العقيدة..147
الفرع الثاني:اليسر في التشريع......................................150
الفرع الثالث:اليسر في الأخلاق.......................................153

المطلب الثالث: التكافل التكليفي. 156

الفرع الأول: التكافل على المستوى الأسري..........................156

الفرع الثاني: التكافل على المستوى الاجتماعي..................159

الفرع الثالث: التكافل على المستوى الإنساني......................163

المبحث الثاني: الترتب الجزائي للمسؤولية..............................167

المطلب الأول: الجزاء باعتبار المكلف الفردي والجماعي...............168

الفرع الأول:الجزاء باعتبار الفرد..168

الفرع الثاني: الجزاء باعتبار الجماعة..................................171

المطلب الثاني: الجزاء باعتبار الأجل المعجل والمؤجل................178

الفرع الأول: الجزاء باعتبار الأجل المعجل.............................179

الفرع الثاني: الجزاء باعتبار الأجل المؤجل............................184

المطلب الثالث: الجزاء باعتبار الدارين..............................189.

الفرع الأول: الجزاء باعتبار الدنيا......................................189

الفرع الثاني: الجزاء باعتبار الآخرة....................................195

الخاتمة...202

فهرس الآيات القرآنية...

فهرس الأحاديث النبوية...

فهرس المصادر والمراجع..

ملخصات:

ملخص بالعربية

ملخص بالإنجليزية